حرب الجواسيس

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

د. نبيل فاروق

6

زهرة السُّمّ

Looloo
www.dvd4arab.com

زهـرة السُّـم

عبر سنوات طويلة انهمكت بكيانى كله فى ذلك العالم ..

عالم الجاسوسية والمخابرات ..

وعبر تلك السنوات تشرفت بنشر عشرات من خفاياه فى مجلة الشباب المصرية ..

وعبر تلك السنوات قرأت الكثير عن هذا العالم ..

وكتبت الكثير ..

وعرفت الكثير ..

وتعلمت الكثير ..

عرفت وتعلمت أنه مهما تصوّر العدو أنه منيع لا يقهر ، ومهما تصوّر أنه ذكى ، يستطيع دس جواسيسه فى عالمنا ، فرجال مخابراتنا أبرع وأذكى ، ويرصدون جواسيسه مهما تخفوا وتنكروا قلبًا وقالبًا ..

وتعلمت ألا تأمن شر عدوك ، حتى لو جاءك فى هيئة زهرة ..

فهو بالفعل زهرة ..

زهرة سُم .

د. نبيل فاروق

أرض العـدو

خيم صمت تام على حجرة مكتب رجل المخابرات المصرى (عماد) ، مع انهماكه وتركيزه الشديدين ، فى مراجعة بعض الملفات المهمة ، لعدد من القضايا ، التى أثيرت فى الآونة الأخيرة ، وطوال ما يقرب من ساعتين كاملتين ، لم يقطع ذلك الصمت سوى نقرات أصابع (عماد) على سطح مكتبه ، وهو يقرأ فقرة أثارت انتباهه ، أو يطالع بعض الصور السرية للغاية ، التى التقطها عملاء المخابرات فى قلب (إسرائيل) ..

وبينما استغرقه هذا الأمر تمامًا ، ارتفعت فجأة طرقات حذرة على باب مكتبه ، فى جهاز المخابرات العامة ، فرفع رأسه عن الأوراق فى شىء من الحدة ، وهو يتساءل عمن يدق الباب ، ولم يكد يتعرفه حتى طلب منه الدخول ، وهو يلملم ملفاته ، ويضعها جانبًا ، ويخفيها بصحيفة حديثة الإصدار ..

وفى هدوء ، دلف أحد موظفى الأمن إلى مكتبه ، قائلاً :

ـ معذرة لمقاطعتك يا سيدى (عماد) ، ولكن هناك مواطن فى مكتب الأمن ، يطلب مقابلة أحد المسئولين هنا ، ولقد طلبوا منى عرض الأمر عليك .

اعتدل (عماد) فى مجلسه ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ وما اسمه ؟!

ـ إنه سكندرى .. يدعى (أيمن عبد الفتاح عثمان) .

لم يكن (عماد) يسمع الاسم ، حتى انعقد حاجباه فى شدة ، واستدار إلى الملفات التى كان يطالعها منذ لحظات ، والتقط من بينها ملفًا ، ألقى نظرة طويلة عليها ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ فَلْيَكُنْ .. سأستقبله فى المكتب الثالث ، فى الطابق الأرضى .

انصرف موظف الأمن ، وترك (عماد) خلفه ، يراجع الملف لربع ساعة أخرى ، قبل أن ينهض ، ويعقد رباط عنقه ، ثم يتجه لمقابلة ذلك المواطن ، فى الطابق الأرضى ..

كان شابًا فى أوائل الثلاثينيات من عمره ، نحيلاً ، طويلاً .. نظراته زائغة ، ويفرك أصابع كفيه فى عصبية طوال الوقت ، ولم يكد يلمح (عماد) حتى هب واقفًا ، وقال فى توتر :

ـ اسمى (أيمن عبد الفتاح عثمان) .. من (الإسكندرية) .

أشار إليه (عماد) بالجلوس ، وهو يتفحصه بنظرة متمرسة ، قائلاً :

ـ تفضل يا سيد (أيمن) .

ظل (أيمن) على عصبيته وتوتره ، حتى استقر كل منهما فى مقعده ، وزاد من توتره وارتباكه ذلك الصمت ، الذى شمل الحجرة لحظات ، تطلع إليه (عماد) خلالها بنظرة نفاذة ، قبل أن يعتدل ، ويسأله فى هدوء عجيب :

ـ لماذا طلبت مقابلة أحد المسئولين يا (أيمن) ؟!

تنحنح (أيمن) فى توتر بالغ ، قبل أن يجيب :

ـ لدىَّ ما أبلغكم به .. لقد .. لقد ارتبك ، وعجز عن الاستمرار ، فسأله (عماد) بنفس الهدوء :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟!

ازدرد (أيمن) لعابه فى صعوبة ، قبل أن يقول فى اندفاع مفاجئ ، وكأنما قرر أن يلقى ما لديه دفعة واحدة .

ـ الإسرائيليون حاولوا تجنيدى ، للعمل لحساب مخابراتهم .

كان يتوقع أثرًا ما للدهشة أو المفاجأة ، ولقد حدث هذا بالفعل ، وتفجرت دهشة عارمة ، ولكن فى أعماقه هو ، عندما استقبل (عماد) الخبر بهدوء مثير ، وهو يسأله :

ـ وكيف حدث هذا ؟!

أجابه (أيمن) فى حماسة وكأنما يصر على جنب اهتمامه بأى ثمن :

ـ لقد ذهبت للعمل فى (إسرائيل) ، وتجاوزت الفترة التى تسمح بها تأشيرة الدخول ، وألقت الشرطة الإسرائيلية القبض على ، ثم التقى بى أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية ، وطلب منى التعاون معهم ، ومنحنى ألفى دولار ، مقابل أن أرسل إليهم بعض المعلومات البسيطة ، التى يمكن لأى شخص الحصول عليها .

تراجع (عماد) فى مقعده ، وسأله بنفس الهدوء :

ـ وهل أرسلت إليهم هذه المعلومات .. البسيطة ؟!

صمت (أيمن) بضع لحظات ، قبل أن يهز رأسه فى ارتباك مجيبًا :

ـ إنها مجرد معلومات بسيطة .. يمكن لأى شخص ...

قاطعه (عماد) :

ـ وماذا عن الألفى دولار .

ازدرد (أيمن) لعابه فى صعوبة هذه المرة ، وهو يقول :

ـ لقد عدت من هناك منذ ما يقرب من الشهرين ، وأنت تعرف صعوبة العيش وكثرة المصروفات ، والت ...

قاطعه (عماد) مرة أخرى ، وقد تسللت نبرة صارمة إلى لهجته الهادئة هذه المرة :

ـ بالطبع .. بالطبع .

ولنصف دقيقة تقريبًا ، راح يحدجه بنظرة باردة ، جعلت الشاب ينكمش فى مقعده ، ويتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته ، ثم لم يلبث (عماد) أن مال نحوه ، قائلاً :

- سيد (أيمن) .. هل تفكر فى تغيير أى شىء من أقوالك هذه ؟!

هل تشعر أنك لم تخبرنا بالحقائق كاملة ؟

هتف (أيمن) فى توتر بالغ :

- بل أخبرتكم بكل شىء .

تراجع (عماد) مرة أخرى ، قائلاً فى صرامة :

- ربما يروق لك إذن أن تلقى نظرة على هذا؟

قالها ، وألقى إليه كومة صور منتقاة ، من ذلك الملف ، الذى تأخر لمطالعته فى مكتبه ..

ولم يكن (أيمن) يلقى نظرة على تلك الكومة من الصور حتى سقط قلبه بين قدميه ، وانتفض جسده من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

(مصر) التسعينيات .. كل شىء تبدل وتطور ، على نحو لم يكن يتصوره أحد ، منذ ربع قرن من الزمان ..

إنزاح عن كاهلنا عبء ديون مرهقة ، ظللنا نرزح تحت ثقلها لأعوام وأعوام ..

بنيتنا الأساسية نفضت عن نفسها إرهاق القدم والتهالك ، واستعادت شبابها ورونقها ، وتحدثت وتطورت ، لتلحق بركاب العصر ، وتركب مع الدول المتقدمة قطار التقدم والتكنولوجيا ، الذى ينطلق كالصاروخ ، نحو القرن الحادى والعشرين ..

وعلى الرغم من كل هذا ظل هناك من يقاتل ويجاهد ، للحصول على فرصة عمل خارج الحدود .. حتى لو كان هذا فى قلب (إسرائيل) ..

و(أيمن) واحد من هؤلاء التعساء ..

لقد بدأ بطموح متواضع ، للبحث عن عقد عمل فى إحدى الدول المجاورة ، وحفيت قدماه خلف سماسرة التوظيف ، وأحلام الثراء فى بلاد النفط ، حتى جاء ذات ليلة من يهمس فى أذنه ، بأن هناك فرص عمل عديدة ، ونقودًا لا حصر لها ، فى قلب (إسرائيل) ..

وقبل أن يدرس (أيمن) الفكرة ، أو يتساءل كيف تتوافر فرص العمل على هذا النحو ، فى بلد يشكو سكانه من البطالة ، انطلق مع صديق السوء هذا ، إلى السفارة الإسرائيلية ، يطلب تأشيرة لدخول (إسرائيل) ..

ولأنه كان يُعد صبيًا صغيرًا ، عندما اندلعت الحروب ، بيننا وبين الإسرائيليين فإن مرأى النجمة السداسية الزرقاء لم يلهب الدماء فى عروق (أيمن) وهو يحصل على التأشيرة ، ويسافر بنفسه إلى هناك ..

إلى (إسرائيل) ..

وهنا .. تحت العلم الصهيونى ، تبدد الحلم ، وذهبت السكرة ، وجاءت الفكرة ..

الأحلام الوردية ، المزينة بأوراق النقد ذابت ، أمام المجهود الخرافى ، الذى بذله فى (إسرائيل) ، للبحث عن عمل ، والذى اضطره فى النهاية لقبول وظيفة وضيعة ، لو أنه قبل مثلها فى وطنه ، لحصل على أضعاف ما يحصل عليه هناك .

ولكن تأشيرة السياحة ، التى حصل عليها ، لم تلبث أن انتهت ، ووجد (أيمن) نفسه أمام خيارين ، لا ثالث لهما .. إما أن يعود إلى (مصر) ، أو يواصل العمل فى (إسرائيل) متجاوزًا موعد التأشيرة ..

وتردد الشاب فى اتخاذ القرار ..

تردد كثيرًا وطويلاً ، حتى إنه عندما اتخذ قراره بالعودة ، كانت تأشيرته قد انتهت بالفعل ..

وفى (مصر) ، عاد (أيمن) يبحث عن عمل ، ولكنه عمل أنيق هذه المرة ، ليعوضه عن عمله الوضيع فى أرض (إسرائيل) ..

والعجيب أنه رفض تمامًا القيام بأية أعمال بسيطة فى (مصر) ، وكأنما كل ما يهمه هو أن يعمل خارج الحدود فحسب .. وفى أية حدود أخرى .. أيًّا كانت ..

ولهذا سعى (أيمن) مرة أخرى للعودة إلى (إسرائيل) ..

ولأنه تجاوز تأشيرته فى المرة السابقة ، فقد واجه صعوبات فى الحصول على تأشيرة جديدة ..

وفى هذه المرة أيضًا ، جاء رفيق السوء ..

جاء ليهمس فى أذنه هذه المرة بأنه من الممكن أن يدخل (إسرائيل) من منفذ (طابا) ، وأن يحصل على تأشيرة الدخول هناك ..

وهرع (أيمن) إلى (طابا) ..

والعجيب أنه قد حصل بالفعل على تأشيرة جديدة ، فى قلب (إسرائيل) ، ودون أن يهتز له جفن لمرأى نجمة (داود) ، فى هذه المرة أيضًا ..

وعاد (أيمن) إلى عمله الوضيع القديم فى (إسرائيل) ، ثم لم يلبث أن انتقل منه إلى عمل أفضل ، حصل فيه على ربع ما يحصل عليه الإسرائيلى الشرقى ، ولكنه تصور ـ لسبب غير مفهوم ـ أن هذا هو النجاح بعينه ..

وبسبب شعوره العجيب هذا ، نسى (أيمن) أمر التأشيرة تمامًا ، وتجاوز مدتها بشهر كامل ؛ مما جعله عرضة لمطاردة الشرطة

الإسرائيلية ، وملاحقتها طوال الوقت ، مما جعل صاحب العمل يخفض راتبه إلى النصف ، مستغلاً وجوده غير الشرعى فى (إسرائيل) ..

وذات ليلة ، وأثناء عودته إلى الفندق الرخيص ، الذى يقيم فيه ، فوجئ (أيمن) بسيارة من سيارات الشرطة تقف أمامه ، وبرجال الشرطة يقتادون رفاق غرفته إلى سيارة كبيرة لها قضبان سميكة على بابها الخلفى ..

وبكل رعب الدنيا ، انطلق (أيمن) هاربًا ، وراح يعدو فى شوارع المدينة ، دون هدف أو ملاذ ، وأسودت الدنيا أمام عينيه ، وهو يسير على غير هدى ، حتى قرب الفجر ..

وعندما عاد إلى الفندق أخيرًا ، بعد أن اطمأن إلى رحيل رجال الشرطة ، وألقى جسده المكدود على فراشه الصغير ، الذى لم تتغير ملاءته منذ شهر على الأقل ، وقبل حتى أن يغلق عينيه ، فوجئ برجال الشرطة الإسرائيليين يحيطون به ، بعد أن أبلغهم صاحب الفندق الإسرائيلى بعودته ، وسرعان ما وجد نفسه فى مقرهم ، محاطًا بوجوههم الصارمة ، ونظراتهم النارية ، وأسئلتهم الغاضبة الشرسة ، التى لا تتوقف قط .

ومع مطلع الشمس ، كان الشاب قد انهار تمامًا ، وصار مستعدًا لفعل أى شىء فى الدنيا ، ليخرج من هذا الجحيم ..

وهنا ، جاء ضابط المخابرات الإسرائيلى ، ليمنحه جرعة ماء فى صحراء العذاب ، وليتحدث معه لأول مرة فى هدوء ومودة ، ويسأله عن سبب تجاوزه لتأشيرة البقاء فى (إسرائيل) ، ثم يشير إليه بوجود عمل جيد ، يمكن أن يمنحه الكثير من المال ، بأقل القليل من الجهد ..

وقبل أن ينتصف النهار ، كان (أيمن) قد استوعب الأمر كله ، وأدرك أن ضابط المخابرات الإسرائيلى يعرض عليه العمل ضد وطنه ..

ضد (مصر) ..

ووافق (أيمن) ، وتم الإفراج عنه بعد نصف ساعة فحسب من موافقته ، واصطحبه الضابط الإسرائيلى إلى أحد مقار المخابرات هناك ، حيث أخضعه لدورة تدريبية سريعة ، على وسائل جمع المعلومات ، وتحديد أنواع الأسلحة المختلفة ، ثم منحه عنوانًا للمراسلة فى (أوروبا) ، مع ألفى دولار ، وطلب منه أن يرسل بعض المعلومات البسيطة ، فور عودته إلى (مصر) ..

وعاد (أيمن) إلى (مصر) ، مع أوائل شهر (رمضان) ، ومع أوامر ضابط المخابرات الإسرائيلى ، والألفى دولار ..

وفى الأيام الأولى من شهر رمضان ، جمع (أيمن) كل ماطلبه

ضابط المخابرات الإسرائيلى من معلومات ، وأرسلها إلى ذلك العنوان فى (أوروبا) ، وراح ينفق ما حصل عليه من أموال ، ثمنًا لخيانته ، حتى مضت أيام العيد ، وبعدها اتجه إلى المخابرات العامة ، فى محاولة لتبرئة نفسه ، وتأمينها ، متصورًا أنه بهذا يكون قد نجح فى خداع جهاز المخابرات المصرى والإسرائيلى فى آن واحد ..

ولكن تصوره هذا انهار كله دفعة واحدة ، كقصر من التراب ، عندما ناوله (عماد) تلك الصور .

أضف إلى هذا أن ملفه فى المخابرات كان يحمل اسمه ، وعنوانه ، وحتى رقم بطاقته الشخصية ، وجواز سفره ، وكلها معلومات ألقاها (عماد) على مسامعه ، وهو يحدق ذاهلاً فى تلك الصور .

أما ما فى داخل هذا الملف ، فقد كانت هناك مجموعة أكبر من الصور ، والوثائق ، والتسجيلات التى تكشف حقيقة كل ما حدث فى (إسرائيل) .. وبأدق التفاصيل ..

ودون أن يشعر ، سقطت الصور كلها من يده ، وهو ينفجر باكيًا ، ويهتف :

ـ أنا لم أقصد هذا .. لم أقصده أبدًا ..

انعقد حاجبا (عماد) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ عندما يقدم الإنسان على فعل شىء ما ، فهو يقصده حتمًا يا سيد (أيمن) .. لقد تعاونت مع الإسرائيليين بملء إرادتك ، وحصلت منهم على أموال الخيانة القذرة ، وأنفقتها حتى آخر قرش ، ثم تصورت أنك ستغسل نفسك بعد كل هذا ، عندما تأتى إلى هنا ، وبراءة الأطفال فى عينيك : لتقول : إن الإسرائيليين حاولوا تجنيدك .

ارتجفت كل ذرة فى كيان (أيمن) ، وهو يقول فى انهيار :

ـ ما قصدته هو أن ...

قاطعه (عماد) فى صرامة :

ما قصدته ، وما حاولته ، هو أن تمسك العصا من طرفيها كما يقولون .. أو تخفيها كلها ، ثم تعود إلى وطنك لترتدى ثوب البطولة .. خطأ يا هذا .. أكبر خطأ .. صحيح أن النظام الحالى لا يمنعك من السفر للعمل فى أى مكان تشاء حتى لو كان (إسرائيل) نفسها ، نظرًا لما يتمتع به المواطن من حرية ، فى هذا العصر ، ولكن هذا لا يعنى أن عيوننا نائمة أو غافلة ، عن رؤية كل ما يهدد أمننا ، أو يعرض وطننا للخطر .. فلتعلم أن لنا عيونًا فى قلب (إسرائيل) .. فى كل ركن فى كل شبر منها .. عيون تتابع كل ما يحولون فعله للإضرار بنا ، وتتابع باهتمام أكثر كل محاولاتهم لتجنيد أبناء وطننا ، ودفعهم إلى بئر الخيانة ..

سالت دموع (أيمن) ، وهو يغمغم فى مرارة :

ـ كنت مضطرًا ..

نهض (عماد) من خلف مكتبه ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ لست وحدك من تعرض لهذه الضغوط .. عشرات المصريين واجهوا مثل هذه المواقف ، ولكن هذا لم يدفعهم قط لخيانة وطنهم .. حتى الذين تظاهروا بهذا أمام الإسرائيليين ، كمحاولة للتخلص من الضغوط والتعذيب ، لم يكد الواحد منهم يعود إلى الوطن ، حتى يهرع إلينا ، ويقص علينا القصة كلها ، ويسلمنا كل ما حصل عليه منهم ، لأن الشرفاء لا يرضون بالمال القذر أبدًا ..

عض (أيمن) شفتيه ندمًا ، وهو يقول فى مرارة :

ـ ليتنى ما أتيت .. ليتنى ما أتيت ..

أشار إليه (عماد) بسبابته ، قائلاً فى صرامة :

ـ لو لم تأت أنت إلينا ، لأتينا نحن إليك .

ثم انعقد حاجباه فى صرامة شديدة ، مستطردًا :

ـ صدقنى يا هذا .. خيانة الوطن لا تربح أبدًا ، ولا تمتزج قط بالرزق .

وانهار أيمن أكثر وأكثر ، وراح يبكى ، ويتوسل ، ويبرر ويعلل ..

وحتى فى أثناء محاكمته ، لم يتوقف (أيمن) عن إنكار خيانته ، بل حاول محاميه أن يقلب الصورة ، من الخيانة إلى البطولة ، مستندًا إلى أن موكله قد أبلغ جهاز المخابرات العامة بالفعل ..

ولكن الحقائق كانت واضحة ، والأدلة دامغة ، والتسجيلات والصور والوثائق لا تقبل الشك ..

ثم إن (أيمن) ومحاميه قد وقفا عاجزين أمام عدة أسئلة ، لم يجد أحدهما لها جوابًا ..

لماذا لم يبلغ المخابرات العامة فور عودته ؟!..

ولماذا أرسل تلك المعلومات (البسيطة) ، إلى ذلك العنوان فى (أوروبا) ، ما دام قد عاد إلى وطنه بالفعل ، ولم يعد مضطرًا لمجاراة جهاز المخابرات الإسرائيلى ؟!..

وأخيرًا ، لماذا حصل على ثمن الخيانة ، وأنفقه كاملاً ، بدلاً من تسليمه إلى المخابرات العامة ؟!

وأمام كل تلك الحقائق ، ثبتت إدانة (أيمن) ، وصدر الحكم بالسجن خمسة عشر عامًا ، مع الأشغال الشاقة ..

ولعل هـذا يكون درسًا لـه ، ولكل من علـى شـاكلته ، ليدرك الجميع أن عيون رجـال المخـابرات العامـة ستظل دائمًـا وأبـدًا مستيقظة متأهبة ، لحماية (مصر) ، والحفاظ على أمنها وأمانها وسلامتها ..

فى كل زمان ..

وكل أرض ..

* * *

أصـل وصـورة

« المصريون أوقعوا بعميل آخر من عملائنا فى (القاهرة) » ..

خيَّم الوجوم على قاعة الاجتماعات الكبرى ، فى مبنى المخـابرات الإسرائيلية فـى (تـل أبيب) ، عندمـا نطق رئيس الاسـتخبارات الخارجيـة هذه العبـارة ، وأطلَ مـن العيون مزيـج من المـرارة والحنق والأسف ، والجميـع يتطلَّعون إلـى الرجل الـذى استطرد بصوت يحمل كل ما اعتمل فى نفوسهم من انفعالات وألم :

ـ إنها المرة الخامسة ، التـى نخسر فيهـا أحد عملائنـا ، منـذ شتاء 1967م ؟!

ثم اندفع يستطرد فى حدة مفاجأة :

ـ حتى إننى أتسـاءل مـن هُزِمَ فى حـرب 1967م ؟! لقـد أكَّـدت تقاريركم جميعهـا أن هـذه الحـرب قـد دمـرت المصريين تمامًـا ، وحطَّمت إرادتهم وروحهم المعنوية ، وحوَّلتهـا إلـى فتـات تـذروه الريـاح ، فكيـف يتفـق هـذا مـع ارتفـاع درجـة نشـاط المخـابرات المصرية على هذا النحو ؟ حتى إن عملاءنا يتساقطون فى الآونة الأخيرة كالذباب ..

ـ ألديكم تفسير لهذا التناقض العجيب ؟!

حاول بعضهم تبرير الموقف بأن الجرح الذى أصاب المصريين قد شحذ منهم الهمم ، وأطلق طاقاتهم من عقالها ، ودفعهم لمضاعفة عملهم ونشاطهم إلى الحد الأقصى ، كما يفعلون دومًا عبر التاريخ كلما مرّ وطنهم بأزمة أو محنة ، وحاول البعض الآخر تفسير ما حدث بأنها مجرد ضربة حظ غير مدروسة ، معللاً هذا بأنه من المستحيل أن تبلغ كفاءة جهاز المخابرات المصرى هذا الحد ، ولكن رئيسه صاح به فى غضب :

ـ اسمع يا هذا .. يمكننى قبول كل محاولات التفسير والتبرير والتعليل ما دامت تحوى شيئًا من المنطق ، أما عندما تقتصر على الحماقات ، ومحاولة التهوين من شأن الخصم ، فهذا أمر مرفوض تمامًا ، فى أى جهاز مخابرات فى العالم ..

احتقن وجه الرجل ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين انبرى أحد زملائه قائلاً فى اهتمام وجدية شديدين :

ـ ولماذا لا يكون السبب هو الوسائل التقليدية ، التى يستخدمها العملاء فى الاتصال بنا ، والتى يمكن أن تتوصل إليها المخابرات المصرية ، فتتابع عملهم ، وتضعهم تحت المراقبة ، حتى توقع بهم فى النهاية ؟

جذب هذا القول انتباه الجميع بحق ، وخاصةً الرئيس ، الذى سأل الرجل :

ـ ما الذى تقصده بالوسائل التقليدية ؟

راح الرجل يشرح فكرته ، مؤكدًا أن كل الوسائل المتبعة فى التراسل ، فى كل أنظمة المخابرات تعد ـ على الرغم من تنوعها ـ مجرد أنماط تقليدية ، فهى إما أن تعتمد على الاتصال اللاسلكى أو الحبر السرى أو طرق الشفرة المختلفة ..

ومن الطبيعى والحال هكذا ، أن ينتبه رجال المخابرات المصرية إلى هذه الوسائل بشكل أو بآخر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فإنهم سيكشفون أمر العميل ، ويكثفون مراقبته أو يلقون القبض عليه على الفور ، ثم ختم شرحه قائلاً :

ـ وباختصار .. ينبغى أن نعثر على وسيلة جديدة ومبتكرة ، يستخدمها عميلنا للاتصال بنا ، أو تسلُّم المعلومات منا ، فهذا وحده قد يمكننا من خداع المخابرات المصرية ، وأن نمرر المعلومات من تحت أنفها فى وضح النهار ، دون أن نخشى المراقبة أو التتبع ..

بدت الفكرة أنيقة وجذابة ، واقتنع بها كل الحاضرين تقريبًا ، باستثناء رجل أو رجلين ، أبديا بعض التحفظات عليها ، إلا أن المناقشات حولها امتدت لساعة أخرى أو يزيد ، قبل أن يصدر فى النهاية قرار بتشكيل لجنة لبحث الفكرة ، وابتكار الوسيلة المنشودة ..

وطوال أربعة أيام كاملة ، راحت اللجنة تجتمع بالساعات ، وتناقش

الأمر دون أن يتفق أفرادها على وسـيلة محددة ، يمكن وضعها موضع التنفيذ ..

وفى اليوم الخامس ، هتف أحد أفراد اللجنة فى اهتمام :

ـ ولماذا لا نلجأ إلى الوسيلة الألمانية ؟!

أطلت فى عيون زملائه نظرة تساؤل ، فأخرج من حقيبته كتابًا قديمًا ، له غلاف جلدى أصابه بعض التلف ، وهو يكمل فى حماس :

ـ لقد عثرت عليها فى أحد الكتب ، التى تروى تاريخ المخابرات الألمانية ، فى الحربين الأولى والثانية وهى وسيلة بسيطة ، ولكنها غير مألوفة ، ويُطلق عليها اسم (الصورة الكامنة) ..

عقد أحدهم حاجبيه ، مغمغمًا :

ـ أعتقد أننى قرأت شيئًا عن هذا ..

راح الرجل يشرح لهم فكرته فى حرارة وانفعال .. واستمعوا إليه جيدًا ، وراقت لهم الفكرة ، فوافقوا عليها جميعًا دون مناقشة ، ثم سأل أحدهم فى اهتمام :

ـ الفكرة ممتازة ، ولكن هل لدينا العميل القادر على تنفيذها ..

أجاب صاحب الفكرة فى حماس :

ـ بالطبع .. لدنيا (منير) .. (منير عبد الغنى) .. إنه العميل المناسب تمامًا ..

وحسم قوله الأمر ..

ووضعت الفكرة موضع التنفيذ ..

وفى اليـوم بعـد التـالى ، وعنـدما كـان الجاسوس المصرى (منير عبد الغنى) يزاول عمله كمصور صحفى فى واحدة من المجلات الشهيرة ، تلقى رسالة تحمل اسم فنانة باريسية ، شاهد الجميع صورته معها أمام برج (إيفل) وسمعوه يروى قصة هيامها به عشرات المرات ، واختطف (منير) الرسالة فى لهفة المحب ، الذى طـال اشـتياقه لرسـالة محبوبتـه ، ومـلأ أنفـه برائحتها العطرة أمام عيون الحاسدين ، قبل أن ينزوى فى ركنه الخـاص ، ويفض الرسـالة ، ويقرأ سطورها فى نهم ، قبـل أن يدسها فى جيبه ، وهو يتنهد كعاشق ولهان ..

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى طلب (منير) إذنًا بـالانصراف ، وعاد إلى منزله بأقصى سرعة ، وهناك أغلق على نفسـه كل الأبواب والنوافذ ، ثم جلس يستخدم مادة كيماوية خاصـة ، لإظهـار الرسـالة الحقيقية ، المكتوبة بالحبر السرى ، بين سـطور رسالة المحبوبة الزائفة ، التى اخترعتها المخابرات الإسرائيلية كغطاء لاتصالاتها به ..

وكانت رسالتهم تطلب منه تحديد أوّل موعد يسـافر فيـه إلـى الخارج ، فى إطار عمله ، ليتم تدريبه على أسلوب جديد للتراسل ..

وبحكم عمله ومهنته ، كان (منير) كثير الأسفار ، لذا لم يمض أسبوعان ، حتى كان يلتقى برجل مخابرات إسرائيلى فى (روما) اصطحبه فى سرية تامة إلى أحد المنازل الآمنة ، وهناك راح يلقنه أسلوب التراسل الجديد ، الذى استوعبه (منير) فى سرعة بحكم خبرته ..

والواقع أن هذا الأسلوب ، المعروف باسم (الصورة الكامنة) كان يناسب عمله وطبيعته تمامًا ..

والفكرة كلها تعتمد على التقاط صورة عادية فى مكان لا يمت للأهمية أو السرية بأية صلة ، وترك مساحة كبيرة فى الصورة للسماء أو الصحراء ، أو أى جسم مسطح فاتح اللون ، ثم يتم إظهار الصورة فى المعمل بعد طبعها ، وعندما يتم الإظهار تغسل الصورة جيدًا ، وبعدها تطبع صورة أخرى للأماكن السرية التى تم تصويرها أو لوثائق مهمة ، فى المساحة المخصصة للسماء أو المسطح الفاتح اللون ، ولا يتم إظهار هذه الصورة الجديدة ، وإنما توضع الصورة كلها فى المثبت ، بحيث لا تظهر فيها إلا الصورة الأولى البريئة ، التى يتم إرسالها إلى أى مكان كصورة تذكارية عادية ، أو كلقطة لإحدى المناطق السياحية الشهيرة ..

وعندما تتسلّم المخابرات الإسرائيلية تلك الصورة (البريئة) ، لا يكون عليها سوى إعادة إظهارها ، فتبرز الصورة الكامنة على السطح ، وينكشف المختفى للأعين ..

وكانت الفكرة ، والحق يقال ، ممتازة بكل المقاييس ، فهى تجمع ما بين البساطة وعدم التقليدية ، بحيث كان من الممكن أن تحقق نجاحًا مدهشًا بالفعل ..

لولا أمر واحد ..

أن أعين المخابرات المصرية لم تكن نائمة ..

فكإجراء طبيعى ، كانت عيون المخابرات تراقب ، وبصفة دائمة كل المنازل التى يتصور الإسرائيليون أنها آمنة ، ويلتقطون الصور خلسة لكل من يدخلها أو يقترب منها طوال الأربع والعشرين ساعة ، دون أن تنتبه المخابرات الإسرائيلية إلى هذا فى معظم العواصم والمدن الأوروبية ..

وكتتابع منطقى ، كان هناك ملف ضخم لكل منزل (آمن) إسرائيلى ، فى (أوروبا) كلها ، وكان أحد هذه الملفات يحوى صورة واضحة للمصور (منير عبد الغنى) أثناء واحدة من زياراته إلى (باريس) منذ ما يقرب من ستة أشهر مضت ..

ومنذ ذلك الحين ، تم وضع (منير) تحت رقابة صارمة دائمة ، خاصة أثناء سفرياته المتعددة ، التى لم تحاول المخابرات المصرية الاعتراض عليها أو منعها ..

وعندما التقى (منير) بضابط المخابرات الإسرائيلى ، فى ذلك

المنزل فى (روما) وطال تواجدهما فيه ، أدرك رجال المخابرات المصرية على الفور أن الجاسوس يتلقى تدريبات جديدة على أمر ما ، وقرروا تكثيف مراقبته ، ومراجعة كل مراسلاته بطرقهم الخاصة ، لمعرفة التطور الجديد فى عمله القذر ..

ولكنهم ، وعلى الرغم من براعتهم فى مراقبة كل مراسلاته ، شعروا بحيرة حقيقية ، كادت تهز ثقتهم بأمر خيانته ، حتى إن أحدهم ظلّ يقلب الرسالة بين يديه لساعة كاملة ، قبل أن يقول :

ـ عجبًا !.. إنها مجرد رسالة عادية ، بكل معنى الكلمة .. لا أحبار سرية أو شفرة ، أو حتى تلاعبات لفظية !.. لماذا يرسل كل هذه الخطابات إلى عنوان المراسلات الإسرائيلى فى (باريس) إذن ؟!

التقط أحدهم المظروف ، وراح يفحصه بدوره ، وهو يقول :

ـ ربما لا يكمن السر فى الخطاب ، وإنما فى المظروف نفسه ..

سألوه فى اهتمام :

ـ وكيف يمكن هذا ؟!

ثم انبرى أحدهم يضيف :

ـ إنه لا يحوى أية كتابات بالأحبار السرية ..

أجابه الرجل فى حماس ..

هذا صحيح ، ولكن أحد الجواسيس قديمًا كان يخفى (الميكروفيلم) الدقيق خلف طابع البريد ..

جذب قوله اهتمامهم ، خاصة أنهم يحفظون جميعًا عن ظهر قلب قضية طابع البريد هذه ، فراحوا يفحصون الطابع ، وموضعه ، وأطراف المظروف ..

بل استخدموا تقنية بسيطة ، تعتمد على بخار الماء ، وانتزعوا الطابع كله من مكانه ، وفحصوه مرة أخرى ، قبل أن يعيدوه إلى نفس موضعه السابق بدقة متناهية ..

وعندما لم يعثروا على شىء تضاعفت حيرتهم أكثر وأكثر ..

ولكن زميلهم (باهر) التقط الصورة التى يحويها الخطاب ، والتى يبدو فيها (منير) أمام أهرامات الجيزة ، وقال :

ـ وماذا لو كان السر فى الصورة نفسها ؟

أجاب أحد زملائه :

ـ إنها ليست صورة لمنشآت عسكرية يا رجل بل مجرد صورة للجاسوس فى منطقة سياحية .

قال الأوّل فى اهتمام :

ـ ولماذا يرسل صورته مع الخطاب ، على الرغم من أن الحبيبة

الزائفة ، التى يراسلها فى (باريس) ، مجرد عميلة للمخابرات الإسرائيلية ، لا يعنيها من قريب أو بعيد أن تراه أمام الأهرامات ، أو حتى فى موضع أبى الهول نفسه ؟!

أجاب أحدهم فى تردد :

ـ ربما هى مجرد محاولة لإتقان الخدعة ..

أسرع الأول يُجيب ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

ـ أو أن محتوى الصورة الواضحة لا يهم ، وإنما المهم هو ما يختفى خلف تلك الصورة ..

قفزت الفكرة إلى رءوسهم جميعًا فى آن واحد ، وسبق أحدهم الجميع ، وهو يهتف فى حماس :

ـ الصورة الكامنة ..

أجابه (باهر) :

ـ بالضبط .

ولم تمض دقائق عشر على قوله المقتضب هذا ، حتى كانت صورة (منير) غارقة فى محلول الإظهار ، فى معمل التصوير الخاص ، فى الطابق الأرضى من أحد مبانى المخابرات العامة ..

وعندما تطلّع الرجال إلى الصورة الكامنة ، التى ظهرت فى وضوح ، فوق أهرامات الجيزة ، بعد عملية الإظهار الثابتة ، ارتسمت على شفتى (باهر) ابتسامة كبيرة ، وقال :

ـ ألم أقل لكم ؟

فلقد كانت الصورة الكامنة تحوى منظورًا كاملاً لبعض المنشآت العسكرية المصرية المحظور الاقتراب منها أو تصويرها بحكم القانون ..

وعلى الرغم من ارتياحهم لكشف وسيلة التراسل الجديدة ، قال أحدهم فى قلق :

ـ والآن ماذا بعد أن كشفنا الأمر ؟.. أليس من المفترض أن تصل هذه الصورة إلى المخابرات الإسرائيلية ؟!.. ألن تتنابهم الشكوك لو لم يحدث هذا ؟!

أجابه أحدهم فى حزم :

ـ بالتأكيد .. هنا يأتى دور الأستاذ (عزيز) ..

ولم تكن هناك مشكلة بالنسبة للأستاذ (عزيز) خبير التصوير الضوئى فى جهاز المخابرات العامة ، فقد أعاد تصوير لقطة (منير) الأصلية ، بعد أن حذف منها الصورة الكامنة ، وعالج الأمر بإعادة طبعها وإظهارها ، بنفس الأسلوب الذى اتبعه هذا

الأخير ، ليحصل فى النهاية على نسخة طبق الأصل من الصورة الأصلية ، تحوى صورة كامنة لنفس المنشآت العسكرية ، فى نفس الموضع بالضبط ..

وعلى نحو طبيعى تمامًا ، وصل الخطاب والصورة إلى المخابرات الإسرائيلية ، التى ابتسم رجالها فى ثقة ، وهم يتخيلون رجال المخابرات المصرية ، الذين لم ينتبهوا إلى هذه الوسيلة الفريدة الجديدة ..

أما رجال المخابرات المصرية ، فقد قرروا تأجيل الابتسام حتى النهاية ، وأخذوا يراجعون كل ما يرسله (منير) إلى (باريس) ، ويطالعون صوره الكامنة ، ثم يعيدون طبعها ، إما بنفس الصور ، أو باستبدالها بصور أخرى ، تنقل معلومات زائفة للإسرائيليين ..

وفى الوقت نفسه كانوا يراقبون كل ما يرد إلى (منير) من أوامر ومعلومات ، من الإسرائيليين فى (باريس) و(روما) ، نقلاً عن (تل أبيب) ..

وذات يوم ، وصلت إلى (منير) رسالة مهمة للغاية ..

رسالة يطالبه فيها الإسرائيليون بتصوير بعض المطارات السرية المصرية ، ثم يؤكدون له خطورة إرسال مثل هذه الصور المهمة بالبريد ، ويطلبون منه إحضارها معه شخصيًا ، عندما يسافر إلى (روما) فى مهمته الصحفية القادمة ..

وعندما طالع مدير المخابرات هذا الخطاب ، هزّ رأسه قليلاً ، ثم قال فى حزم :

ـ (منير) هذا تمادى كثيرًا .. فلنغلق هذا الملف ..

أجابه رجل المخابرات ، والمسئول عن العملية فى ارتياح :

ـ هذا أفضل بالتأكيد ..

وفى الساعة الثانية ، من بعد ظهر الثامن والعشرين من نوفمبر 1968م ، أنهى (منير عبد الغنى) إجراءات التفتيش فى مطار (القاهرة) ، وجلس ينتظر موعد طائرته التى ستحمله إلى (روما) ..

وفى هدوء اقترب رجلان منه ، ولمس أحدهم كتفه ، قائلاً فى اقتضاب :

ـ اتبعنى .

نهض (منير) فى توتر ، وسار بين الرجلين إلى حجرة من حجرات التفتيش الجمركى ، وخُيِّلَ إليه أنه أمام رجال مكافحة التهريب ، فوضع أمامهما كل ما يحمله ، وهو يلقى عليهما محاضرة صارمة ، فى وجوب معاملة الصحفيين على نحو خاص ، وحرية المواطن فى وطنه ، و ...

وفجأة ، قاطعه أحدهما ، وهو يلتقط مظروف الصور قائلاً :

ـ هذه الصور تخصك يا أستاذ (منير) أليس كذلك ؟

أجابه الجاسوس فى سرعة وثقة :

ـ بلى .. إنها مجرد صور لأماكن سياحية ..

ابتسم أحد الرجلين ، وهو يقول فى سخرية :

ـ حقًّا !.. وماذا لو أعدنا إظهارها ؟

شحب وجه (منير) ، وامتقع فى شدة ، والرجل الآخر يبرز أمامه بطاقة خاصة ، قائلاً :

ـ بالمناسبة .. اسمى (ع ..) وزميلى (م ..) ونحن ضابطان من المخابرات العامة ..

وانهار (منير) على الفور ، أمام تلك المفاجأة المزدوجة ، وتفجَّرت الدموع من عينيه بغزارة ، وهو يتوسل ويتضرع ، ويطلب العفو والرحمة ، وبدأ فى اعترافاته ، قبل أن ينتقل مع الرجلين إلى السيارة ، التى حملته إلى أحد الأماكن التابعة للمخابرات العامة ..

وفى نفس الوقت الذى انتهى فيه (منير) من اعترافاته ، وذيلها بتوقيعه ، أمام وكيل النيابة العسكرية ، كان الإسرائيليون

يتلقون خطابًا خاصًّا ، على عنوان مراسلاتهم فى (باريس) ؛ وبداخله صورة للجاسوس (منير) فى المطار ، وفى الفراغ الأبيض خلفه ، كانت هناك صورة كامنة تحوى كلمات محدودة :

ـ احتفظوا بالصورة .. فلدينا الأصل ..

مع توقيع المخابرات العامة المصرية ..

وانهارت ثقة الإسرائيليين ، وهم يُحدِّقون فى كلمات الرسالة والتوقيع ، وقد أدركوا حجمهم الحقيقى ، وعرفوا الفارق بين الأصل والصورة .

* * *

الأحمـــق

مالت الشمس للمغيب ، مع نهاية ذلك اليوم ، فى أوائل مايو ، عام 1973م ، وارتطمت أشعتها الذهبية الأخيرة ، بذلك المبنى الصامت ، القابع فى منطقة القبة ، فألقت أمامه ظلالاً طويلة داكنة ، غطت سيارة أجرة صغيرة ، ينطلق بها سائقها فى حذر قلق ، نحو المبنى ، وهو يسأل ثلاثة من الشباب ، احتلوا المقعد الخلفى بأكمله .

ستهبطون عند المخابرات .. أليس كذلك ؟!

أومأ اثنان منهم برأسيهما فى صمت ، وعيونهما المتسعة الزائغة تشف عما يعتمل فى أعماقهم ، فى حين ازدرد الثالث لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب فى اقتضاب ، وبصوت اختنق فى حلقه الجاف :

ـ بلى .

بَسْمَلَ السائق وحَوْقَلَ ، وهو يقطع الأمتار القليلة المتبقية ، قبل أن يتوقف أمام المبنى الرئيسى للمخابرات العامة ، ويقول فى شىء من العصبية :

ـ وصلنا يا بهوات .

ازداد امتقاع وجوه الشبان الثلاثة ، وهم يتبادلون نظرة متوترة ، قبل أن يمد أحدهم يده للسائق بأجره ، ثم يغادرون السيارة فى صمت واجمين ، فى حين انطلق بها السائق مبتعدًا ، فور خروج ثالثهم ، وكأنما يخشى أن تنقلب أسوار المبنى على رأسه ، لو توقف إلى جواره لحظة أخرى .

ولثانية أو ثانيتين ، توقف الشبان الثلاثة أمام البوابة المغلقة فى وجوم ، ثم لم يلبث أحدهم أن انتزع نفسه من توتره ، واتجه نحو مكتب الأمن ، قائلاً بصوت مبحوح :

ـ نريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

سأله رجل الأمن فى هدوء مهذب :

ـ بشأن ماذا ؟!

ازدرد الشاب لعابه فى صعوبة ، قبل أن يهمس فى عصبية :

ـ نريد الإبلاغ عن جاسوس .

كان يتوقع رد فعل عنيف من رجل الأمن ، عندما يسمع العبارة ، ولكنه فوجئ به يقول فى هدوء رصين :

ـ انتظروا قليلاً ، وسأصلكم بأحد المسئولين على الفور .

ولم تمض دقائق عشر ، على نطقه للعبارة ، حتى كان الثلاثة

يجلسون داخل مكتب بسيط ، فى قلب جهاز المخابرات العامة ، حيث استقبلهم رجل هادئ الملامح ، أصلع الرأس ، يرتدى حلة كاملة ، لم تعق أسلوبه السلس الودود ، وهو يسألهم :

ـ من الجاسوس ، الذى تريدون الإبلاغ عنه ؟!

تبادل الثلاثة نظرة متوترة أخرى ، ثم قال أحدهم فى بطء وكأنه ينتزع الكلمات من حلقه انتزاعًا :

ـ الواقع أننا لسنا على يقين من أنه جاسوس ، ولكن حديثه معنا ، وما يطلبه منا يثير الشكوك .

سألهم رجل المخابرات فى هدوء ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه :

ـ وما الذى يطلبه منكم بالضبط ؟!

ارتبك الشاب بضع لحظات ، وكأنما يعجز عن الجواب ، فاندفع أحد زميليه ، يقول :

ـ لقد طلب منا كتابة مقالات حول الأوضاع فى اتحادات الطلاب ، وردود فعل رجل الشارع عن حركات الطلاب وأسماء العناصر التى تحرك وتسيطر على طلاب الجامعة وتحركاتهم ..

بدا الاهتمام على وجه ضابط المخابرات ، وهو يسألهم :

ـ وهل نفذتم ما طلبه منكم ؟!

أجابه الثلاثة فى سرعة :

ـ مطلقًا .. لقد آتينا للإبلاغ على الفور .

ابتسم الضابط ، قائلاً :

ـ حسنًا فعلتم .

بدا شىء من الارتياح على وجوههم ، وقال أحدهم :

ـ أعتقد أنك ترغب الآن فى معرفة اسم ذلك الشخص .

مال الضابط نحوهم ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ هل تريدون أنتم معرفته ؟!

بدت الدهشة والحيرة على وجوههم ، فاتسعت ابتسامته ، وهو يتابع فى هدوء عجيب :

ـ إنه (حمودة) .. (محمد عمر حمودة) ..

واتسعت عيونهم فى دهشة كبيرة ، فقد كان هذا بالفعل اسمه واسم الجاسوس .

* * *

لو أن (محمد عمر حمودة) يستحق لقبًا متميزًا ، فى عالم الجاسوسية ، فأفضل ما يمكن أن ينطبق على حالته هو لقب (الأحمق) ..

هذا لأن ذلك الجاسوس تحديدًا قد ارتكب من الأخطاء ، ما يكفى للإيقاع بدولة كاملة ، وليس برجل واحد ، والسؤال الحقيقى هو : كيف توسمت فيه المخابرات الإسرائيلية خيرًا ، واعتمدت عليه كجاسوس لها ؟!

والواقع أن البداية جاءت من (حمودة) نفسه ، الذى فشل فى دراسته ، وفى الحصول على أى عمل جديد محترم ، مما دعاه إلى السفر إلى (إستانبول) ، وفى رأسه فكرة محدودة ، لم تخطر ببال أحد قط .

ولم يكد (حمودة) يبلغ (إستانبول) ، حتى اتصل بالقنصلية الإسرائيلية هناك ، وعرض عليهم خدماته ..

باختصار ، طلب أن يعمل كجاسوس للمخابرات الإسرائيلية ، فى العالم العربى ..

ولأن هذا التصرف غير تقليدى أو مألوف ، فى عالم المخابرات ، فقد شعر الإسرائيليون بالقلق والحيرة ، وراقبوا الشاب لعدة أيام ، قبل أن يتخذوا قرارهم بالاتصال به وعلى نحو مباشر ..

وفى فندقه المتواضع ، التقى (حمودة) بمندوب من القنصلية الإسرائيلية ، قدم نفسه إليه باسم (سامى) وتحدث معه لأكثر من ساعتين كاملتين ، قبل أن يطلب منه ملء استمارة خاصة عن حياته السابقة ، وحتى لحظة لقائهما ، مع كتابة كل ما لديه من معلومات عن وطنه ..

ومن الواضح أن (محمد عمر حمودة) قد نجح فى الاختبار ، فقد دفع مندوب القنصلية الإسرائيلية حساب الفندق المتواضع ، ونقل الشاب إلى أحد فنادق الدرجة الأولى ، وحجز له جناحًا خاصًا ، تم تأمينه مسبقًا ، ليتلقى فيه كل تدريباته الأولية ..

ومع نجاحه فى الدورة التدريبية الأولى ، منحه (سامى) ثلاثمائة دولار ، ثم طلب منه السفر إلى (بيروت) ، وجمع كل المعلومات الممكنة عن الفدائيين هناك ..

وفى (بيروت) قدَّم الشاب نفسه إلى مندوب أحد المنظمات الفدائية ، وادعى الشهامة والوطنية والحماس ، حتى تم إلحاقه بالمنظمة ..

وحقق الشاب نجاحًا واضحًا ، فى مرحلة التدريب ، داخل تلك المنظمة الفدائية ، حتى صار يحمل رسميًّا لقب (فدائى) ، ثم أسندت إليه بعض العمليات البسيطة ، التى نفذها بكفاءة ، ذرًّا للرماد فى العيون ، مما أهله للتعرف على معظم قادة الفدائيين ، ومعرفة عناوينهم ومنازلهم وأسرهم ، ومواقع الفدائيين السرية ..

وعندما حانت لحظة نقل المعلومات ، ادعى (حمودة) أنه مضطر للسفر إلى (القاهرة) ، للتصديق على شهادة الثانوية العامة ، حتى يمكنه الالتحاق بجامعة (بيروت) ، وتدعيم ثقافته ، خدمة للمنظمة الفدائية على حد قوله ..

ووافقت المنظمة على سفره إلى (القاهرة) .

ولكن هذا لم يحدث بالطبع ..

لقد سافر (حمودة) إلى (دمشق) ، ومنها إلى (حلب) ، ثم (أنطاكيا) فى (تركيا) ، قبل أن يستقر به المقام فى (إستانبول) التى وصلها ليلاً ، وقضى ليلته فيها ، فى نفس الفندق الذى تتعامل معه المخابرات الإسرائيلية ..

وفى الصباح التالى كان (حمودة) داخل القنصلية الإسرائيلية ، يلتقى بالضابط (سامى) ، ويفرغ أمامه كل ما فى جعبته من أسرار ومعلومات .

ولقد رحب الإسرائيليون كثيرًا بتلك المعلومات الثمينة ، وطلبوا من ضابطهم مكافأة الشاب فما كان من ضابط المخابرات الإسرائيلى إلا أن سلمه خمسمائة دولار دفعة واحدة ، ثم طلب منه التزام فندقه لعدة أيام ، حتى تصل الأوامر الجديدة بشأنه ..

ولزم الشاب فندقه ، طبقًا للتعليمات ، على الرغم من كل

ما يشعر به من قلق وملل وتوتر ، حتى حضر إليه (سامى) فى اليوم الرابع ، وأبلغه أن الأوامر قد صدرت بنقل مهمته إلى (القاهرة) ..

وطوال ليلة كاملة ، راح (سامى) يشرح له طبيعة المهمة ، والمطلوب منه بالضبط فى (القاهرة) ، وكان يتلخص فى طلبات محدودة ..

تحديد ومعرفة أماكن وتوزيع الصواريخ الدفاعية على شاطئ القناة ..

التركيز على الحركة الطلابية فى (مصر) ، ومعرفة ردود الفعل تجاهها ، وأسماء رؤسائها وزعمائها ..

جمْع كل المعلومات الممكنة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى (مصر) ..

معرفة ما إذا كان الرأى العام المصرى يؤيد الحل السلمى أم العكس ..

معرفة حدود علاقة (مصر) بالمقاومة الفلسطينية ..

التوصل إلى كل المعلومات الممكنة عن الوحدة الاندماجية ، وأجهزة الأمن المصرية بكل صورها .

وأخيرًا محاولة تسجيل وسائل استدعاء المسرحين للاحتياطى ، وتحديد الزمن اللازم لهذا ، وعدد الاحتياطيين إن أمكن ..

ولقد سلم (سامى) الشاب ورقة ، تحوى كل هذه المطالب ، وطلب منه حفظها عن ظهر قلب ، ثم حرق الورقة فيما بعد ..

وبكل حماس وثقة ، وعده (حمودة) أن يفعل هذا ..

ولكنه لم يتخلص من الورقة قط .

وكانت هذه أكبر حماقة ارتكبها فى مهمته كلها .

المهم أن الشاب قد سافر إلى (القاهرة) ، ووصلها فى الأول من أبريل عام 1973م ، وبدأ يمارس عمله فور وصوله ..

ودون إبطاء ..

وخلال خمسة عشر يومًا فحسب ، كان قد جمع الكثير من المعلومات (أو هكذا تصور) ، وقرَّر أنه لم يتبق أمامه سوى المعلومات الخاصة بالحركة الطلابية ..

وكوسيلة سهلة للغوص فى المجتمع الطلابى الجامعى ، اتجه الشاب لزيارة شقيقه (عبد الحميد حمودة) الطالب بالسنة النهائية ، فى كلية تربية عين شمس .. ولم يكن (عبد الحميد) هناك فى المدينة الجامعية ، لذا ، وبدافع الشهامة المصرية الأصيلة ، فقد قرر زملاء شقيقه استضافته لديهم ، حتى اليوم التالى موعد عودة (عبد الحميد) .

وكانت مفاجأة مفرحة للشقيق ، الذى استقبل شقيقه (محمد) بفرحة غامرة وشكر زملاءه على حسن استضافته ، ثم اصطحبه معه إلى حجرته ، وقضى الليل كله يحتفى بوصوله ، دون أن يدرك ، أو حتى يخطر بباله الهدف الحقيقى الذى حضر (محمد حمودة) من أجله إلى (القاهرة) .

وفى اليوم التالى ، استأذن (عبد الحميد) للذهاب إلى كليته ، وترك شقيقه وحده ، يعد خطته للحصول على المعلومات المطلوبة ..

وبحسبة بسيطة ، قرر (حمودة) التوجه إلى زملاء شقيقه ، فى محاولة لجمع كل المعلومات المطلوبة منهم ..

ولقد أكرم الثلاثة وفادته كالمعتاد ، وأعدوا له قدحًا من الشاى ، وجلسوا يتحدثون معه ..

ولأن الشاب يمتاز بحماقة عجيبة ، فقد نقل حديثه ، بسرعة غير مستحبة ، إلى الاتحادات الطلابية ومشكلاتها ، وراح يلقى عشرات الأسئلة على الشبان ، ثم لم يلبث أن طلب منهم كتابة بعض المقالات عن الحركات الطلابية وكل ما يحيط بها من أمور .

واستقبل الشبان الثلاثة أسئلته واستفساراته وطلباته بتحفظ كبير ، إلا أنهم وعدوه بكتابة ما طلبه ، وهم يضمرون فى أعماقهم أمرًا ، اتفقت عليه عقولهم ، دون أن تفصح به ألسنتهم ، وحتى عيونهم ..

وما إن انصرف (حمودة) ، حتى هتف أحدهم فى توتر :

ـ فَلْتُقْطَع ذراعى ، إن لم يكن هذا الشاب جاسوسًا !

سأله زميله :

ـ وماذا ينبغى أن نفعل ، فى هذه الحالة ؟!

قال الثالث فى حزم :

ـ وهل يحتاج هذا إلى سؤال ؟!

والتقت عيونهم فى نظرة صامتة ، كانت أبلغ من كل جواب .. لقد اتفقت عيونهم على ضرورة إبلاغ الجهات المختصة بالأمر .. وقد كان ..

* * *

جلس الشبان الثلاثة واجمين صامتين ، فـى مكتـب ضـابط المخابرات المصرى ، بعد أن فاجأهم بمعرفة الجاسوس ، وراحوا يحدقون فى وجهه ، وفى ابتسامته الهادئة مبهورين ، حتى أشـار بيده ، قائلاً :

ـ لا تجعلـوا هـذا يربككم .. إنـه مـن الطبيعى أن نكشف أمـر جاسوس كهذا .

ردّ أحدهم فى دهشة :

ـ من الطبيعى ؟!

أومأ رجل المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا بنى .. هنـاك أسباب فنيـة كثيرة ، تدعم قولى هذا ، وربما تعجزون عن فهمها ، ولكن يكفى أن تعلموا أننـا نعلم بـأمره ، منذ أسبوعين على الأقل .

تبادل الشبان الثلاثة تلك النظرة المتوترة ، قبل أن يسأل أحدهم ، فى حذر قائلاً :

ـ وماذا علينا نحن أن نفعل ؟!

صمت الضـابط بضـع لحظـات ، وهو يتطلع إليهم ، ثم لم يلبث أن اعتدل قائلاً فى حزم :

ـ افعلوا ما طلبه منكم بالضبط .

عادت الدهشة تستولى عليهم ، وأحدهم يهتف مذعورًا :

ـ هل نمنحه ما طلبه من معلومات ؟!

ضم الضابط سبابته وإبهامه ، ولوّح بأصابعه الثلاثة الأخـرى ، قائلاً :

ـ وبمنتهى الدقة .

انتقل الذعر إلى زميلي الشاب ، فابتسم الضابط ، وهو يضيف :

ـ ولا تجعلوا هذا يقلقكم .. إننا نسيطر على الموقف تمامًا ..

وغادر الشبان الثلاثة مبنى المخابرات العامة ، وكلهم ثقة بأن نسور وطنهم متيقظون ..

دائمًا ..

وفى مساء اليوم التالى ، اجتمع الشبان الثلاثة بذلك الجاسوس ، وقدموا له ما لديهم ، ثم راحوا يتحدثون معه عن مواهبه ، وقدراته ، وعما يمكن أن يفيدهم به ، لو قدموا له المزيد والمزيد من المعلومات ..

وهنا قدَّم لهم الشاب أكبر دليل على حماقته ..

لقد تهجم على كل الأوضاع فى (مصر) ، وراح يشتم ويسب عددًا من كبار المسئولين فيها ، ثم لم يلبث أن طلب منهم فى صرامة إمداده ببعض المعلومات الأمنية المهمة ..

بل بلغت به الحماقة أن أقر باشتراكه فى حرق القنصلية المصرية فى (بنغازى) ، خلال المظاهرات المعادية لـ (مصر) ..

ثم ذكر أن هذا قد تم بإيعاز وتكليف من المخابرات الإسرائيلية مباشرة ..

ولقد بهت المصريون الثلاثة ، عندما جاء ذكر المخابرات الإسرائيلية صراحة ، على الرغم من ثقتهم بأن من يجلس أمامهم جاسوس ، وسأله أحدهم بكلمات مرتجفة :

ـ وهل تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ؟!

وبكل زهو وحماقة ، أجابه (حمودة) :

ـ بالطبع ..

ولم يعلق الشبان الثلاثة بحرف واحد ..

فقد تبادلوا تلك النظرة المتوترة ، ثم لاذوا بالصمت التام ، وتركوا الجاسوس يتحدث وحده طوال الوقت ..

وعندما رحل الجاسوس مع شقيقه ، كان أول ما فعله الشبان الثلاثة ، هو الاتصال برجال الأمن ، وتسليمهم الشريط ، الذى تم تسجيله بإذن من النيابة العامة ، للمحادثة والسهرة بكل تفاصيلها ..

وراجع رجال المخابرات التسجيلات كاملة ، ثم أبلغوا النيابة العامة ، التى أمرت باعتقال الجاسوس ..

وعلى الفور ..

وفى الثالثة من صباح التاسع من مايو ، عام 1973م ، فوجئ الطالب (عبد الحميد حمودة) برجال الأمن فى حجرته ، داخل

المدينة الجامعية ، يعتقلون شقيقه (محمد عمر) بتهمة التجسس لحساب (إسرائيل) ..

وكانت مفاجأة مذهلة للطالب ، الذى ثبتت براءته فيما بعد ، وعدم اشتراكه فى ذلك العمل القذر مع شقيقه ..

أما (محمد عمر) فقد تجلت حماقته بحق ، فيما عثر عليه معه ، عند تفتيشه ، فور إلقاء القبض عليه ..

لقد كان يحمل تلك الورقة ، التى تحوى طلبات المخابرات الإسرائيلية ، بالإضافة إلى فاتورة ذلك الفندق فى (تركيا) ، والتى حملت عبارة باللغة التركية ، تقول : تم الدفع بواسطة القنصلية الإسرائيلية ، مع رقم هاتف القنصلية ، ومفكرة تحوى كل ما جمعه من معلومات من (القاهرة) ..

ولم يحاول الشاب إنكار عمله لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

لم يمكنه حتى أن يفعل ..

لقد انهار على الفور ، وأدلى باعتراف كامل ، كان من نتيجته أن حصل على حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ..

أما رجال المخابرات المصرية ، فقد اجتمعوا مرة أخرى لمناقشة العملية كلها ، وأدهشتهم كثيرًا تلك الأخطاء الفادحة ، التى وقع

فيها رجال المخابرات الإسرائيلية ، وعميلهم (حمودة) ، وضابطهم ، الذى انتحل اسم (سامى) ..

ولقد كان أحد رجال المخابرات المصرية خبيثًا بحق ، وهو يطرح سؤالاً محددًا ، فى نهاية ذلك الاجتماع ، وبعد تفنيد أخطاء ضابط المخابرات الإسرائيلية ..

ترى من يستحق بالفعل حمل اللقب ، الذى تصدر ملف القضية ؟!

لقب (الأحمق) ..

مـن ؟!

* * *

الحـــدود ..

لم تكن عقارب الساعة تتلاقى ، عند منتصف الليل تمامًا ، فى تلك الليلة الدافئة ، من ليالى أغسطس ، فى مدينة (حيفا) ، حتى ارتجت المنطقة كلها بانفجار قوى عنيف ، تصاعدت معه ألسنة اللهب لعشرات الأمتار فى السماء ، صانعة لوحة رهيبة مخيفة ، تزلزلت لها قلوب الجميع ، وانطلقت معها عشرات الصيحات والصرخات ، فى كل ركن بالمدينة .

ثم لم تلبث تلك الضوضاء أن امتزجت بدوى أبواق سيارات الإسعاف والإطفاء العسكرية ، التى راحت تشق شوارع المدينة ، فى طريقها إلى مستودع الذخيرة الضخم خارج المدينة ، والذى نجحت عملية فدائية فى نسفه ، على نحو أذهل الإسرائيليين ، وأثار غضبهم وذعرهم وثورتهم ..

ووسط الفوضى العنيفة ، التى سادت المدينة كلها ، تحرك رجل طويل القامة ، قوى البنية ، فى هدوء عجيب على عكس الآخرين ، وقفز فى سيارة صغيرة بسيطة ، وانطلق بها فى عكس الاتجاه ، الذى تتخذه سيارات الإطفاء والإسعاف العسكرية ، وواصل طريقه حتى بلغ منطقة هادئة ، فى الطرف الآخر فى المدينة ، كان ينتظره رجل فلسطينى الملامح ، استقبله بابتسامة هادئة ظاهرة ، وهو يقول :

ـ لقد نجحت المهمة .. أليس كذلك ؟!

هز الرجل ـ الذى لم يكن سوى رجل المخابرات المصرى (أمجد) ـ رأسه وهو يشير بيده قائلاً :

ـ أنت ترى بنفسك .

تنهد الأول فى ارتياح ، ثم قال فى شىء من التوتر :

ـ حمدًا لله .. لقد تجشمنا مشاق لا حدود لها ، حتى أمكننا إدخال المعدات اللازمة للعملية .. الإسرائيليون يشددون الرقابة على الحدود ، على نحو غير مسبوق .. لابد من أن نجد وسيلة للتعامل مع هذا الأمر .. فجوة ، يمكننا من خلالها تهريب أى أدوات أو معدات ، أو حتى أشخاص ، يحتاج الأمر إليهم ، فى عمليات قادمة .

وافقه (أمجد) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

ـ اطمئن ، يا رجل .. سنصنع هذه الفجوة بإذن الله .. اطمئن .

لم تفارق الفكرة رأس رجل المخابرات المصرى لحظة واحدة ، طوال طريق عودته الشاق إلى (القاهرة) .. وعلى الرغم مما لقيه من صعوبات شديدة ، ومتاعب بلا حدود ، إلا أنه لم يكد يستقر فى أرض الوطن ، حتى انطلق على الفور إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ، ليطرح الأمر على الجميع كالمعتاد ..

والعجيب أن أحدًا من زملائه أو رؤسائه لم يشعر بأدنى دهشة أو حيرة، لإصرار (ماجد) على العودة للعمل فور وصوله إلى (القاهرة)، وكأنما اعتادوا جميعًا تلك اللهفة، وذلك الحماس، الذى لا ينقطع أبدًا، خاصة فى تلك الأيام فى نهاية الستينيات، حيث بلغت حرب الاستنزاف أوجها، وصار كل مصرى يحلم بالمعركة القادمة .. وبالثأر من العدو الإسرائيلى، الذى احتل جزءًا عزيزًا من أرض الوطن ..

وبكل حماس ووضوح، شرح (أمجد) ما دار بينه وبين الفلسطينى، ثم أكد قوة الفكرة، وحتمية البحث عن وسيلة لصنع فجوة فى الجدار الفولاذى، الذى أحاط به الإسرائيليون أنفسهم، فى تلك الظروف المشتعلة ..

وطال اجتماع الرجال هذه المرة ..

طال على نحو غير مسبوق، حتى استغرق ست ساعات كاملة، ناقشوا خلالها أدق أدق التفاصيل حول كل ما يتعلق بالأمر ..

وفى النهاية انحسر الأمر، وصدر القرار بوضع الفكرة موضع التنفيذ ..

وكقاعدة غير رسمية، فى عالم المخابرات، تم إسناد العملية لصاحب الفكرة الرئيسى (أمجد)، وتم تكليفه ببذل قصارى

جهده، لصنع تلك الفجوة، فى الحدود الإسرائيلية، تحسبًا لأية عمليات أو مهمات قادمة ..

وعلى الرغم من أن (أمجد) لم يكن قد ذاق طعم النوم، منذ أكثر من ثلاثين ساعة متصلة، إلا أنه لم يعد إلى منزله، بعد نهاية الاجتماع، وإنما راح يعد رسالة شفرية طويلة، إلى (شاكى) العميل المصرى الذى يعمل لحساب المخابرات العامة فى قلب إسرائيل يطلب منه فيها القيام بمهام محدودة ..

وبمنتهى السرعة ..

وبعد أن تم بث الرسالة الشفرية لاسلكيًا، ووصول تأكيد من (شاكى) بتسلمها ..

عندئذٍ فقط عاد (أمجد) إلى منزله ..

ونام ملء جفنيه ..

أما (شاكى) وهو يهودى من أصل شرقى، فلم يغمض له جفن، طوال أسبوعين كاملين، وهو يسعى لتنفيذ وتحقيق كل ما طلبه (أمجد)، فى أسرع وقت ممكن ..

والواقع أن ما طلبه (أمجد) لم يكن سهلاً أبدًا ..

لقد أعطاه أسماء مائة من ضباط وجنود حرس الحدود الإسرائيليين وطلب منه كل المعلومات الممكنة عنهم ..

طبائعهم .. اهتماماتهم .. نزواتهم .. نقاط ضعفهم ، وحتى مقياس قمصانهم وسراويلهم ..

ولقد أدى (شاكى) المهمة ، بنجاح حقيقى ، يستحق التقدير والإعجاب ..

وبعد انتهاء الأسبوعين استقبلت أجهزة اللاسلكى ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، أطول رسالة بثها (شاكى) ، من قلب (إسرائيل) ..

رسالة شفرية ، احتاج استقبالها لسبع وثلاثين دقيقة كاملة ، واستخرجت عملية فك الشفرة الخاصة بها ثمان ساعات إلا قليلاً ..

المهم أنها كانت فى النهاية بين يدى (أمجد) ..

أكثر من ثلاثين صفحة ، تحوى كل ما يمكن الحصول عليه من تفاصيل ، على نحو موجز للغاية ، حول الضباط والجنود المائة ..

ومرة أخرى انقطعت الصلة بين (أمجد) والنوم ..

فلقد أغلق عليه باب مكتبه ، وانهمك فى مراجعة كل ما أرسله (شاكى) بمنتهى الدقة ، طوال يومين كاملين ، ثم عقد اجتماعًا لفريق العمل ، المشارك فى العملية ، وطرح عليهم كل ما لخصه عن الموقف .

وفى ذلك الاجتماع ، تمت استضافة واحد من أشهر الأطباء النفسيين ، فى ذلك الحين ، لساعة كاملة ، عرض عليه (أمجد) خلالها بعض النماذج ، ممن حوتهم قائمة (شاكى) دون أسماء أو تفاصيل خاصة ، لتحديد أيهم يمكن أن يخضع نفسيًّا لعملية التجنيد ، فى زمن الحرب .

وبعدما أدلى الطبيب برأيه ، وانتقى سبعة أشخاص من القائمة ، بقى الرجال وحدهم لإكمال الاجتماع ، وإعادة فحص أوراق هؤلاء السبعة بدقة أكثر ..

وفى اليوم التالى ، تلقى (شاكى) رسالة شفرية لاسلكية ، تطالبه بمزيد من التفاصيل ، حول أربعة منهم فحسب ..

وبعد ثلاثة أيام ، وصلت رسالة (شاكى) ، حاملة كل المعلومات المطلوبة ..

وفى هذه المرة ، انتقى الرجال واحدًا من الأربعة فحسب وتم إرسال برقية شفرية ، عاجلة إلى (شاكى) فى (حيفا) لتركيز جهوده عليه ..

وكان الهدف يهوديًّا شرقيًّا آخر ، من (السفرديم) ، الذين يعانون ذلك الاضطهاد العنصرى ، داخل إسرائيل ، والذى يفرق - وبعنف - ما بين اليهود الغربيين (الإشكنزيم) ، واليهود الشرقيين (السفرديم)

فيعتبر الفئة الأولى فئة ممتازة ، تستحق كل الاهتمام والرعاية ، والوظائف العليا ، والرتب الكبيرة ، فى حين لا ينبغى أن تحصل الفئة الثانية إلا على الوظائف الدنيا ، وأماكن السكن الحقيرة ، والراتب المحدود ، والرتب الصغيرة فى الشرطة والجيش ..

والواقع أن هذه لم تكن المشكلة الوحيدة لرقيب الحدود الإسرائيلى الذى يحمل اسمًا عربيًا بحكم نشأته (مازن) وإنما كانت لديه مشكلتان أخريان ، يقلقان مضجعه طوال الوقت ..

القمار .. وخطيبته (تسبيا) ، التى تعمل مضيفة فى مقهى (الميناء) ، المقابل لسينما (رامون) فى (حيفا) ، وتتمتع بجمال ملحوظ ، يجعله على قلق دائم من أن يلعب أحدهم برأسها يومًا ، ويقنعها بالتخلى عنه .

وحتى يضمن الحفاظ على الاثنين (تسبيا) والقمار ، كان على الرقيب (مازن) أن يبذل قصارى جهده ، للحصول على أية أموال إضافية ، بأية وسيلة كانت ..

لذا ، فقد كانت مهمة (شاكى) هينة إلى حد كبير ..

لقد أصبح زبونًا دائمًا فى مقهى (رامون) ، ولم يبد اهتمامًا خاصًا بالرقيب (مازن) ، الذى يجلس هناك معظم الليل ، وإنما راح يراقبه من طرف خفى ، بحثًا عن فرصة مناسبة لمد جسور

الثقة ، وخلق وسيلة حوار معه .. وبعد سبعة عشر يومًا ، جاءت تلك الوسيلة ، على نحو غير متوقع تمامًا ..

فذات ليلة ، توقفت سيارة (جيب) عسكرية أمام المقهى ، وهبط منها جنديان إسرائيليان ، استوقفا رجلاً عربيًا ، كان فى طريقه إلى منزله ، المواجه للمقهى تمامًا ، وراحا يعاملانه بأسلوب سخيف مستفز ، والرجل يحاول احتمالهما بقدر الإمكان ، ورواد المقهى يراقبون ما يحدث فى ضيق ، دون أن يحاول أحدهم التدخل ..

ولكن يبدو أن هذه السلبية قد شجعت أحد الجنديين الإسرائيليين على التمادى ، فأخرج جريدة قديمة فى السيارة ، تحوى صورة للزعيم (جمال عبد الناصر) ، وأخرى لرئيس الوزراء الإسرائيلى السابق (بن جوريون) ، ومزق صورة (عبد الناصر) وألقاها أرضًا ، وطلب من العربى أن يدوسها بقدمه ، ويقبل صورة (بن جوريون) .

وهنا ، انتفض العربى فى غضب ، ورفض هذا رفضًا باتًا ، وأصر على الرفض ، على الرغم من تهديدات الإسرائيلى وسبابه ووعيده ، ثم اندفاعه لضرب العربى بكعب بندقيته ..

وهنا تدخل زميله ، قائلاً : إن هذا يكفى وطالبه بالتراجع ، والانصراف من المكان ..

وثارت ثائرة الجندى الإسرائيلى ، وراح يصرخ ويسب ويلعن ، واتهم زميله بالانحياز للعربى ، وخيانة الجنس اليهودى ، و ...

وهنا ، نهض (مـازن) مـن موقعـه ، وصـاح فـى الجنـدى بصرامة :

- كفى يا هذا .. لا تُهِنْ زميلك على هذا النحو ، على مرأى ومسمع من الجميع .. هيا .. انصرفا .. هيا .

ولأن (مازن) كان يفوقهما رتبة ، فقد ابتلع الجنديان لسانهما ، وعادا إلى سيارتهما ، وانطلقا بها مبتعدين ..

وانتفخت أوداج (مازن) زهوًا وظفرًا ، خاصة مع عبارات الاستحسان ، التى تلقاها من رواد المقهى ، ونظرة السعادة والفخر ، التى منحتها له (تسبيا) ، مع قبلة هوائية ، رقص معها قلبه طربًا ..

وعندما عاد إلى مائدته المعتادة ، فى الركن البعيد للمقهى ، لحق به (شاكى) وهو يهتف فى حماس مصطنع :

- مرحى يا بطل .. كيف كان الأمر سينتهى من دونك ؟!

ثم مال نحوه ، وغمز بعينه ، مستطردًا :

- هل تسمح لى بتحيتك على نحو يليق بك ؟

أشار (مازن) بيده فى غطرسة ، قائلاً :

- لا بأس .. لا بأس .

وفى تلك الليلة ، تناول (مازن) أشهى الأطعمة وأفخم المشروبات ، على حساب (شاكى) بالطبع ، وراح الاثنان يتبادلان الأحاديث طوال الوقت ، حتى انتهت نوبة (تسبيا) فعاد ثلاثتهم إلى منزل (مازن) ، لتمتد السهرة مع كئوس الخمر وأوراق اللعب ..

وفى تلك الليلة ، خسر (مازن) مبلغًا كبيرًا ..

وتساقطت من بين شفتيه تحت تأثير الخمر ، معلومات غزيرة .. وخطيرة ..

وفى صباح اليوم التالى ، أبرق (شاكى) بكل تلك المعلومات إلى (القاهرة) ..

وبعد اجتماع مطول ، ناقش فيه الرجال كل ما وصلهم ، تأكد الجميع من صحة اختيارهم ، وقال أحدهم فى حماس :

- عظيم .. لقد حصلنا أخيرًا على الثغرة التى ننشدها .

أجابه (أمجد) فى حزم :

- ليس بعد .

ثم أدار عينيه فى وجوه الجميع ، متابعًا :

- إننا لم نواجه الرجل ، ولم نختبره بعد .

وهكذا وصلت رسالة لاسلكية جديدة للعميل (شاكى) ..

رسالة تطالبه إن صح القول بتطوير الهجوم .

ولقد نفذ (شاكى) المطلوب بأسلوب مدروس، تدرب عليه طويلاً، عندما بدأ تعاونه مع المخابرات العامة المصرية ..

ولمدة أسبوعين، واصل (شاكى) سهراته مع (مازن) و(تسيبا)، وتوطدت علاقته بهما أكثر وأكثر، وراح (مازن) يخسر الكثير والكثير على مائدة القمار، حتى بلغت ديونه لدى (شاكى) مبلغًا هائلاً، يعجز تمامًا عن سداده، حتى لو أنفق فى سبيل هذا مرتب عام كاملاً ..

وذات ليلة، وبعد أن نفذت نقود (مازن) تمامًا، اقترح عليه (شاكى) اقتراحًا عجيبًا، وغير منطقى أو مقبول ..

لقد عرض عليه أن يكون الرهان هذه المرة على (تسيبا) نفسها ..

وعلى الرغم من دهشة (تسيبا)، وغرابة الاقتراح، وعدم توافقه مع المنطق أو الأخلاقيات العامة، وحتى الخاصة، إلا أن شدة لهفة (مازن) على المقامرة، جعله يقبله بكل تداعياته ومخاطره، والأسوأ أنه قد خسر الرهان ..

ولكن من حسن الحظ أن (تسيبا) لم تكن هدف (شاكى)، من هذا الرهان كله ..

لقد كان الهدف هو (مازن) نفسه ..

لقد كان (شاكى)، طبقًا لتوجيهات المخابرات المصرية، يختبر مدى ما يمكن أن يذهب إليه (مازن) فى سبيل المال والمقامرة ..

وكانت النتيجة أفضل مما تصوروا أو توقعها بكثير ..

فالرجل الذى يخسر حبيبته على مائدة القمار، لن يبالى بخسارة وطنه، مقابل مبلغ كبير من المال ..

ولقد أدرك (شاكى)، هذا، فى تلك الليلة، فتظاهر أنه مصاب بالصداع، وبأنه يرغب فى العودة إلى منزله، على أن يعود إليهما فى اليوم التالى ..

وقبل أن تشرق الشمس، كان (أمجد) يتلقى رسالة (شاكى) ..

لقد سقط الرجل .. وبعنف ..

وفى التاسعة صباحًا، كان (شاكى) يتلقى رسالة (أمجد)، التى تحوى التعليمات الجديدة، للمخابرات العامة المصرية ..

وقبل منتصف النهار، كان يواجه (مازن) الذى بدا مرتبكًا، وهو يقول :

ـ ديونى لك تضخمت أكثر مما ينبغى يا أدون (شاكى) حتى إننى لست أدرى كيف يمكننا تسوية هذا الأمر، لوّح (شاكى) بيده قائلاً :

لا تقلق نفسك بهذا الأمر يا رجل .. لا ديون بين الأصدقاء، ثم إنها ديون قمار قذرة .. أليس كذلك ؟

كانت دهشة (مازن) وسعادته بالغة ، بهذه المبادرة البالغة الكرم من صديقه ، حتى إنه هتف بكل فرح الدنيا ، كيف يمكننى أن أرد لك هذا الجميل يا صديقى ؟!

أجابه (شاكى) فى حسم ، وبلهجة ذات معنى خاص :

- هناك وسائل عديدة .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

- المعلومات مثلاً .

وقبل أن تمضى ساعة واحدة ، كان (مازن) قد أدرك الحقيقة كلها ، وأدرك أنه سيعمل لحساب المخابرات العامة المصرية ، مقابل مكافآت كبيرة ، مع كل معلومات يدلى بها ، أو كل ثغرة يفتحها فى أسوار الحدود ..

ويقول البعض أن (مازن) قد التقى برجل المخابرات (أمجد) نفسه فيما بعد ، ويؤكد البعض الآخر أن هذا اللقاء قد تم فى (حيفا) أى فى قلب إسرائيل نفسها ، ولكن لا توجد أية معلومات تؤكد هذا القول أو ذاك ، كما أن العديدين يصرون على أنه من المستحيل أن يجازف رجل مخابرات مصرى بإجراء لقاء كهذا ، فى قلب أرض العدو ، ما لم تكن هناك أهمية قصوى للأمر ، أو ضرورة حتمية لذلك ..

ولكن المهم فى النهاية أن (مازن) صار يعمل لحساب المخابرات العامة المصرية ..

وبمنتهى الحماسة والإخلاص ..

وكان هذا انتصارًا ساحقًا للمخابرات المصرية بحق ، فالفجوة التى أحدثها تجنيد (مازن) ، فى دائرة الحدود الإسرائيلية كان لها فضل كبير فى نقل العديد من المعدات والأسلحة المصرية إلى المجموعات الفدائية ، التى كانت تعمل ضد العدو ، خلال فترة الاحتلال ، وعلى رأسها مجموعة الحاج (صباح الكاشف) فى (العريش) ..

وعبر الفجوة نفسها تسلل الفدائيون المصريون ، لتنفيذ عشرات العمليات الناجحة ، التى أذاقت العدو الأمرين ، وخاصة مع اندلاع حرب أكتوبر 1973م .

كما كانت وسيلة لعبور الكثير من المعلومات ، وعينات الأسلحة ، وعلى رأسها عينة المادة التى استخدمها الإسرائيليون فى أنابيب النار ، التى أقاموها بطول قناة السويس .

أما (مازن) نفسه ، فقد انتهى أمره على نحو لم يخطر على بال أحد قط ..

فالإسرائيليون لم يكتشفوا أمره أبدًا ..

وهو لم يقع فى خطأ واحد ، تحت إشراف وتوجيهات (شاكى) ، الذى ينقلها عن التعليمات الصارمة الدقيقة للمخابرات المصرية ..

ولكن ذات ليلة ، وبينما كان يعود إلى منزله بسيارته ، وقد زاد فى سرعتها على نحو مخيف ، ظهر أمامه ونش ضخم ، من أوناش الميناء ، لم يستطع تفاديه ، فحدث الاصطدام العنيف ، ولقى (مازن) مصرعه فى الحادث ..

ولكن بعد أن منح رجال المخابرات كل ما يحتاجونه طوال فترة ما قبل وأثناء الحرب ..

منحهم فجوة ، ساعدتهم على اختراق الحدود ..

حدود العدو ..

* * *

الخائن المزدوج

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد على (القاهرة) ، فى ذلك اليوم ، من ربيع 1973م ، عندما أضيئت أنوار قاعة الاجتماعات ، فى إدارة مكافحة المخدرات ، وتوافد عليها بعض الضباط الذين ضمتهم مائدة الاجتماعات ، مع ملف ضخم ، راحوا يناقشون ويتبادلون كل ما لديهم من معلومات بشأن صاحبه ، الذى وصفه أحدهم بأنه أحد كبار تجار ومروّجى المخدرات ، فى تلك الفترة .

كان معظمهم من شباب الضباط الذين امتلأت قلوبهم بالحماس ، وبالرغبة فى أداء الواجب ، وإنقاذ الوطن ـ الذى يستعد لخوض معركة التحرير ـ من تلك السموم ومروجيها ، الذين أسودت قلوبهم وانشغلوا بإفساد شباب (مصر) ، وتدمير عقولهم وإرادتهم ، على الرغم مما تمر به البلاد من متاعب ، وما تبذله من جهد ؛ لإعادة بناء الجيش ، والاستعداد لاستعادة الأرض السليبة ..

وبكل حماسة وحزم ، قال أحد الضباط :

ـ ما دامت الأدلة المطلوبة قد توافرت ، فلا ينبغى أن نمنح ذلك المجرم يومًا إضافيًا واحدًا .. دعونا نلقى القبض عليه على الفور .

وهتف آخر :

ـ إنه يستعد لإتمام واحدة من صفقاته القذرة ، بعد ساعات قليلة ، ومن الضرورى أن نضع خطة محكمة ، للقبض عليه متلبسًا ، أثناء إتمام الصفقة .

أجابه ضابط يفوقه رتبة :

ـ إننا هنا لهذا الغرض يا رجل .

انهمكوا لساعة أو يزيد ، فى مناقشة خطتهم المحكمة ؛ لإلقاء القبض على تاجر المخدرات الكبير ، وراحوا يراجعون التفاصيل ، الكبيرة منها والدقيقة ، حتى بدا لهم أن الخطة قد اكتملت تمامًا ، فأخرج أحدهم مسدسه ، وجذب مشطه فى حماس ، قائلاً :

ـ اضبطوا ساعاتكم يا رجال .. سنبدأ الخطة بعد قليل ، و ...

قاطعه صوت مألوف ، يقول بلهجة صارمة :

ـ لست أعتقد هذا .

التفت الجميع بحركة واحدة إلى مصدر الصوت ، وتطلعوا فى دهشة إلى رئيس الإدارة ، الذى وصل دون موعد سابق ، وبصحبته رجل وسيم ، هادئ الملامح ، يحمل على شفتيه ابتسامة بسيطة ، لا يمكنك تحديد مغزاها بالضبط ..

كانت الشمس قد بدأت مرحلة الشروق ، وتسلل بعض ضوئها عبر فرجات النافذة ، ليرسم مشهدًا ، زادت ملامحه غموضًا فوق غموضها ، وجذبت الانتباه أكثر وأكثر إلى ابتسامته الواثقة الودودة ، ورئيس الإدارة يكمل بلهجة خاصة ، توحى بأن فى الأمر ما فيه :

ـ يبدو أنكم ستضطرون لتعديل خطتكم كلها .

وحتى قبل أن ترتسم الدهشة على وجوههم ، كان الوسيم يضيف :

ـ أو إلغائها على الأرجح .

امتزج الغضب بالدهشة فى وجوههم ، وهتف أحدهم مستنكرًا :

ـ ماذا يعنى هذا ؟!.. إننا نعد للأمر منذ أسبوع كامل ، عندما أبلغنا مرشدنا بأمر هذه الصفقة .

تنهد رئيسه ، على نحو يوحى بأن المناقشة لن تجدى شيئًا ، وأشار إلى الوسيم ، قائلاً :

ـ العقيد (عماد) .. من المخابرات العامة المصرية .

تضاعفت الدهشة فى وجوههم ، حتى أزاحت كل المشاعر الأخرى جانبًا ، وهم يعيدون التحديق فى ضابط المخابرات ، الذى اتخذ مجلسه إلى جوارهم ، على مائدة الاجتماعات ، وبدأ الحديث على الفور ، دون مقدمات :

ـ اسمحوا لى بتقديم اعتذارنا أولاً أيها الزملاء ، فلقد وصلتنا نفس المعلومات ، التى أبلغكم بها مرشدكم ، ونحن نعلم مثلكم أن الرجل سَيُتَمُّ واحدةً من أكبر صفقاته ، بعد ساعات قليلة ، وأنها فرصة مثالية ، لإلقاء القبض عليه متلبسًا ، وربما لن تتكرر قط ، ولكننا ، وعلى الرغم من كل هذا ، نطالبكم بإلغاء الفكرة من أساسها .

ثم مال نحوهم مستطردًا فى حزم ، وبلهجة توحى بانعدام فرصة المناقشة .

ـ باختصار .. لا تلقوا القبض على الرجل اليوم .

اتسعت عيونهم بشدة ، وتبادلوا نظرة عصبية للغاية ، قبل أن يهتف أحدهم :

ـ ولكن لماذا ؟!.. لماذا ينبغى علينا أن نضيع فرصة مثالية كهذه ؟!

بدت لهجة رجل المخابرات أكثر حزمًا وصرامة ، وهو يجيب :

ـ لأن مصلحة الوطن تقتضى هذا .

كان جوابًا حاسمًا ، حازمًا ، مختصرًا ، ألجم ألسنة الجميع ، وجعلهم يتبادلون نظرة أخرى صامتة ، ويغرقون لحظات فى بحر من

السكون ، لم يلبث أحدهم أن بادره ، متسائلاً فى توتر ملحوظ :

ـ وهل تقتضى مصلحة الوطن أن تدخل صفقة المخدرات هذه البلاد ، وتحطم المزيد والمزيد من شبابنا ؟!

صمت رجل المخابرات لحظات قليلة ، قبل أن يجيب فى حزم صارم :

ـ كل ما يمكننى قوله فى هذا الشأن ، هو أن تلك المخدرات لن تؤذى أحدًا هذه المرة .. هذا وعد .

اخترقت كلماته عقولهم وقلوبهم ، وانتزعتِ الكلمات من حلوقهم وألسنتهم ، حتى لقد بدا المشهد لثوانٍ أشبه بصورة فوتوجرافية ثابتة ، والجميع يتطلعون إلى رجل المخابرات ، الذى بدا وجهه جامدًا بلا ملامح ، بحيث لم يستطع أكثرهم خبرة ومهارة أن يستشف منه السبب الحقيقى لما طلبته المخابرات العامة .

ولم يكن باستطاعة رجل المخابرات أن يخبرهم بالسبب الحقيقى قط ..

هذا لأن تاجر المخدرات المنشود ، كانت له صفة أخرى ، أكثر جرمًا وخطورة ..

لقد كان جاسوسًا .

فى زمن الحرب .

منذ أوائل الستينيات ، بدأت (مصر) حملة قوية ، ضد تجار ومروجى المخدرات ، ثم لم تلبث أن نسقت جهودها ، مع السلطات اللبنانية والتركية ، لتتحول تلك الحملة إلى حرب طاحنة ، نجحت فى الحد من الظاهرة ، وفى خفض معدلات زراعة وتهريب المخدرات ، إلى الحد الأدنى ..

ثم اندلعت حرب يونيو 1967م ، واحتلت إسرائيل سيناء والجولان ..

ومع الاحتلال ، تفتق ذهن أحد الذئاب الإسرائيلية عن فكرة شيطانية ، تعتمد على زيادة المساحة المزروعة بالحشيش فى سيناء ، والسعى لتهريب الإنتاج إلى الدول العربية ، وعلى رأسها (مصر) بالطبع ، لتحقيق هدفين بضربة واحدة ..

إفساد شباب ورجال (مصر) ، وتجنيد كل من يمكن تجنيده فى الوقت نفسه ، للعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية .

وهذا ما تحقق مع (سليمان) .

و(سليمان سالم سليمان) هذا مواطن مصرى ، كان يحيا فى (سيناء) ، ويعمل فيها ناقلاً للبضائع ، على ظهور الجمال ، ولكن الحرب أجبرته على الهجرة إلى (القاهرة) ، حيث عاش فيها حياة فقيرة بائسة للغاية ، وبخاصة أنه لم يكن يجيد أية مهنة أخرى ، ولم يحاول تعلم أى جديد ، مكتفيًا بالبكاء والحسرة

على الأيام السابقة .. ووسط كل هذه المتاعب ، فوجئ (سليمان) ببدوى من معارفه السابقين يزوره فى منزله الصغير للغاية ، فاستقبله فى بؤس واضح ، وراح يشكو له الفقر والحاجة والعذاب ..

واستمع إليه البدوى فى اهتمام ، وأبدى تعاطفه التام معه ، ثم لم يلبث أن دعاه للسهر معه ، فى محاولة لإخراجه من بؤسه وأحزانه ..

وكان من الطبيعى أن ينبهر (سليمان) بشدة ، بكل ما شاهده وعاشه فى تلك الليلة ، فقد كان رفيقه ينفق فى سخاء مستفز ، ويشترى كل ما تطيب له الأنفس ، من طعام وشراب ، وكأنما لديه مورد لا ينضب من المال ..

وبكل اللهفة ، سأل (سليمان) رفيقه عما ينفقه ، وعن مصدر الثراء الفاحش ، وقد عهده من قبل بسيطًا قليل المال ، فابتسم البدوى ابتسامة خبيثة ، وبدلاً من أن يجيب عن أسئلته ، طرح عليه سؤالاً آخر ، فى لهجة ذات مغزى ، قائلاً :

ـ قل لى يا (سليمان) ألا ترغب فى الحصول على عمل ، يدر عليك دخلاً كهذا ؟..

هتف (سليمان) فى لهفة :

ـ بالتأكيد ، ومن يرفض عرضًا كهذا ؟!

ثم استدرك فى قلق :

ـ ولكن ، أى عمل هذا ، الذى يعطى مالاً وفيرًا على هذا النحو ؟!

تلفَّت البدوى حوله ، قبل أن يميل نحوه ، ويجيب فى حذر هامس :

ـ المخدرات .

كانت مفاجأة حقيقية للرجل ، إلا أنه لم يبد أدنى اعتراض ، وإنما سأل فى لهفة عما ينبغى أن يفعله ، حتى يحظى بهذه الفرصة ، وتساءل فى قلق عن المطلوب منه بالضبط ، ولكن البدوى طمأنه إلى أن الأمر بسيط للغاية ، ولن يكلفه ما لا يطيق ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، سافر الرجلان بوسيلة ما إلى (سيناء) المحتلة ، للحصول على المخدرات ، كما أكد البدوى ..

وفى (سيناء) ، كانت بانتظار (سليمان) مفاجأة أكثر عنفًا ، إذ وجد رفيقه يلتقى بضابط المخابرات الإسرائيلى (بن عازر) ، الذى استقبلهما بترحاب واضح ، وبدأ حديثه معهما على الفور ، حول الكمية التى يحتاجان إليها من المخدرات ، وكيفية تهريبها إلى (مصر) ..

واستوعب (سليمان) الموقف فى سرعة ، ولم يعد وجود ضابط المخابرات الإسرائيلى يقلقه ، بقدر ما أقلقه سؤال واحد ، نقله بسرعة إلى لسانه ، قائلاً :

ـ وكم تريد ثمنًا لشحنة المخدرات هذه ؟!

تراجع (بن عازر) فى مقعده ، وأجاب :

ـ معلومات .

خُيِّلَ للرجل أنه لم يحسن الاستماع جيدًا ، فمال نحو الإسرائيلى ، متسائلاً :

ـ ماذا تقول ؟!

وهنا أجابه الإسرائيلى فى وضوح مباشر :

ـ سنمنحك المخدرات مجانًا يا (سليمان) بشرط أن تمنحنا بالمقابل كل ما يمكنك الحصول عليه من المعلومات ، عن شعب وجيش واقتصاد (مصر) .. هل تناسبك هذه الصفقة ؟!

صمت (سليمان) بضع لحظات ، درس خلالها الأمر فى رأسه بسرعة ، فبدت له الصفقة مربحة للغاية ، إذ إنه سيحصل على مخدرات بآلاف الجنيهات ، دون أن يدفع قرشًا واحدًا ..

فقط بعض المعلومات ..

لذا ، فقد هتف بحماس منقطع النظير :

ـ إنها تناسبنى بالتأكيد .

قضى معه (بن عازر) ساعتين أخريين، شرح له خلالهما نوع المعلومات المطلوبة بالضبط، وكيفية الحصول عليها، ثم ودعه مع تحديد موعد تالٍ للقاء، وترك الرجلين يرحلان بصفقة المخدرات، لتهريبها إلى (مصر)، وهو يقهقه ضاحكًا من أعماقه، بعد أن ضرب عصفورين بحجر واحد ..

دفع المزيد من السموم لشباب وأبناء (مصر)، وفاز بجاسوس جديد فى الوقت نفسه ..

أما (سليمان) فقد نجح فى تهريب المخدرات عبر الحدود، وفى بيعها وتصريفها داخل (مصر)، فى نفس الوقت الذى راح يجمع فيه كل المعلومات الممكنة، لنقلها إلى الإسرائيليين، دون أن يفكر لحظة واحدة فى أنه قد تحول إلى خائن مزدوج ..

خان وطنه بنشر تلك السموم المخدرة بين أبنائه ..

وخانه مرة ثانية، عندما قدم معلوماته، ونقلها إلى العدو، فى زمن الحرب ..

ولكن تلك المعلومات راقت كثيرًا للإسرائيليين، واعتبروها شهادة نجاح للجاسوس الجديد، حتى إنهم أدخلوه دورة تدريبية خاصة، تعلَّم خلالها أصول التجسس، واستعمال الحبر السرى فى كتابة الرسائل، واستخدام الشفرة، واستقبال وبث الرسائل اللاسلكية،

وكيفية جمع المعلومات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وعقد الصداقات مع أصحاب المراكز الحساسة، بغض النظر عن أعمارهم ورتبهم ..

وعندما عاد سليمان إلى (القاهرة) هذه المرة، حاملاً صفقة المخدرات الجديدة، كان قد تحول إلى جاسوس محترف تمامًا، واستبدل شخصيته القديمة بشخصية جديدة تمامًا، فتخلى عن زيه التقليدى، وارتدى الأزياء المدنية الأنيقة، واستأجر شقة فاخرة فى (مصر الجديدة)، وابتاع سيارة من أحدث طراز، وتحول إلى زبون مستديم فى كل أماكن اللهو والعبث الشهيرة .. بل طلق زوجته البدوية أيضًا، ليتزوج بدلاً منها حسناء عابثة، التقى بها فى أحد الملاهى الليلية ..

وبكل النشاط راح (سليمان) يمارس عملَيْهِ القذرين بنجاح تام، إذ اتسعت تعاملاته فى ترويج المخدرات، وفى جمع المعلومات والأخبار أيضًا، كما تعددت لقاءاته مع (بن عازر)، وراح يرسل بقية المعلومات عبر رسائل بريدية، مكتوبة بالحبر السرى، إلى عنوان للمخابرات الإسرائيلية فى (أثينا)، على نحوٍ منتظم ..

ولسوء حظ (سليمان)، أو لمهارة رجال المخابرات العامة المصرية، كان هذا العنوان السرى فى (أثينا) معروفًا لهم، مما ساعدهم على رصد الأمر، وتحديد نوع النشاط السرى، الذى يقوم به الرجل فى (القاهرة).

ولأكثر من عامين كاملين ، ترك رجال المخابرات (سليمان) يمارس عمله القذر ، واعترضوا كل رسائله ، لكشف ما يرسله من معلومات ، وليدسوا عليه ما يحلو لهم ، دون أن ينتبه ، أو يدرك رؤساؤه الإسرائيليون هذا ..

أما صفقات المخدرات ، فكان الرجال يتركونها تدخل (مصر) ، ثم يرسلون المعلومات عنها إلى إدارة مكافحة المخدرات ، ليتم إحباط عمليات ترويجها أو منعها بقدر الإمكان ..

ومن خلال مراجعته لكل الخطابات والمعلومات التى يرسلها (سليمان) إلى الإسرائيليين ، أدرك رجل المخابرات المصرى (عماد) أنه أمام خائن مزدوج قذر ، لا يستحق أدنى شفقة أو رحمة ، لذا فما إن أصبحت الظروف ملائمة ، حتى طلب مقابلة رئيسه ، الذى استقبله بابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- إنها قضية (سليمان) .. أليس كذلك ؟!

أجابه ضابط المخابرات فى اهتمام :

- بلى .. إننى أعتقد أن الوقت قد حان لإنهاء هذه العملية .. المرحلة القادمة بالغة الخطورة ، ولا ينبغى أن نسمح له بنقل أية أسرار إلى عدونا .

وافقه رئيسه بإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا هو القرار ، الذى اتخذناه بالإجماع ، فى اجتماع الأمس .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى حزم :

- هيا .. اتخذ كل الإجراءات اللازمة ، واختر اللحظة المناسبة ، وليوفقنا الله - سبحانه وتعالى - ..

وهكذا اجتمع الرجال ، ووضعوا خطة الإيقاع بالجاسوس ، وقرروا أن يتم إلقاء القبض عليه ، أثناء إرسال إحدى خطاباته ، التى تحوى المعلومات السرية .

ولكن فجأة ، وصلت إلى المخابرات معلومة خاصة ، عن طريق أحد عملائها ، تقول : إن إدارة مكافحة المخدرات تعد خطة ؛ لإلقاء القبض على (سليمان) ، خلال أربع وعشرين ساعة ..

وكان هذا يعنى أن يسقط الرجل بتهمة الاتجار فى المخدرات وترويجها ، وليس بتهمة التجسس لحساب دولة أجنبية معادية ، فى زمن الحرب ..

والفارق رهيب فى الحالتين ..

لذا ؛ قد اجتمع الرجال على عجل ، وناقشوا الأمر لساعة كاملة ، قبل أن يقول رئيسهم فى حزم :

- لا يوجد سوى سبيل واحد يا رجال .. سنتصل برجال مكافحة

المخدرات ، ونطلب منهم التغاضى عن إلقاء القبض على (سليمان) غدًا ، حتى يمكننا الإيقاع به جاسوسًا ، لينال الجزاء الذى يستحقه ، وليعلم الإسرائيليون أننا كشفنا أمره منذ البداية .. هذا مهم للغاية ، فى هذه المرحلة ..

ولأن هذا ما استقر عليه الجميع ، فقد تم إسناد هذه المهمة للعقيد (عماد) الذى يتابع قضية (سليمان) منذ البداية ..

وكان ما كان ..

ولم يلق رجال مكافحة المخدرات القبض على (سليمان سالم سليمان) فى اليوم التالى ، إنما تركوه يدخل صفقة المخدرات الجديدة إلى البلاد ، وراقبوه فى دقة ، وهو ينقلها إلى عدة مخازن سرية ، سجلوا كل مواقعها ، وراحوا يراقبونها فى تحفز تام ..

ولم يطل بهم الوقت طويلاً ..

لقد شعر (سليمان) بمزيد من النجاح والثقة ، بعدما نجح فى إدخال أكبر شحنة مخدرات إلى البلاد ، فأقام حفلاً خاصًا ، احتفالاً بهذه المناسبة ، فى أحد الملاهى الليلية ، أراق فيه الخمر أنهارًا ، وأنفق فيه عن سعة ، ثم عاد إلى منزله الفاخر ، وقضى شطرًا من الليل يكتب خطابًا جديدًا للمخابرات الإسرائيلية ، يحوى كل ما جمعه من أسرار ومعلومات ، فى الآونة الأخيرة ..

وكانت المعلومات بالغة الخطورة بالفعل هذه المرة ..

وإلى أقصى حد ..

وعندما استيقظ (سليمان) ظهر اليوم التالى ، كان يشعر بالانتعاش والثقة ، حتى إنه ارتدى أفضل ثيابه ، وخرج حاملاً الخطاب ، ليرسله إلى ذلك العنوان فى (أثينا) ..

وعندما بلغ صندوق خطابات فى (مصر القديمة) ، إمعانًا فى التمويه ، وامتدت يده لتلقى فيه ذلك الخطاب ، انطلقت أصابع كالفولاذ تقبض على معصمه ، مع صوت صارم ، يقول :

ـ لا داعى .. نحن سنأخذ هذا الخطاب .

انتفض جسد (سليمان) فى ارتياع ، وحاول أن يلقى الخطاب ، ولكن صاحب الأصابع الفولاذية تابع :

ـ العقيد (عماد) .. من المخابرات العامة المصرية .. لقد ألقينا القبض بالفعل على المجند (فوزان سليمان حسين) ، شقيق زوجتك البدوية السابقة ، الذى نجحت فى ضمه إلى عملك القذر ، وهذا الخطاب سيحسم أمرك أيضًا .

ثم ابتسم فى سخرية ، مستطردًا :

ـ وسنرسل نحن تحيتك إلى (بن عازر) .

انهار (سليمان) تمامًا ، عند هذه النقطة ، خاصة عندما رأى تلك الصور ، التى التقطتها له المخابرات العامة ، أثناء لقاءاته مع رجل المخابرات الإسرائيلى (بن عازر) ، وصور كل خطاباته السرية ، إلى مقر المخابرات الإسرائيلية فى (أثينا) ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يدلى (سليمان) باعتراف كامل ، ذيَّله بتوقيعه ، فى حضور وكيل نيابة أمن الدولة ..

وأصدرت المحكمة العسكرية فى (القاهرة) حكمها بإعدام (سليمان) وشقيق زوجته (فوزان) ..

وفى يوم واحد ، وقبل أيام قليلة من حرب أكتوبر 1973م ، تم شنق (سليمان سالم سليمان) ، وإعدام (فوزان سليمان حسين) رميًا بالرصاص ..

وكانت نهاية مزدوجة لقضية الخائن ..

الخائن المزدوج .

* * *

الخبـــــراء

منذ الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم ، الثامن والعشرين من يوليو ، عام 1977م ، بدا من الواضح ، فى أروقة جهاز المخابرات الإسرائيلى ، أن الأمور لا تسير على نحو تقليدى أو مألوف ، وأن أمرًا خطيرًا قد استفز مشاعر المسئولين هناك ، ودفعهم إلى الاستيقاظ مبكرين ، أكثر مما ينبغى ، وإلى الاجتماع فى تلك القاعة ، التى يطلقون عليها اسم (الحجرة المغلقة) ، والتى يندر أن تعقد اجتماعاتهم فيها ، إلا فى ظروف الطوارئ القصوى ، إلا أن أحدًا خارج تلك الحجرة المغلقة ، لم يكن يدرك قط ما الذى يدور بالداخل ، ولا ذلك الخبر البالغ الأهمية ، الذى وصل فى ساعة مبكرة من الصباح ، وأدى إلى كل هذا ..

أما فى داخل الحجرة ، فقد كان الموقف أكثر توترًا وانفعالاً ..

فأمام كل هؤلاء المسئولين الكبار ، كان هناك تقرير عاجل من (المغرب) ، يشير إلى أن الرئيس (السادات) قد طرح هناك فكرة إمكانية قيامه بزيارة لمدينة (القدس) ، من أجل السلام ، حقنًا للدماء ، وحرصًا على مستقبل شعبه ، الذى خسر سنوات عديدة من تاريخه فى صراعات وحروب طويلة ، أخرت خطة التنمية ، وأساءت كثيرًا للبنية الداخلية ، وإمكانات التطور والتحديث ، واللحاق بقطار تكنولوجيا النصف الثانى من القرن العشرين ..

وكان ذلك الخبر بالغ الخطورة والأهمية ، على كل المقاييس ، فبعد ثلاثين عامًا من الصراع المتواصل ، كان من المدهش حقًا أن يفكر زعيم عربى بهذا الأسلوب ، وأن يكسر ذلك الحاجز النفسى ، بين العرب وإسرائيل ، على هذا النحو الحاسم ، الحازم ، الباتر .

وطوال أكثر من خمس ساعات متصلة ، راح مسئولو جهاز المخابرات الإسرائيلى يدرسون هذا التقرير ، ويفحصونه ، ويمحصونه ، ويناقشون كل حرف فيه ..

صحيح أن المعلومة كانت مباغتة وعجيبة ، إلا أنها تتفق مع بعض تقاريرهم السابقة ، التى أكدت أن (السادات) يخطط حتمًا لقنبلة سياسية قوية ، منذ بدايات عام 1977م ، حتى إن بعضهم كان يخشى أن تتحول تلك القنبلة السياسية إلى قرار عسكرى مخيف ، بشن حرب أخرى على (إسرائيل) ..

وعلى الرغم من كل هذا ، ومن الوقت الطويل ، الذى استغرقه رجال (الموساد) فى دراسة الأمر ، إلا أنهم انتهوا إلى أنه من المستحيل تأكيد أو نفى هذا الأمر ، إلا بحدوثه أو عدم حدوثه فعليًا ، وربَّت رئيسهم براحته على مائدة الاجتماعات ، قائلاً فى حزم :

ـ الواقع أيها السادة أنه ليس أمامنا سوى الانتظار ..

ولكن الأيام أثبتت لهم أن تلك المعلومة كانت صحيحة تمامًا ، فلم تمض أشهر معدودة على ذلك الاجتماع ، حتى كان الرئيس (السادات) يقف فى مجلس الشعب ، ويقول فى حزم مقولته الشهيرة :

ـ إننى مستعد للذهاب إلى (إسرائيل) نفسها ، من أجل السلام .

وقبل أن ينتهى الرئيس المصرى من خطابه هذا ، كان فريق المخابرات الإسرائيلى يجتمع مع رئيس وزراء (إسرائيل) (مناحم بيجن) ، ووزيره (موشى ديان) فى (الحجرة المغلقة) ..

وفى هذا الاجتماع ، كان للرجلين مطلب محدد ، من جهاز (الموساد) ..

تجنيد كل الإمكانات المتاحة ، للتجسس على الرئيس (السادات) ، عندما يصل إلى (القدس) ..

وفى حزم وصرامة ، دق (موشى ديان) مائدة الاجتماعات بقبضته ، وهو يقول لرئيس الجهاز ـ فى ذلك الحين ـ (إسحق حوفى) :

ـ لست أريدها عملية مراقبة أو تجسس عادية .. بل أريدها عملية فنية من الطراز الأول ، على نحو لم يسبق له مثيل .. عملية تثبت لنا ، أننا وعلى الرغم من نجاح المصريين فى خداعنا ، قبيل

حرب أكتوبر 1973م ، ما زلنا الخبراء فى مضمارنا .. باختصار .. أريد أن أراقبه كما لو أننا آلهة تراقب البشر .. ارصدوا كل كلمة ، وكل حركة ، وكل نفس يتردد فى صدره .. أريد أن أعرف كيف يتصرف هذا الرجل ويفكر ، فى كل لحظة من يومه .

تنهَّد (حوفى) ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ الأمر ليس بهذه السهولة يا سيادة الوزير ، فالمصريون ليسوا بالسهولة التى تتصورها .. لقد تطوروا كثيرًا فى السنوات الأخيرة ، والصراع المستمر بيننا وبينهم أصقل تجاربهم وخبراتهم ، ولم يعد من السهل خداعهم .

بدا الغضب على وجه (ديان) ، وانتقل غضبه هذا بسرعة إلى رئيس الوزراء ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، ومال نحو رئيس المخابرات الإسرائيلى ، قائلاً :

ـ اسمع يا رجل .. الحكومة الإسرائيلية تمنح جهازك هذا ملايين الدولارات سنويًّا ، فلماذا تفعل هذا فى رأيك ؟

تنهَّد الرجل دون أن يجيب ، فتابع (بيجن) فى صرامة ، مجيبًا سؤاله :

ـ لأنها تعتقد أن الجهاز يمكنه تنفيذ أى مطلب للحكومة ، مهما كان صعبًا أو مستحيلاً .. أليس كذلك ؟!.. أليست هذه مهمة أى جهاز مخابرات ، فى أية دولة ؟!

صمت (إسحق حوفى) لحظات ، ثم أجاب مع تنهيدة أخرى :

ـ بالتأكيد يا سيادة رئيس الوزراء .. بالتأكيد .

وما إن غادر الرجلان مبنى المخابرات الإسرائيلية ، حتى طلب (حوفى) عقد اجتماع عاجل مع رجاله ومعاونيه ، لبحث كل ما لديهم من أدوات ومعدات التجسس والتنصت المتطورة ، ومدى إمكانية استغلال كل هذا لتحقيق ما طلبته الحكومة ..

وكان الاجتماع مخيبًا للآمال إلى حد كبير ..

فعلى الرغم من كثرة ما تملكه المخابرات الإسرائيلية فى هذا المضمار ، إلا أن كل ما لديها من معدات من طراز معروف ، لدى بعض أجهزة المخابرات الأخرى ، ومنها جهاز المخابرات المصرى ..

لذا ، فقد كان من الضرورى أن يتم استيراد أدوات حديثة ، لم يتم تداولها بعد ، بحيث تعجز المخابرات المصرية عن كشفها والتعامل معها ..

ومَن الأفضل ـ فى هذا المجال ـ من المخابرات المركزية الأمريكية ؟!..

وفى الوقت نفسه ، الذى عقد فيه (مناحم بيجن) مؤتمره

الصحفى الشهير ، فى فندق (هيلتون) ، فى (تل أبيب) ، فى الثانى عشر من نوفمبر ، 1977م ، ليوجه دعوته الرسمية للرئيس (السادات) لزيارة (القدس) ، كان رجال المخابرات الإسرائيلية يستقبلون طائرة خاصة ، تحمل إليهم أحدث أجهزة المراقبة والتنصت والتصوير الدقيق ، من الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة ..

وتقرر أن يقيم الرئيس (السادات) فى الجناح الرياسى الخاص ، فى فندق (الملك داود) ، وبدأ (الموساد) فى الاستعداد لتنفيذ خطته ..

ولكن الرئيس (السادات) رفض الدعوة الشفهية ، وأصر على أن يتسلم دعوة رسمية موثقة ، مما دعا رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى إرسال تلك الدعوة الرسمية للسفير الأمريكى فى (تل أبيب) (سام لويس) ، فى الخامس عشر من نوفمبر ..

وهنا فقط قبل الرئيس (أنور السادات) الدعوة ، وتقرر وصوله مساء السبت ، التاسع عشر من نوفمبر إلى (القدس) ..

وبدأ التنفيذ الفعلى للخطة ..

ففى ساعة مبكرة من صباح السادس عشر من نوفمبر ، وقبل ساعة كاملة من شروق الشمس ، أيقظ رجال (الموساد) المسئولين عن إدارة فندق (الملك داود) ، وطلبوا منهم استخدام الجناح الرياسى ،

الذى سيقيم فيه الرئيس (السادات) ، لأمر بالغ الأهمية والخطورة والسرية ، وحذروهم من مجرد الإشارة إلى هذا ، وإلا تم تطبيق قانون إفشاء أسرار الدولة عليهم بلا رحمة ..

وارتجف مسئولو الفندق ، وخشوا أن تكون هناك خطة لاغتيال الرئيس المصرى فى فندقهم ، مما سيسىء إلى سمعتهم إلى أقصى حد ، إلا أن رجال المخابرات الإسرائيلية أكدوا لهم أنه لا علاقة للأمر بالاغتيال من قريب أو من بعيد ..

وبسرعة ومهارة ، انتشر أكثر من دستة من خبراء المخابرات الإسرائيلية ، فى الجناح الرياسى بالفندق ، وراحوا يزرعون أجهزة التنصت والتصوير الحديثة ، فى أكثر من أربعين مكانًا داخل الجناح ..

لقد انتزعوا أجزاءً من الحوائط والأثاثات ، والأرضيات ، وزرعوا خلفها وداخلها وتحتها أجهزتهم ، ثم أعادوا كل شىء إلى ما كان عليه بمهارة مدهشة ، بحيث صار من المستحيل أن ينتبه الفاحص المدقق لما فعلوه ..

وفى ثقة وظفر وارتياح ، غادر خبراء (الموساد) جناح الرئيس ، وانتقلوا إلى حجرة فى مبنى مجاور ، احتلها طاقم فنى ، قام بتشغيل كل الأجهزة ، وتجريتها أكثر من مرة ، قبل أن يبلغ رئيسه أمر تجارب التشغيل إلى مدير جهاز المخابرات شخصيًا ..

ولم يكد (إسحق حوفى) يتلقى الخبر ، حتى طار به إلى (بيجن) و(ديان) ، وقال بابتسامة تحمل كل ثقته وارتياحه :

ـ كل شىء على ما يرام .

وانتقل ارتياحه إلى الرجلين ، وبخاصة (ديان) ، الذى ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة ، على شاشات المراقبة ..

ولم يتبق سوى وصول الرئيس (السادات) ..

ولكن الصورة فى (القاهرة) كانت تختلف كثيرًا ..

فالرجال هناك كانوا يدركون جيدًا ، بحكم دراستهم وخبرتهم وتاريخهم ، أن الإسرائيليين سيبذلون قصارى جهدهم حتمًا ، لمراقبة الرئيس (أنور السادات) ، والتنصت عليه ، طوال فترة إقامته فى (القدس) ..

الرئيس نفسه كان واثقًا بأنهم سيفعلون ، لذا فقد جلس مع مدير جهاز المخابرات المصرى ، وناقشا الأمر طويلاً ، قبل أن ينفث الرئيس دخان غليونه الشهير ، ويقول لمدير المخابرات بلهجة ذات مغزى :

ـ لاحظ أن الإسرائيليين خبراء فى هذا المجال .

ابتسم مدير المخابرات فى هدوء واثق ، وهو يقول :

ـ نحن أيضًا لدينا خبراؤنا يا سيادة الرئيس .

أكد الرئيس مرة أخرى :

ـ لديهم أجهزة حديثة حتمًا .

أومأ مدير المخابرات برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس .

أشعل الرئيس (السادات) غليونه مرة أخرى ، وانهمك فى إشعاله ، كعادته كلما أراد أن يمنح نفسه مهلة للتفكير ، ثم قال فى حزم :

ـ لا أريد أن أفكر ، قبل أن ألقى نكتة مصرية صميمة .

كرر مدير المخابرات فى حسم وثقة :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس .. سنفعل كل ما يحلو لك هناك .

وغادر المدير المكان عائدًا إلى جهاز المخابرات المصرى ، ولم يكد يصل إليه ، حتى عقد اجتماعًا عاجلاً مع رجاله ، ونقل إليهم كلمات الرئيس ، ثم أدار عينيه فى وجوههم ، قائلاً :

ـ هذه العملية ليست مجرد عملية تأمين لجناح الرئيس فى قلب (القدس) ، وإنما هى إعلان لقدرتنا وكفاءتنا ، ولأن عهد التفوق الإسرائيلى قد ولّى ومضى إلى الأبد ..

وتلقى الرجال كلمات المدير بمنتهى الحماس ، ودون إضاعة لحظة واحدة ـ كعادتهم ـ انتقلوا إلى مرحلة العمل ..

وفى عالم المخابرات ، يبدأ دائمًا بجمع المعلومات ..

كل ما يمكن من المعلومات ..

وبهمة لا مثيل لها ، إلا فى أدق مراحل الحروب ، نشطت شبكة كاملة من عملاء جهاز المخابرات المصرى ، فى كل أنحاء العالم ، لجمع أية معلومات حول نظم التجسس والتنصت الحديثة ، وأية صفقات سرية ، تم عقدها فى هذا المضمار ، فى أية بقعة من العالم ، وتحت أية مسميات أو مبررات ..

ولأن أية أجهزة مهما بلغت حداثتها ودقتها وخطورتها ، مجرد أدوات ، يتم تصميمها وإعدادها وإنتاجها فى مكان ما ، فهى فى النهاية تخضع ـ على الرغم من سريتها ـ لما يطلق عليه اسم (التجسس الصناعى) ، وهو ذلك الفرع من التجسس ، الذى يسعى خلف كل جديد وحديث ، فى عالم التكنولوجيا والصناعة ، لكشف أسراره ، والاستيلاء على أفكاره وتصميماته فى سباق المنافسة الصناعية ، الذى يفوق أى سباق آخر ..

وهذا يعنى أن التوصل إليها عسير ..

ولكنه ليس مستحيلاً ..

وفى الوقت نفسه ، الذى قامت فيه تلك الشبكة بمهمتها ، كان هناك فريق آخر من الرجال ، يسجن نفسه داخل حجرة كبيرة ، فى مكان ما فى جهاز المخابرات المصرى ، وأمامه التصميمات الكاملة لفندق (الملك داود) ، ورسم مكبر خاص لجناح الرياسة ، المعد للرئيس (السادات) ..

وكان هذا الفريق من الرجال يدرس كل شبر فى الفندق ، وكل سنتيمتر من الجناح ، بالتحديد كل الأماكن المحتملة ، لزرع أجهزة التنصت والمراقبة والتجسس ..

والواقع أن الجميع كانوا يقومون بعملهم بمنتهى الدقة والهمة والنشاط والبراعة ، و ... والسرعة ..

فمع كل الإجراءات ، التى ينبغى اتباعها ، وكل المعلومات التى يستلزم الحصول عليها ، لم تكن المهلة الممنوحة لهم تتجاوز الأربعين ساعة بالتمام والكمال ..

ففى صباح الخميس السابع عشر من نوفمبر ، وطبقًا لكل الأعراف والقواعد الدبلوماسية والرسمية ، وصلت إلى إسرائيل ، فى ساعة مبكرة للغاية ، طائرة رسمية مصرية ، تحمل على متنها ستين رجلاً ، مع عدد من الصناديق ، يبلغ وزنها أكثر من مائة طن ..

وكانت تلك الطائرة تحمل الطاقم الإدارى والأمنى ، طبقًا للإجراءات المتعارف عليها ، لترتيب وتأمين زيارة الرئيس (السادات) ..

ولأول مرة بدأ القلق وفقدان الثقة يتسللان إلى الإسرائيليين ، خاصة أن أجهزتهم الأمنية لم يمكنها أن تتعرف إلا على رجل واحد ، من بين الرجال الستين ، وهو وزير الدولة المصرى لشئون الرياسة (حسن كامل) ..

أما البقية ، فكانوا مجهولين تمامًا لكل أجهزة الأمن الإسرائيلية ، التى استفزها هذا وأقلقها ، وفجر فى أعماقها عشرات التساؤلات عما تحويه تلك الصناديق ، التى يستحيل فتحها وفحص محتوياتها ، طبقًا للأعراف الدولية أيضًا ..

وعندما وصل ذلك الفريق إلى فندق الملك (داود)، تأكد الإسرائيليون على الفور ، من أنه يضم نخبة من أفضل خبراء الأمن المصريين ، فقد انتشر الرجال بسرعة مدهشة فى المكان ، وانتشروا فى الفندق كله ، وراحوا يقومون بعملهم فى دقة وبراعة ، أثارتا قلق وإعجاب الإسرائيليين ، على الرغم منهم ..

فكل شىء تم حسابه بدقة بالغة ، وعلى نحو يوحى بأن هؤلاء الرجال كانوا يقيمون فى هذا الفندق بالتحديد منذ مولدهم ..

مجموعة منهم عملت على تأمين كل المداخل والمخارج ، وفحصت ردهات الفندق وطرقاته ، وحتى الشوارع المحيطة به ، ومجموعة أخرى خرجت لدراسة خط سير موكب الرئيس ، ولتدريب سائقه وحرسه الخاص على التصرف ، فى أحلك مواقف الطوارئ المحتملة ، ومجموعة ثالثة راجعت كل التوصيلات الكهربية بالفندق ، وقامت بتركيب مولد كهربى احتياطى ، تحسبًا لأية محاولة متعمدة لقطع التيار ..

ولكن تلك المجموعات الثلاث لم تقلق الإسرائيليين ، الذين اعتادوا مثل هذه الأمور ..

المجموعة الرابعة وحدها أشعلت كل قلقهم ، وفجرت كل المخاوف الكامنة فى أعماقهم ، وجعلت قلوب طاقم المراقبة الفنى تهوى بين أقدامهم ..

إنها تلك المجموعة ، التى بقيت داخل الجناح ..

فأمام الأعين المذعورة لرجال الطاقم الفنى ، كان أفراد تلك المجموعة ينتشرون داخل الجناح فى سرعة ومهارة ، ويفحصون كل شبر من جدرانه ، وأرضياته ، وأثاثاته .. وحتى دورة مياهه الواسعة ..

وفى ارتياع ، أجرى رئيس فريق المراقبة اتصالاً بمدير (الموساد) ، وقال :

ـ سيدى .. لست أدرى أى رجال هؤلاء .. الذى أتى بهم المصريون ، ولكنهم نجحوا حتى الآن فى تحديد مواقع ثلاثين جهازًا ، من الأجهزة التى تم زرعها فى الجناح ، خلال خمس وأربعين دقيقة فحسب .

اتسعت عينا مدير جهاز المخابرات الإسرائيلى فى ذهول ، قائلاً :

ـ مستحيل .. إنها أحدث أجهزة فى العالم ، ورجالنا قاموا بعملهم خير قيام ، فكيف تمكن المصريون من ....

قاطعه الرجل ، دون أن ينتبه من فرط انفعاله ، إلى ما فى هذا من مجافاة للذوق والتقاليد :

ـ لقد فعلوها يا سيدى .. إنهم أكثر ذكاءً وبراعةً من كل ما تصورناه .. صدقنى .. لو أنك تشاهد ما أشاهده الآن ، لم يتسع صدرك لكل دقات قلبك .

ولم يكن المدير بحاجة فعلاً لرؤية ما يراه رئيس الطاقم الفنى للمراقبة ، حتى يشعر بما يعنيه هذا الأخير ، فقد ارتفعت دقات قلبه بالفعل ، حتى خُيِّلَ إليه أنها صارت أشبه بطبول ، تدوى فى مبنى المخابرات كله ..

وبعد خمسين دقيقة أخرى ، كاد قلب الرجل يتوقف بين ضلوعه ، عندما أعاد رئيس الطاقم الفنى الاتصال به ، قائلاً فى أسى :

ـ لم نعد نرى أو نسمع شيئًا يا سيدى .. لقد انتزع المصريون كل ما وضعناه ..

وفى بطء ، أنهى المدير المحادثة ، ثم اتصل بالوزير (ديان) شخصيًا ، وقال عبارة واحدة :

ـ المصريون أفسدوا كل شىء .

وفى اللحظة نفسها ، التى نطق فيها عبارته ، كان فريق الخبراء المصرى يضع اللمسات الأخيرة لعمله الرائع .

لقد أعادوا كل شىء إلى ما كان عليه ، بمنتهى الدقة ..

الجدران .. الأرضيات .. الأثاث ..

كل شىء ..

وفى مساء التاسع عشر من نوفمبر 1977م ، تابع العالم أجمع وصول الرئيس (السادات) إلى (القدس) ، ولقائه بالقادة الإسرائيليين وجهًا لوجه ، ورأى العلم المصرى يخفق فى قلب (إسرائيل) ..

ولكن ما لم يره العالم فى تلك الليلة ، هو لحظة وصول الرئيس إلى جناحه ، فى فندق (الملك داود) ، عندما أدار عينيه فى المكان ، قبل أن يقول لرئيس طاقمه الأمنى فى هدوء :

ـ تحضرنى الآن نكتة مصرية قديمة .

ابتسم الرجل ، وهو يجيب الرئيس :

ـ يمكنك أن تلقى هنا كل ما تشاء من نكات مصرية يا سيادة الرئيس .

وينفث دخان غليونه فى سماء الجناح وكأنه يقول للإسرائيليين : إنهم قد أدركوا اليوم فقط من هم الخبراء ..

الخبراء الحقيقيون ..

المصريون .

* * *

الخطـــــر

استيقظت قرية (نوسا الغيط) التابعة لمركز (أجا) ، بمحافظة (الدقهلية) ، كعادتها مع مشرق الشمس ، فى ذلك اليوم فى بداية الأسبوع ، فى منتصف شهر مارس عام 1996م ، وسرعان ما دبّ النشاط فى طرقاتها ، والذين يستعدون لركوب وسائل المواصلات المختلفة ، للحاق بأعمالهم فى مركز (أجا) ، أو فى مدينة (المنصورة) ، التى تبعد بضعة كيلومترات عن القرية ، فى حين اتجه عشرات آخرون إلى حقولهم ، ليحرثوا ويزرعوا تلك الأراضى ، التى ارتوت بعروقهم وعرق آبائهم وأجدادهم ، منذ عشرات السنين ..

وراح الوقت يمضى بسرعة كالمعتاد والجميع منهمكون فى أداء أعمالهم فى القرية ، حتى انتصف النهار .

وفجأة وفى الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، اقتحمت سيارات الشرطة ، المحملة بجنود الأمن المركزى القرية ، وأغلقت مداخلها ، ونزل الجنود منها ينتشرون فى القرية ، ويحتلون أسطح منازلها ، وأعلن حظر التجول فيها ، وسط ذهول وفزع الأهالى ، الذين تساءلوا ، فى مزيج من الدهشة والحيرة والخوف ، عمّا يحدث فى قريتهم ، وعن السبب الذى دعا الشرطة لمعاملتها على هذا النحو ؟!

وعلى الرغم من الحصار وحظر التجول ، انتشرت فى القرية شائعة تقول : إن رجال الشرطة حاصروا منزلاً بعينه ..

منزل رقيب متطوّع سابق ، فى البحرية المصرية ، ترك الخدمة وأحيل إلى المعاش ، منذ سنوات عديدة ..

وتساءل أهالى القرية مرة أخرى عن سبب هذا الإجراء ..

وقبل أن تطول تساؤلاتهم ، أو تتجه إلى مواضع عديدة ، ظهرت سيارة كبيرة ، تقل عددًا من الرجال ، وبرفقتهم ابن القرية ، صاحب ذلك المنزل المستقل ، المكون من طابق واحد ، والذى يحيط به رجال الأمن المركزى ..

واتجهت السيارة إلى ذلك المنزل مباشرة ..

وفى ذل وانكسار ، هبط صاحب المنزل (عبد الملك عبد المنعم على حامد) ، من السيارة ، واتجه مع الآخرين إلى داخل المنزل .

ولا أحد يدرى كيف توصل أبناء القرية ، داخل منازلهم ، إلى هؤلاء الرجال ، الذين وصلوا مع (عبد الملك) ، هم عدد من محققى النيابة ، ولكن معرفتهم بهذا زادت فى حيرتهم وتوترهم ، وأطلقت فى أعماقهم سؤالاً جديدًا .. ما الذى فعله (عبد الملك) ، حتى يحدث كل هذا ؟!

أى جُرم ارتكبه ، بحيث يتم حصار قريته ومنزله ، ويحيط به عدد من محققى النيابة على هذا النحو ؟!

وبسرعة أيضًا أتى الجواب ..

وأتت معه صدمة عنيفة ، لكل فرد فى القرية ..

فالجُرم الذى ارتكبه (عبد الملك) كان رهيبًا ، وأكثر من المتوقع بكثير ..

هذا لأنه لم يرتكبه ضد نفسه فحسب ، بل ضد أسرته ، وقريته ، ووطنه كله أيضًا ..

لقد كان (عبد الملك) جاسوسًا ..

جاسوسًا لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

ويا لها من مفاجأة ..

من العجيب أن (عبد الملك عبد المنعم على حامد) قد بدأ حياته على نحو مشرف للغاية ، فقد تطوع للعمل فى القوات البحرية المصرية ، وترقى فيها حتى حصل على درجة رقيب ، واشترك فى حرب الاستنزاف ، وبعدها حرب أكتوبر 1973م ، وواصل عمله بعدها ، حتى ترك الخدمة ، وتمت إحالته إلى المعاش ، فى عام 1978م .

وبعد تركه الخدمة ، وبناءً على خبراته السابقة فى المجال البحرى ، نجح (عبد الملك) فى الحصول على وظيفة يحلم بها العديدون ، على إحدى السفن التابعة لشركة استثمارية شهيرة فى (الإسكندرية) وكان من الممكن أن يترقى فيها أيضًا ، ويبلغ منصبًا يحسده عليه أقرانه .

إلا أنه لم يفعل ..

شىء ما فى أعماقه كان يرفض الالتزام بأى عمل رسمى منتظم ، بعد خروجه من القوات البحرية ، بكل التزاماتها ، والضبط والربط فيها .

وبسبب تمرده هذا ، لم تلبث الشركة أن استغنت عن خدماته ، فعاد إلى منزله فى (نوسا الغيط) ، حاملاً مكافأة نهاية الخدمة الضئيلة ، وقدرًا من الغضب والحنق فى أعماقه ، لا حدود لهما ..

ولفترة ليست بالقصيرة ، راح (عبد الملك) يبحث عن عمل جديد يشبع طموحاته ، التى تضاعفت وتضاعفت ، وحطمت أمامها كل القواعد والأعراف ..

وحتى المبادئ ..

وعن طريق البريد ، خاطب (عبد الملك) واحدة من شركات الملاحة الإسرائيلية ، للعمل على متن إحدى سفنها ، وراح ينتظر

الجواب على أحر من الجمر ، إلا أن تلك الشركة الإسرائيلية تجاهلته تمامًا ، ولم تفكر حتى فى إرسال رفضها إليه ..

وشعر (عبد الملك) مرة أخرى بالسخط والغضب ، ولكنه لم يتوقف عندهما هذه المرة ، وإنما قرر اقتحام مجال عمل جديد ، عمل يطفئ نيران لهفته ويروى طموحاته المتضخمة ..

وسافر (عبد الملك) إلى (ليبيا) ..

ولعدة سنوات ، استقر به المقام هناك ، والتحق بعمل منتظم ، بدخل لا بأس به ..

وكان من الممكن أن يستمر فى عمله هذا بنجاح ..

لولا ذلك الشىء فى أعماقه ..

ذلك المزيج من التمرد الشرس ، والطموح الشره اللذين جعلاه يمل وظيفته ، ويرفضها فى عنف ، ثم يتخذ قراره بتوسيع نشاطه ، ويقتحم مجال تجارة الجملة ونقل البضائع بين (مصر) و(ليبيا) ..

ولفترة قصيرة للغاية حقق عمله بعض النجاح ، وبدا كأنه يبشر بالخير ، إلا أن (عبد الملك) لم يفكر فى السير بتجارته فى الطريق المستقيم ، وإنما لجأ إلى بعض الأساليب الملتوية ، وغير القانونية ، و ...

وجاءت الضربة بغتة ..

انهار نشاطه ، وفسدت تجارته ، وخسر مبلغًا ضخمًا من المال ، بسبب أساليبه الملتوية ، وطموحاته الوحشية ، التى أعمت عينيه عن الخطوط الواضحة للعمل الجاد والشريف ..

والعجيب أنه ، ومنذ عودته إلى (مصر) ، بعد فشل تجارته ، اتجه بتفكيره كله إلى آخر مكان لا يمكن أن يخطر ببال شخص طبيعى ، للبحث فيه عن عمل ..

إلى (إسرائيل) ..

ولقد بذل (عبد الملك) جهودًا مضنية بحق ، للسفر إلى (إسرائيل) بدءًا من أوائل عام 1994م ، وحتى أوائل عام 1995م ، عندما نجح فى السفر إليها ، وبدأ عمله فى (إيلات) ، فى مجال نقل مواد البناء ..

وهناك اشتعلت طموحاته ، وازدادت شراستها ، وبدت له كأنها قد وجدت المجال المناسب لتتأجج نيرانها ، وتتحوّل إلى واقع ملموس ..

ولأنه طموح ، مثابر ، مشتعل ، ولا يقيم للمبادئ والأخلاقيات وزنًا ، كان من الطبيعى أن تتجه إليه عيون خاصة ، فى قلب (إسرائيل) ..

عيون تقتصر مهمتها على فرز وتصنيف المصريين ، الذين يأتون بحثًا عن عمل فى (إسرائيل) ، وتحديد العناصر الصالحة

منها للتجنيد ، والعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية بأنواعها ، سواء الحربية (أمان) ، أو (الموساد) ..

وبدأت عملية فرز وتصنيف (عبد الملك) بعد أيام قليلة من وصوله إلى (إسرائيل) ، وعمله فى (إيلات) ..

وبعد مراقبة دقيقة ومدروسة ، تأكَّد رجال المخابرات الإسرائيلية أنه شخص مناسب تمامًا للتجنيد ، خاصة أنه يبحث عن المال ، دون السؤال أو الاهتمام بمصادره ..

وذات يوم ، وبينما كان (عبد الملك) يمارس عمله ، اقترب منه شخص ما ، وسأله بالعربية ، وبلهجة خالصة :

ـ هل يروق لك هذا العمل ؟

التفت إليه (عبد الملك) يتفحصه جيدًا ، قبل أن يسأله :

ـ ألديك عمل أفضل ؟!

ارتسمت على شفتى الرجل ابتسامة خبيثة ، وهو يجيب باقتضاب :

ـ بالتأكيد ، ولكن ...

قاطعه (عبد الملك) فى لهفة ، كشفت طبيعته الشرهة :

ـ لا تقل لكن .. أخبرنى عن ذلك العمل الجديد فحسب ، ما دام دخله يفوق دخل عملى هذا .

تلفت الرجل حوله ، وهو يجيب :

ـ ليس هنا .. المكان غير مناسب .. دعنا نلتقى فى السابعة ، بعد انتهاء العمل ، فى نهاية شارع الميناء .

قالها الرجل ، وانصرف بخطوات واسعة سريعة ، بعد أن زرع اللهفة والقلق والغموض فى أعماق (عبد الملك) ، الذى أدرك على الفور أن ذلك العمل ، الذى تحدث عنه الرجل ، ليس عملاً عاديًا ..

وقفزت إلى ذهنه فكرة الجاسوسية ، ولكنه لم يرفضها تمامًا وإنما تساءل :

ـ أمن الممكن أن يمارسها دون أن يسقط فى قبضة المخابرات المصرية ؟!

وعلى الرغم من أنه لم يحسم هذا التساؤل تمامًا ، إلا أنه ذهب لمقابلة الرجل ، فى نهاية شارع الميناء ، ووجد معه شخصًا آخر ، استقبله بابتسامة كبيرة ، لم تبعث الارتياح فى نفسه ، ولكنه رحب به فى حرارة ، واستقل مع الرجلين سيارة كبيرة ، ذات نوافذ داكنة ، انطلقت بهما مبتعدة ، والشخص الجديد يتبادل الحديث مع (عبد الملك) فى اهتمام ..

وقبل أن تصل السيارة إلى وجهتها ، كان (عبد الملك) قد أدرك أن الرجلين اللذين يشاركانه رحلته الغامضة ، يعملان فى المخابرات الإسرائيلية ..

وأنهما يسعيان لتجنيده ..

وعلى الرغم من أن (عبد الملك) كان يتوقع هذا ، إلا أن المعرفة المباشرة تركت أثرها على وجهه وصوته ، اللذين شحبا على نحو ملحوظ ، وهو يسأل عن بعض التفاصيل ، التى بدأها بسؤال بالغ الأهمية بالنسبة إليه :

ـ كم ستدفعون بالضبط ؟

ابتسم أحد الرجلين فى دهاء فى حين قهقه الثانى ضاحكًا فى قوة ، قبل أن يربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ ما يكفى يا رجل .. ما يكفى ..

زمجر (عبد الملك) ، وهو يقول فى شىء من الشراسة :

ـ إننى أربح ما يكفى بالفعل ، من عملى هذا .

تبادل الرجلين نظرة صامتة ، ثم أجابه الأوّل :

ـ ستربح من العمل الجديد ما يزيد كثيرًا ، ولكن ..

هتف (عبد الملك) فى عصبية :

- لكن مرة أخرى ؟

أجابه الرجل فى صرامة :

- بالطبع .. إننا لسنا مؤسسة خيرية .. ستربح منا الكثير ، ولكن شرط أن تمنحنا الأكثر .. كل ما لديك ، وما ستحصل عليه من معلومات عسكرية ، ومدنية .

كانت المواجهة مباشرة أكثر مما ينبغى ، حتى إن (عبد الملك) صمت بضع لحظات فى شحوب ، ثم لم يلبث أن حسم أمر نفسه ، وسأل :

- ومتى تبدأ ؟!

كان بسؤاله هذا يمحو اسمه من سجل الشرف ، الذى احتواه أثناء حرب الاستنزاف ومعركة أكتوبر ، إلى قائمة الخونة والجواسيس ، الذين سقطوا فى هاوية الخيانة والعار ..

وفى أحد الأماكن التابعة للمخابرات الإسرائيلية ، التقى (عبد الملك) ببعض ضباط جهاز المخابرات الإسرائيلية ، الذين عقدوا معه عدة اجتماعات ، وراحوا يستمعون على لسانه إلى بعض الأسرار والمعلومات العسكرية ، الخاصة بالقوات البحرية المصرية ، والمنشآت العسكرية ، وقواعد الجيش ، وعن النظم المتبعة فى

السلاح البحرى ، وطرق التدريب ، والشفرة ، والبلاد التى تنقل إليها أثناء عمله ، وشرح لهم بعض المهام التى قامت بها البحرية المصرية ، فى حرب 1973م ، ووصف لهم بعض القطع البحرية ..

وفى نهاية الاجتماعات ، أسند إليه رجال المخابرات الإسرائيلية بعض المهام الخاصة ، وعلى رأسها جمع المعلومات عن قاعدة (شاوا) العسكرية فى مدينة (المنصورة) ، والتى تبعد عن قريته بضعة كيلومترات ..

وعاد (عبد الملك) إلى (مصر) ، للقيام بعمله الجديد القذر وتكرر سفره إلى (إسرائيل) عدة مرات ، وتعمد ألا يمكث فيها أكثر من شهرين فى كل مرة ، باستثناء مرة واحدة ، قضى خلالها فى (إسرائيل) سبعة أشهر كاملة ، وهى تلك الفترة ، التى تلقى فيها تدريبات التجسس الأساسية ..

وشعر الرجل أنه حقق طموحاته أخيرًا ، وحصل على المال الذى يسعى إليه ، دون أن يهتم كثيرًا بالثمن ، الذى دفعه للحصول على المال ..

أمن وطنه ، وسلامته ، وأسراره ..

الشىء الوحيد ، الذى لم ينتبه إليه (عبد الملك) ، ولم يدركه فى حينه ، هو أن العيون الإسرائيلية لم تكن العيون الوحيدة ، التى تعمل فى قلب (إسرائيل) ..

كانت هناك عيون أخرى ، أكثر حدة وقوة ، وبراعة ..

عيون صقورنا ..

صقور المخابرات العامة المصرية ..

فمنذ اللحظات الأولى ، التى بدأت فيها محاولة تجنيد (عبد الملك) رصدت عيون المخابرات المصرية الأمر ، وراحت تتابعه فى قلق واهتمام ، بل لن نبالغ لو قلنا إنها حاولت تحذيره ، وإثناءه عن السير فى طريق الخيانة ، بأساليب غير مباشرة ..

ولكن الرجل كان مصرًا على المُضى فى طريق الخيانة ..

ذلك الطريق الذى انتهى به فجأة وبعد ما يزيد قليلاً على عام واحد ، إلى نهاية لم يكن يتخيلها أو يتوقعها قط ..

فذات يوم ، عند عودته إلى (مصر) ، قادمًا من (إسرائيل) ، وبينما يتجه إلى مباحث أمن الدولة ، التى اعتادت استدعاءه بعد رجوعه فى كل مرة ، وإجراء بعض التحقيقات التقليدية معه ، استوقفه رجلان قويان ، وقبل أن يعترض على ما فعلاه ، أبرز أحدهما هويته ، وهو يقول فى صرامة :

- لا تحاول يا (عبد الملك) .. أنا (ص.م) .. من المخابرات العامة المصرية ..

وكما سقط (عبد الملك) فى بئر الخيانة بسرعة ، انهارت أعصابه

أيضًا بسرعة ، أمام رجال المخابرات المصرية ، حتى إنه لم يحاول إنكار الموقف ، وإنما راح يُدلى باعترافات مباشرة وصريحة ، أمام نيابة أمن الدولة العليا ، شارحًا كل ما حدث ، حتى أدق تفاصيل لقاءاته مع ضباط المخابرات الإسرائيلية ..

وبعدها انتقل محققو النيابة إلى قريته ، لتفتيش منزله ، وإجراء معاينة مباشرة ، وعمل مواجهة بينه وبين أفراد أسرته ..

وانهارت الأسرة ، فى مواجهة هذه الحقيقة الرهيبة ، وخاصة ابنتيه (دعاء) و(هند) الطالبتين فى الجامعة ، وابنه (محمد) طالب بمدرسة الصنايع ، وابنه (إسلام) فى الابتدائية ..

لا أحد منهم صدَّق أن والده جاسوس لحساب (إسرائيل) ، خاصة أنهم كانوا يعارضون بشدة سفره إليها ، على الرغم مما يرونه حولهم ، من يُسر حال .. بعض أبناء القرية العائدين من إسرائيل هربوا من القرية ، إثر انتشار قصة (عبد الملك) ، خشية أن تكون هناك أوامر أمنية بملاحقة العائدين من (إسرائيل) ..

وبقلق لا حدود له ، راح أبناء القرية يتابعون محاكمة (عبد الملك) ، وكل منهم يرتجف فى أعماقه ، ويراجع مواقفه السابقة ، ولهفته غير المحسوبة على السفر والعمل فى (إسرائيل) ..

وصدر الحكم بمعاقبة (عبد الملك) بالأشغال الشاقة ، ليدفع ثمن خيانته للوطن الذى أنجبه ، والذى منحه يومًا كل الشرف والفخر ، فداسهما بقدميه ، وأزالهما بالتجسس والعار ..

ومع سقوط الجاسوس ، استشعر الجميع ذلك الخطر ، الذى يكمن فى التكالب على جمع المال ، دون النظر إلى مصادره ، أو الدولة التى تمنحه ، والذى قد يؤدى بصاحبه فى النهاية إلى الوقوع فى بئر الخيانة ، وهاوية العار .

وهذا هو الخطر الحقيقى .. كل الخطر .

* * *

الدليل !

تلاحقت أنفاس ذلك الشاب ، الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعد ، وهو يستقل سيارة من سيارات الأجرة ، فى ميدان « رمسيس » ، ويقول لقائدها فى صوت متوتر مضطرب :

ـ مبنى المخابرات العامة .

منذ ثلاثين عامًا مضت ، كانت العبارة تفى لإصابة سائق التاكسى بذعر ما بعده ذعر ، وكأنما يطلب منه الراكب الاتجاه إلى قلعة للأشباح أو الموت ! ولكن فى تلك الفترة فى أواخر التسعينيات ، وبعد أن ذاق الشعب المصرى انتصار أكتوبر العظيم ، وأدرك ، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة ، ما فعله جهاز المخابرات العامة للحصول على كل المعلومات اللازمة للنصر ، ولخداع العدو الإسرائيلى ، الذى لم يدرك ، أو حتى يتصور ، حتى آخر لحظة ، أن المصريين سيوجهون طعنة نجلاء إلى غروره ، وأسطورة جيشه الزائف ، الذى ادعى أنه لا يهزم أبدًا !

بعد كل هذا ، كان من الطبيعى أن يتطلع سائق التاكسى إلى الشاب ، فى مزيج من الانبهار والاحترام ، وأن ينطلق على الفور ، ودون أن يلقى عليه سؤالاً واحدًا ، وكل ذرة فى كيانه تتساءل عن علاقته بذلك الجهاز ، الذى أصبح اسمه مقرونًا بالمهابة والاحترام والغموض فى آن واحد !

وأمام المبنى الشهير ، فى كوبرى القبة ، توقف سائق التاكسى ، وقال للشاب ، فى احترام شديد :

ـ المخابرات يا أستاذ .

تطلع الشاب إلى المبنى فى توتر قلق ، استغرق بضع لحظات ، على نحو أثار حيرة السائق ودهشته ، على الرغم من أنه لم يحاول تكرار عبارته ، مكتفيًا بالتطلع إلى بوابة المبنى ، التى خرج منها أحد أفراد طاقم الحراسة ، واتجه نحوهما ، فى خطوات واثقة ثابتة ، وعلى نحو جعل الشاب ينتفض انتفاضة خفيفة ، ثم يغادر السيارة ، ويقف فى مكانه يراقب رجل الأمن ، الذى اتجه نحوه مباشرة ، بعد أن انصرفت السيارة ، وسأله فى لهجة هادئة مهذبة ، ولا تخلو من الحزم :

ـ هل من خدمة ؟!

ازدرد الشاب لعابه فى صعوبة ، قبل أن يندفع قائلاً فى شىء من العصبية :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

ـ سأله الرجل فى اهتمام :

ـ بشأن ماذا ؟

ازدرد الشاب لعابه مرة أخرى ، فى صعوبة أكثر ، وهو يجيب :

ـ أريد الإبلاغ عن .. عن ..

لم يستطع إكمال عبارته ، إلا أن رجل الأمن المدرب فهم الموقف كله ، فدعاه إلى الدخول ، وهو يمنحه ابتسامة هادئة ، قائلاً :

ـ تفضل بالانتظار قليلاً ، حتى أبلغ المسئولين .

ولم يصدق الشاب نفسه ، وهو يعبر بوابة مبنى المخابرات العامة ، لينتظر فى حجرة الاستقبال الصغيرة المجاورة للبوابة ، حتى يتم الاتصال بأحد المسئولين ..

ولم يصدق نفسه أكثر ، عندما وجد نفسه يجلس أمام أحدهم ، داخل مكتب أنيق هادئ قبل أن تمر ربع ساعة على وصوله إلى المبنى ، فحدَّق فى الجالس بانبهار ، قبل أن يمنحه رجل المخابرات ابتسامة ودودة ، قائلاً :

ـ تفضل يا أستاذ (وجدى) .. أخبرونى أنك تريد الإبلاغ عن شىء ما .

ـ الواقع أن كل ما لدىّ مجرد شكوك ..

اعتدل رجل المخابرات ، وهو يحدثه فى هدوء واهتمام :

ـ هات ما لديك .

التقط (وجدى) نفسًا عميقًا، فى محاولة للسيطرة على أعصابه، قبل أن يقول فى توتر شديد، ودموع عجيبة تترقرق فى عينيه:

- إننى أشك فى أن صديق عمرى جا .. جاسوس.

نطق الكلمة الأخيرة بلسان يتمزق ألمًا ومرارة، وبصوت رجل يكافح دموعه فى صعوبة، فصمت رجل المخابرات تمامًا، ليفسح له فرصة إفراغ كل مشاعره وعواطفه، قبل أن يندفع الشاب فجأة مكملاً:

- (عصام) هو صديق عمرى، منذ كنا طفلين فى المرحلة الابتدائية، ولكنه تغير تمامًا بعد سفره إلى (إيطاليا)، و ... و ...

أجهش فجأة بالبكاء، على نحو منعه من إتمام عبارته، فواصل رجل المخابرات صمته بعض الوقت ثم لم يلبث أن اعتدل فى مجلسه، وضغط زرًا أمامه، قائلاً:

- كوب ليمون بارد بسرعة.

مضت عشر دقائق أخرى، قبل أن يتناول (وجدى) كوب الليمون، ويتمالك جأشه، ويستعيد تماسكه .. وانتظر رجل المخابرات طوال هذه الفترة فى صبر، قبل أن يميل نحوه، قائلاً

فى حزم:

- والآن قص على الأمر كله، بكل التفاصيل، حتى التى تبدو لك تافهة أو بسيطة.

أومأ (وجدى) برأسه موافقًا، ثم اعتدل فى مجلسه، والتقط نفسًا عميقًا مرة أخرى .. و ...

وبدأ يروى ..

* * *

(عصام) .. شاب من أسرة مصرية متوسطة، وُلِدَ ونشأ فى مدينة (الإسكندرية) الساحلية، واستنشق عبير البحر، منذ وعت عيناه الدنيا، وعلى الرغم من أن والده، المحاسب فى واحدة من شركات الشحن البحرى، كان رجلاً متدينًا ملتزمًا، كما كانت أمه سيدة منزل طيبة القلب، يشهد لها الجميع بالأدب وحسن الجوار، فإن (عصام) نشأ كفرع فاسد فى شجرة طيبة فكان كثير الشجار مع شقيقاته ووالديه، مشاغبًا فى الحى الذى يسكنه، عنيفًا حتى مع أقرانه وأساتذته ..

ولقد حاول والداه إصلاحه وتقويمه عشرات المرات، ودعا كلٌّ منهما الله فى صلاته أن يهديه سواء السبيل، إلا أن (عصام) ظل مارقًا، عنيدًا، غاضبًا دومًا بلا سبب، متعثرًا فى دراسته،

حتى إنه حصل على شهادته الابتدائية بالكاد .. ولكنه لم ينجح فى تكرار هذه المصادفة فى المرحلة الإعدادية ! فرسب فى شهادته مرتين ، قبل أن يتمرد على الفشل بأسلوب سلبى كالمعتاد ، فيقرر ترك الدراسة ، فى تلك المرحلة المبكرة ، ثم يتجه إلى منطقة الجمارك ، بحثًا عن أى عمل هناك ..

وعلى الرغم من كل ما سمعه ، عن الدخل الجيد للعاملين فى الجمارك ، عانى (عصام) طويلاً من كثرة العمل ، وقلة الموارد معًا مما أورثه شعورًا بالغضب والثورة ، ورغبة عارمة فى الحصول على المال ، بأية وسيلة كانت ليثبت لنفسه قبل أسرته أنه لم يفشل فى حياته ، عندما اتخذ قرار العمل وترك الدراسة مبكرًا ..

وفى السابعة عشر من عمره ، ألقى القبض عليه ، مع ثلاثة آخرين ، بتهمة سرقة وتهريب بعض البضائع البسيطة ، من المنطقة الجمركية بالمنشية ..

وعوقب الثلاثة الآخرون بالحبس لمدة عام إلا أن (عصام) نجا من العقوبة باعتباره لم يبلغ السن القانونية بعد ، وقضى العام فى إصلاحية للأحداث ، وتم الإفراج عنه بعدها ، ليعود إلى منزل أسرته منكسرًا ذليلاً ..

ولكن طبيعته المتمردة الغاضبة دومًا ، والبعيدة عن العقل والمنطق أبدًا ، رفضت هذا الوضع بسرعة .. فخرج بحثًا عن وسيلة أخرى ، تثبت تفوقه ونجاحه ..

وبعد عام من التخطيط لاحت أمامه الفرصة .. وكانت فرصة غير شريفة كالمعتاد ..

فقد عرض عليه أحد بلطجية المنطقة فرصة للسفر إلى (إيطاليا) بتأشيرة مزورة مضمونة مقابل ألف جنيه ..

وقبل (عصام) العرض بلا تردد ، على الرغم من وجود عقبة ضخمة فى طريقه .. الألف جنيه !

ولكن متى كانت تلك عقبة أمام شخص لا يقيم وزنًا للمبادئ والأخلاقيات والقيم ؟!

فدون وازع من ضمير ، سرق (عصام) مصاغ والدته القليل وسلمه للبلطجى ، الذى منحه تلك التأشيرة المزورة ، وأرسله مع مجموعة من أصحاب التأشيرات المماثلة فى فوج غير رسمى إلى (إيطاليا) ..

وكانت أول عملية يفلت بها (عصام) !

فعلى الرغم من أن كل من سافروا فى تلك الفترة ، قد وقعوا

فى يد السلطات الإيطالية التى أثبتت زيف تأشيراتهم ، وأعادتهم إلى (مصر) فإن (عصام) قد أفلت من هذا ، ووجد نفسه بالفعل داخل (إيطاليا) ..

وانقطعت أخباره تمامًا عن كل من يعرفه فى مصر ..

وعلى الرغم مما فعله بأمه ، فقد سالت دموعها أنهارًا ، لهفة وشوقًا إليه ، فى حين راح والده يدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل صلاة ، أن يعيد إليه ابنه سالمًا ..

وبعد عام تقريبًا ، بدأت أخبار (عصام) تتسلل إلى (الإسكندرية) من خلال بعض العائدين من إيطاليا ، ومن عاصمتها (روما) بالتحديد ..

بل لقد تحولت أخباره إلى طبق رئيسى ، على مائدة كل عائد من (إيطاليا) !

الجميع تحدث عن زواجه من إيطاليَّة حسناء ، وعمله فى مصنع شهير للسيارات ، بعد حصوله على تأشيرة إقامة صحيحة ، واهتمامه بكل مصرى يصل إلى (روما) .. وكرمه وسخائه .. و ...

وارتاح والداه لتلك الأخبار ، وإن لم تخفف لهفتهما لعودته ورؤيته ، والاطمئنان عليه شخصيًا ..

عاد عصام !

عاد بعد خمس سنوات كاملة ، حاملاً جواز سفر إيطاليًا ، وطفلتين جميلتين وزوجة إيطالية صامتة ، قلما تتخلى عن ابتسامتها ، وتتحدث ولو بكلمات قليلة ..

ولقد حمل (عصام) مع عودته أيضًا حقيبة كبيرة من الهدايا ، لوالده وأمه وشقيقاته ، وخص الأم بكمية من الحُلِىّ والمجوهرات ، تفوق ما سرقه عشر مرات على الأقل .

وكعادة الشعب المصرى غسلت عودته كل ما فعله قبل سفره ، واستقبله الجميع بالقبلات والدموع واللهفة ..

وخلال تلك السنوات الخمس ، كان (وجدى) صديق عمر (عصام) ، قد التحق بالقوات البحرية ، وأصبح رقيبًا على واحدة من مدمراتها ، واشتهر بالجدة والصرامة ، وحسن السير والسلوك ..

وعندما عاد (عصام) التقى الصديقان بكل اللهفة والفرح والسعادة ، وراحا يتبادلان الحديث لثلاث ساعات كاملة بلا انقطاع ، حول ما حدث خلال السنوات الخمس الأخيرة ، ولقد بدا (عصام) فرحًا أكثر من اللازم ، عندما علم بوظيفة صديقه ، وراح يلقى عليه عشرات الأسئلة ، حول طبيعة عمله ، وموقعه ، وسماته .. ولكن (وجدى) تحفظ فى الجواب ، كما تَعَلَّم فى صفوف القوات

البحرية ، وإن لم يحرم صديقه من بعض الإجابات البسيطة التى لا تشبع ولا تغنى من جوع ..

وسافر (عصام) بعد ثلاثة أسابيع ، عائدًا بزوجته وطفلتيه إلى (إيطاليا) ، بعد أن أصر على الحصول على عنوان (وجدى) ، وأرقام هواتفه ، مؤكدًا أنه سيظل على اتصال دائم به ..

وكانت هذه هى البداية ..

فلقد بدأ (عصام) يزور (مصر) وحده مرة كل شهرين ، وفى كل زيارة كان يغمر صديقه (وجدى) بالهدايا ، ويقضى معه وقتًا طويلاً ، كان الحديث يدور فيه ، فى أغلبه ، حول القوات البحرية ، وتطورها ، وتسليحها ..

ويومًا فيومًا ، ومرة فمرة ، شعر (وجدى) بالقلق من أسئلة صديقه ، خاصة أنه قد بدا له خبيرًا ببعض الأمور ، التى يندر أن يلم بها مدنى ، لا علاقة له بالقوات البحرية ..

ولقد قضى (وجدى) ثلاثة أيام كاملة ، وهو يتقلب فى فراشه ، عاجزًا عن النوم ، وهو يفكر فى قرار خطير للغاية ، ثم لم يلبث أن حزم أمره ، وحصل على إجازة وسافر إلى القاهرة ، ليبلغ المسئولين فى المخابرات العامة بشكوكه ..

ولقد استمع إليه رجال المخابرات فى هدوء وصمت تامين ودون

أن يقاطعه بحرف واحد ، حتى يترك له فرصة الاستطراد ، إلى أن انتهى من روايته ، فاعتدل رجل المخابرات فى مقعده وقال :

ـ كان أمرًا جيدًا وقرارًا صائبًا ، أن تأتى لتبلغنا بما لديك من شكوك يا (وجدى) .. والآن اترك لنا الأمر كله ، سنعاود الاتصال بك قريبًا بإذن الله ..

سأله (وجدى) فى لهفة :

ـ أريد أن أعرف .. هل (عصام) جاسوس أو لا ؟

ابتسم رجل المخابرات ابتسامة غامضة ، وهو يجيب :

ـ ستعرف يا سيد (وجدى) .. ستعرف فى الوقت المناسب بإذن الله !

ولم يكد (وجدى) ينصرف ـ بعد تأكيدات بعدم الحديث عما حدث مع أى مخلوق ، أيًا كانت هويته ـ حتى طلب رجل المخابرات ملفًا خاصًا ، وصل إلى مكتبه فى صندوق مغلق ، ووقع بتسلمه ، قبل أن يفتحه ، ويطالع ما به ..

فمنذ فترة ليست بالقليلة ، وقبيل عامين من تلك الواقعة ، كان نشاط (عصام) قد جذب انتباه المراقبين ، من رجال المخابرات العامة ، خاصة مع اهتمامه الزائد بكل المصريين الذين يصلون

إلى (روما) ،وإصراره على الارتباط بهم ، وربطهم بكرمه وسخائه الزائدين ..

ومن خلال رجال المخابرات المصرية فى أنحاء (إيطاليا) ، بدأت عملية جمع معلومات كبرى ، عن (عصام) وبداياته فى (إيطاليا) ..

وأول ما ضاعف الشكوك حوله ، هو نجاحه فى دخول (إيطاليا) بتأشيرة مزورة ، انكشفت مثيلاتها بسهولة ، فى الفترة الزمنية نفسها ..

وبالنسبة لرجال المخابرات ، كان هذا يوحى بأن بعضهم كانت له مصلحة خاصة ، فى أن يدخل شاب فاسد مثل (عصام) إلى (إيطاليا) ..

ولم يكن من الصعب استنتاج طبيعة هؤلاء (البعض) !

وطوال العامين كان (عصام) يخضع لمراقبة دقيقة متواصلة ، من قبل جهاز المخابرات العامة المصرية ، لتحديد هويته ، وأسلوب عمله ، والجهة التى يعمل لحسابها بالضبط .. ومع الوقت ، انكشفت لعبة (عصام) ..

لقد كان يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، التى عهدت إليه بمهمة انتقاء العناصر الصالحة للتجنيد ، من بين الشباب المصرى ،

الذى يصل إلى (إيطاليا) ، دون ترتيب وتخطيط مسبق ، بحثًا عن الثراء السريع بأى ثمن ..

باختصار .. كان (عصام) يلعب دورًا يطلق عليه (Spotter) ، وهو دور حيوى بالنسبة لأى جهاز مخابرات ، لأنه يعتمد على شخص من جنسية المراد تجنيدهم ، بحيث يكتسب ثقتهم وودهم فى سرعة ، خاصة أنهم يصلون إلى (أوروبا) والخوف يملأ نفوسهم ، من الفشل والضياع ..

والعجيب أنه فى نفس الوقت ، الذى جاء فيه (وجدى) للإبلاغ عن صديق عمره ، كانت المخابرات العامة تسعى لإيجاد دليل إدانة يكفى لإثبات تهمة الخيانة على (عصام) ، بحيث يمكن إلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ..

والدليل فى قضايا الجاسوسية أكثر خطورة منه فى القضايا الجنائية ، لأنك فى قضايا التجسس لا توجه اتهامك إلى أفراد فحسب ، ولكن إلى الدولة التى خلفهم أيضًا ..

وهذا أمر بالغ الحساسية والخطورة ، فى كل الأزمنة ..

وهذا يعنى أن (وجدى) قد جاء فى موعده تمامًا !

وبمنتهى السرعة والنشاط راح رجال المخابرات العامة يجرون تحرياتهم ، حول (وجدى) نفسه ، بالتعاون مع المخابرات الحربية ،

حتى ثبت إخلاصه ، وحسن سيره وسلوكه وانتمائه الحقيقى للوطن الذى أنجبه ، وعلمه وأنشأه ..

ثم تم الاتصال به مرة أخرى ، ولكن لهدف مختلف هذه المرة .

وبعد أسبوعين من هذا الاتصال الأخير ، وصل (عصام) إلى (الإسكندرية) فى زيارته المعتادة ، وهرع من فوره إلى صديقه (وجدى) ، الذى استقبله بشىء من التحفظ هذه المرة .. وإن لم يمانع فى قضاء سهرته معه كالمعتاد ..

وفى تلك السهرة ، جاءت أسئلة (عصام) مباشرة ، حول الأسلحة الروسية التى فى حوزة القوات البحرية ، وتسليمها ، والتطويرات التى أجريت عليها ..

ولقد بدا وكأن (وجدى) مستعد للإجابة على الأسئلة بكل ما يعرفه من تفاصيل ، ولكنه أبدى تمنعه ، وقال إن معلومات كهذه تساوى ثروة ..

ولأن صداقتهما طويلة للغاية ، ولأنه من العسير على الغصن الفاسد ، أن يدرك وجود أغصان طيبة ، فى الشجرة ذاتها . فقد بدأ (عصام) يساوم صديق عمره على تلك المعلومات العسكرية ويحاول إغراءه بالمال ، وبفرصة عمل مثالية فى (إيطاليا) ، فور قبول استقالته من القوات البحرية .. و ... و ...

ولم يعترض (وجدى) على المبدأ ، ولكنه بدأ يساوم فى المقابل ، وأبدى استعداده لمد عصام بمزيد من المعلومات ، لو أن المقابل سيكون مجزيًا فى كل مرة ..

وهنا .. وقع (عصام) فى أكبر خطأ ، يمكن أن يقع فيه جاسوس !

لقد بدأ محاولة تجنيد (وجدى) ، دون الرجوع إلى رؤسائه ، أو إلى ضابط الحالة المسئول عن تصرفاته وخطواته التالية ..

وعلى الرغم من أنه يعرف ويتوقع كل شىء ، فقد أصيب (وجدى) بالهلع ، عندما صارحه صديقه بأنه يعمل لحساب جهة أجنبية ، دون التصريح بهويتها .. ثم طلب منه إمداده بالمعلومات ، حول التسليح والتطوير فى القوات البحرية المصرية مقابل راتب كبير ، ومكافأة على كل معلومة جيدة ..

ولم يدرك (عصام) ، أو يتصور لحظة واحدة ، أن كل كلمة نطق بها قد تم تسجيلها ، بإذن ومعرفة النيابة العامة ، وأن رجال المخابرات العامة كانوا يستمعون إلى حديثه كله ، حتى بدأ يصارح (وجدى) بعملية التجنيد ..

عندئذٍ أدركوا أنهم قد حصلوا على الدليل المطلوب ..

وانتقلوا إلى الخطوة التالية مباشرة ..

ولقد كان وقع الصدمة صاعقًا على (عصام) عندما واجهه وكيل نيابة أمن الدولة ، مع رجال المخابرات العامة ، بالتهمة المنسوبة إليه ، مع دليل إدانته ، الذى لا يقبل الشك ..

ولقد حاول (عصام) الفرار من التهمة ، محتميًا بالجنسية الإيطالية ، إلا أن وكيل النيابة أخبره أنه مازال يحتفظ بالجنسية المصرية ، مما يجعله أمام تهمة خيانة صريحة لا تقبل الجدل ..

وهنا انهار (عصام) تمامًا ، وأدلى باعتراف تفصيلى ، وقع عليه دون ضغط أو إكراه ..

وفى أثناء المحاكمة ، أدلى (وجدى) بشهادته الرئيسية ، ضد (عصام) .. صديق عمره ، الذى خان الوطن ، وتعاون مع العدو ، ونال فى النهاية حكمًا بالسجن خمسة عشر عامًا ، مع الأشغال الشاقة ..
أما (وجدى) ، فقد غادر مبنى محكمة أمن الدولة العليا ، بعد سماع الحكم ، ودموعه تغرق وجهه ، على مصير صديق عمره ..

ولكن كان واثقًا فى الوقت نفسه ، بأنه قد أدى واجبه ، الذى يحتمه عليه ضميره ، وتحتمه عليه وظيفته ، وأنه قد قدم دليلاً جديدًا وقويًا على الحب ..

حب (مصر) ..

* * *

الذئب

مالت الشمس إلى المغيب ، فى ذلك اليوم ، الثانى والعشرين من فبراير عام 1965م ، واحتضرت أشعتها الأخيرة فوق ذلك المبنى المهيب ، فى حى (حدائق القبة) ، وتسللت كخيوط من ذهب عبر إحدى حجراته الواسعة ، التى ضمت نخبة من أفضل وأبرع رجال المخابرات العامة المصرية ، فى ذلك الحين ، والذين يجتمعون منذ أكثر من خمس ساعات متصلة ، تحت قيادة واحد من عمالقة الرعيل الأول لجهاز المخابرات المصرى (ع .خ) ، لمناقشة واحدة من أخطر القضايا ، التى حظت باهتمام ورعاية كبار مسئولى الدولة ، فى تلك الفترة من تاريخ (مصر) ..

قضية صناعة الصواريخ المصرية بعيدة المدى ..

تلك الصناعة التى ألهبت حماس الرجال فى (مصر) ، وأشعلت نيران القلق والحقد والحنق فى نفوس دول العالم ، التى اعتادت متابعة تطورنا بعين السخط والغضب .

وعلى رأسها (إسرائيل) ..

فمنذ أواخر الخمسينيات ، وبعد عام واحد من العدوان الثلاثى بالتحديد ، اتخذت القيادة السياسية والعسكرية قرارًا برفع كفاءة التصنيع الحربى ، ودفعه نحو سباق التسلح ، الذى بلغ ذروته فى ذلك الحين ، وخصوصًا بين الدولتين العظميين ..

ومن منطلق هذه السياسة ، تقرر البدء فى العمل على إنتاج وتصنيع محركات المقاتلات النفاثة ، والصواريخ بعيدة المدى ، ذات الرءوس التدميرية شديدة المفعول ..

ولأن الألمان هم الأب الشرعى لصناعة الصواريخ ، منذ ابتكارهم للصاروخين (ف 1) و(ف 2) ، إبان الحرب العالمية الثانية ، واللذين كبدا (بريطانيا) خسائر فادحة فى أيام معدودات ، كادت تقلب نتائج الحرب آنذاك رأسًا على عقب ، فقد استقدمت (مصر) عددًا متن أفضل العلماء والخبراء الألمان فى هذا المجال فى نهاية عام 1957م ، على نحو محاط بالسرية التامة ، وكان بينهم (بيلز) ، الساعد الأيمن للبروفيسير (براون) ، أبى الصواريخ ..

ومع وصول العلماء الألمان ، بدأت حركة نشطة فى البحث العلمى ، تستهدف سرعة صنع الصواريخ بعيدة المدى ، وتطويرها بحيث يمكنها الوصول إلى مسافات بعيدة ، حاملة تلك الرءوس شديدة التدمير ..

وطوال السنوات الثلاث التالية تقريبًا مضى العمل على قدم وساق تحت غطاء من السرية المطلقة ، حتى حانت اللحظة التى لابد منها ..

لحظة الإعلان عما يجرى تحت السطح ..

ففى 21 يوليو عام 1962م ، وفى حضور الرئيس (جمال عبد الناصر) ، والمشير (عبد الحكيم عامر) ، وعدد من رجال مجلس قيادة الثورة السابق ، ومعاونى الرئيس ، وقادة القوات المسلحة ، وأمام حشد من العلماء والصحفيين العرب والأجانب ، انطلقت أربعة صواريخ وراء بعضها ، معلنة مولد الجيل الأول من الصواريخ بعيدة المدى ، من طرازى (القاهرة) و(الظافر) ..

ومن هنا كانت البداية ، فقد جن جنون (إسرائيل) ، واشتعل قلبها بالذعر ، واجتمع قادتها فى هلع لدراسة الأمر ، وبحث سبل مواجهته وتدميره ، ووأده فى مهده ..

وفى ذلك الاجتماع خرجت خطة مجنونة ، لشن غارة جوية على القاعدة ، التى أطلقت منها الصواريخ الأربعة ، ثم لم تلبث تلك الخطة أن طرحت خلف الظهور ، لاستحالة تنفيذها عمليًّا ، والخوف من أن تؤدى تلك الغارة إلى أن تستخدم (مصر) تلك الصواريخ البعيدة المدى ، فى ضرب قلب إسرائيل ، لو أنها تمتلك المزيد منها فى قاعدة أخرى ..

لذا فقد بدأت مناقشة الأمر من الاتجاه الآخر ، الذى تميل إليه (إسرائيل) منذ قيامها ..

الضرب تحت الحزام .

وهكذا تم تسليم العملية برمتها للمخابرات الإسرائيلية ، التى قررت بدورها إسنادها إلى واحد من أخطر رجالها فى تلك الفترة ..

(يوهان فولفجانج سيجوند لتوتز) ..

ولقد ولد (لوتز) هذا فى (مانهايم) بألمانيا عام 1921م ، وكانت أمه ممثلة يهودية ، أما أبوه فمدير مسرح مسيحى فى (برلين) ، ولقد انفصل أبواه بالطلاق ، وغادرت الأم وابنها (ألمانيا) إلى (فلسطين) ، بعد تولى (هتلر) السلطة ، وظهور ميوله العدوانية تجاه اليهود ..

وفى (فلسطين) ، غير (فولفجانج لوتز) اسمه إلى (زئيف جور أريه) ، ودرس الزراعة فى مدرسة (بن شايمن) ، فى شرق (تل أبيب) ، والظريف أن اسمه العبرى (زئيف) كان مرادفًا لاسمه الألمانى (فولفجانج) ، وكلاهما يعنى (الذئب) ..

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قاتل (لوتز) لصالح الإنجليز ، خلف خطوط الألمان ، فى شمال (أفريقيا) ، ثم لم يلبث أن انضم إلى العصابات الصهيونية ، فى عام 1948م ، وحتى إعلان قيام دولة (إسرائيل) ..

وعندما استقر به الحال هناك ، ونظرًا لتاريخه السابق جندته المخابرات الإسرائيلية ، وأسندت إليه مهمة خاصة .. هى أن يعود

إلى (ألمانيا) ؛ ويتظاهر بأنه لم يغادرها قط ، وبأنه متعاطف مع النازية ، ويتنازل تمامًا عن يهوديته ، مستعيدًا اسمه الألمانى (فولفجانج لوتز) ..

وهكذا انمحى (زئيف جوراريه) من الوجود .

وعاد (لوتز) إلى (ألمانيا) ، حيث راح يبنى ساتره الرئيسى ، وينتحل شخصيته الجديدة كرجل أعمال ألمانى ، خدم فى جيش (هتلر) ..

وفى ديسمبر 1960م ، تم إرسال (لوتز) إلى (مصر) ، مع رأس مال لا بأس به ، لإقامة مزرعة لتربية الخيول وتدريبها ، والاختلاط بالمجتمع المصرى ، وخصوصًا مجتمع ضباط الجيش والشخصيات المهمة ، التى يناسبها هذا العالم تمامًا .. وفى نشاط جم ، راح (لوتز) يقيم الحفلات الأنيقة ، ويستقطب العشرات من أبناء المجتمع ، مستعينًا بشخصيته المتألقة ، وإجادته المدهشة لأساليب المجاملة وكرم الضيافة ، والسخاء ..

وبنفس النشاط ، كان يستخدم ، بعد منتصف الليل ، جهاز إرسال صغير لإرسال تقاريره المفصلة إلى (تل أبيب) ..

وعلى الرغم من ذكائه الفذ ، ومهاراته الحِرَفيّة العالية ، إلا أن (لوتز) أقدم ذات مرة على حماقة ، كادت تصيب ضباط المتابعة

الإسرائيليين بالجنون فى حينها ، فأثناء إحدى رحلاته إلى (أوروبا) فى يونيو 1962م ، لتسليم أحد التقارير لضابط الحالة الخاص به ، وفى قطار ليلى متجه إلى (باريس) ، انجذب العميل المدرب إلى فاتنة شقراء ، زرقاء العينين ، تدعى (فالتراود مارتا كلارا أنويمان) ، ولم يمض أسبوعان - ودون أن يستشير حتى رؤساءه - حتى كان (لوتز) قد تزوج (فالتراود) وعاد بها إلى (القاهرة) بكل بساطة ..

ولكن غضب الإسرائيليين لم يلبث أن هدأ ، عندما عرفت (فالتراود) العمل الحقيقى لزوجها ، وقررت أن تعاونه فيه ..

هكذا بنفس البساطة ..

وفى تلك الفترة اشتعلت حرب الصواريخ ، وقرر الإسرائيليون إسنادها لعميلهم (لوتز) ، من خلال هدف واحد ..

بث الرعب فى قلوب العلماء الألمان ، المشرفين على صناعة الصواريخ المصرية ، ودفعهم إلى التخلى عن المشروع ، والعودة إلى بلادهم ، أو حتى قتلهم ، لو اقتضى الأمر ..

المهم أن يتوقف مشروع إنتاج الصواريخ المصرية بعيدة المدى .. وبأى ثمن ..

وبنفس نشاطه الجم ، راح (لوتز) يوسع من دائرة اتصالاته ،

ويمدها لتشمل عددًا من الألمان العاملين فى (مصر) ومن خلالهم ، نجح فى الحصول على عناوين خبراء الصواريخ الألمان .

وبدأت المرحلة الأولى من الخطة ..

فى البداية ، تلقى الخبراء الألمان خطابات مجهولة ، تحذرهم من المضى فى مشروع الصواريخ ، وتحضهم على هجره ، من أجل أمنهم الشخصى ..

ثم لم تعد الخطابات تحوى النصائح والتحذيرات فقط ..

لقد أصبحت تحوى ما هو أخطر ..

القنابل ..

ففى الثامن والعشرين من نوفمبر 1962م ، وصلت عدة خطابات لعالم الصواريخ (فولفجانج بيلز) ، وكإجراء روتينى ، رتبت سكرتيرته (هانيلور ويندى) الخطابات ، وبدأت فى فتحها ، و ...

ودوى الانفجار ..

لم تكن شحنة المتفجرات كافية لقتلها ، إلا أنها انطلقت فى وجهها الجميل ، ورقبتها ، وصدرها ، ويديها ، وحتى فخذيها ، لتشوهها تمامًا ..

وقبل أن يبرد هذا الأمر ، وفى يناير 1963م ، وصل طرد عادى إلى أحد المصانع الحربية المصرية ، يحوى أربعة (كتالوجات) ألمانية ضخمة ، وحضرت اللجنة الفنية لفحصه ، كما تقتضى التعليمات ، ولم يكد أحد أعضائها يلتقط أحد (الكتالوجات) حتى دوى انفجار قوى وتحوّل المكان فى لحظات إلى شظايا وأشلاء ، واكتظ بالقتلى والجرحى والمصابين ..

وفى نفس الوقت تقريبًا ، جرت محاولة لاغتيال الدكتور (هانز كلاينن فختر) أحد العلماء الألمان العاملين فى مشروع الصواريخ المصرية ، فى مدينة (لوراخ) الألمانية ..

وباءت المحاولة بالفشل ..

وعلى الرغم من أن الرجل قد تلقى خطابات تهديد عنيفة ، بعد فشل محاولة اغتياله ، إلا أنه حزم حقائبه ، وعاد إلى (القاهرة) ليكمل العمل فى مشروع الصواريخ ..

ولأن تلك المحاولات لم تؤت ثمارها ، والمشروع لم يتوقف ، بل أصبح المصريون أكثر خبرة بموضوع الطرود والرسائل المتفجرة ، ونجحوا فى إبطال مفعولها كلها ، بعد حادث خطاب (بيلز) وطرد المصنع الحربى ، لجأ الإسرائيليون إلى محاولة أكثر جرأة ، فقد التقى الإسرائيلى (جوزيف بن جال) شخصيًا

بابنى العالم الألمانى (بول جيركه) فى مدينة (بال) السويسرية ، وهددهما صراحة بقتل والدهما والقضاء عليه ، إذا لم ينسحب فورًا من مشروع إنتاج الصواريخ المصرية .. ومما لا شك فيه أن المفاجأة هوت على (بن جال) كالصاعقة ، عندما فوجئ برجال البوليس السرى السويسرى يلقون القبض عليه ، ويتهمونه مباشرة بتجاوز القانون ، وتهديد الأبرياء ..

ثم جاءت ضربة جديدة غير متوقعة ، من الرئيس (جمال عبد الناصر) شخصيًا ، ترنح لها الإسرائيليون ، وفقدوا معها الكثير من توازنهم وثقتهم بأنفسهم ..

ففى حديثه إلى (هشام أبو ظهر) رئيس تحرير جريدة (المحرر) اللبنانية ، وفى صدر أول أعدادها ، فى أول أبريل 1963م ، أعلن الرئيس (جمال) أن (إسرائيل) تشن علينا حربًا قذرة ، عن طريق الطرود والرسائل المتفجرة ، لمنعنا من استكمال مشروع الصواريخ ..

وهكذا انتقلت الحرب إلى العلانية ..

وأسقط فى يد الإسرائيليين ..

فمنذ بداية اللعبة ، انطلقوا عبر قنواتهم السرية ، التى يميلون إليها ، ويشعرون بالارتياح أكثر من خلالها ..

والآن أربكتهم العلانية ، التى دفعهم إليها الرئيس المصرى دفعًا ، ليجبرهم على خوض الحرب بالأسلوب الذى نفضله نحن ..

واستغرقت (إسرائيل) وقتًا طويلاً ، قبل أن تفيق من ترنحها ، وتعلن حربها ، ففى الحادى والعشرين من مارس 1964م ، طالبت (إسرائيل) (ألمانيا الغربية) رسميًا بوقف نشاط العلماء الألمان فى (مصر) ، ولكن (ألمانيا) أعلنت ، فى اليوم التالى مباشرة ، أن دستورها ، والنظم الحرة فيها ، تمنعها من الحجر على حرية أبنائها ، فى العمل فى أى مكان يرونه ، وفى أى مجال ، وأية دولة ..

وفى ذلك الوقت ، كان نشاط (لوتز) قد بلغ ذروته ..

وكانت المخابرات الإسرائيلية تبذل قصارى جهدها ، للاستفادة من وجوده واتصالاته فى (القاهرة) ، إلى أقصى حد ..

خاصة فى عملية العلماء الألمان ..

وسهر الإسرائيليون الليالى ، لوضع خطة جديدة للتخلص من العلماء الألمان ، وتدمير مشروع الصواريخ المصرى بالاستعانة بنجاح وتألق أقوى جواسيسهم فى (مصر) (يوهان فلونجانج سيجوند لوتز) ..

ولكن كل الخطة التى وضعها الإسرائيليون ، كانت تفتقر إلى معلومة واحدة غاية فى الأهمية ..

إن المصريين ليسوا نائمين ..

وأن جهاز مخابراتهم واعٍ يقظ ..

وإلى أقصى حد ..

فمع اتصالات (لوتز) العديدة ، ونشاطاته المكثفة ، وعلاقاته مع عدد من كبار نجوم المجتمع وضباط الجيش ، كان من الطبيعى أن يلفت انتباه رجال المخابرات العامة المصرية ، الذين وضعوه تحت منظارهم ، ودرسوه بعناية ، ولاحقوه أثناء رحلاته إلى (أوروبا) ، وشاهدوا لقاءاته مع ضابط الحالة الإسرائيلى ، بل وصوروا بعضها ، وسجلوه بالصوت والصورة ..

وكل هذا لم ينتبه إليه (لوتز) ..

ولا كل طاقم الإسرائيليين ، الذين يشرفون على عمله ..

وفى الوقت الذى انطلق فيه (لوتز) بسيارته الفولكس ، عائدًا إلى فيلته فى الهرم ، بعد رحلة قضاها مع زوجته (فالتراود) فى (مرسى مطروح) كان رجل المخابرات (ع .خ) يتخذ قراره بإنهاء العملية على الفور ..

وعاد (لوتز) إلى منزله ، فى مساء 22 فبراير 1965م ، والانتعاش يملأ نفسه ، مع استعداد تام لبدء مرحلة جديدة من العملية ، ولكن جرس الباب انطلق ، بعد قليل من عودتهما ، وعندما فتح

(لوتز) الباب بنفسه ، فوجئ بعدد من رجال المخابرات العامة المصرية ، ونيابة أمن الدولة العليا ، وعرفه رئيس نيابة أمن الدولة بنفسه ، ثم أخبره أنه هناك أمرًا بإلقاء القبض عليه وتفتيش فيلته ، وأنهم انتظروا عودته لتفتيش الفيلا فى وجوده ..

وعلى الرغم من المفاجأة ومن الانهيار الذى أصاب زوجته ، ظلَّ (لوتز) متماسكًا ، متمالكًا نفسه إلى حد كبير ، حتى وصل التفتيش إلى حجرة نومه ، والتقط أحد رجال المخابرات ميزانًا صغيرًا من دولاب (لوتز) ، وطلب منه فتح غطائه ، وفك أجزائه الداخلية .

هنا فقط أدرك (لوتز) أنه وقع لا محالة ، ففى تجويف الميزان ، كان يستقر جهازا لاسلكى صغيران ، يستخدمهما لإرسال تقاريره إلى رؤسائه فى (تل أبيب) ..

وفى استسلام تام ، مشوب بالمرارة والألم ، مد (لوتز) يده يصافح رئيس نيابة أمن الدولة العليا ، وهو يقول بالعربية ، التى صار على دراية ببعض كلماتها :

ـ أهنئكم .. من الواضح أنكم تعرفون كل شىء .

ثم اتجه إلى مخبأ آخر فى الدولاب ، وأخرج عبوة متفجرات ، وهو يتابع فى مرارة :

ـ دعونا لا نضيع الوقت إذن .

وبعدها انطلق يدلى باعترافات تفصيلية كاملة ودقيقة ، وكأنما يعلن الانتصار التام للمصريين ..

والطريف أن الإسرائيليين لم يعلموا بسقوط نجمهم إلا بعد اثنى عشر يومًا من سقوطه ، وبالتحديد فى الخامس من مارس ، عندما عقد متحدث رسمى مصرى مؤتمرًا صحفيًا ، أذاع فيه خبر إلقاء القبض على (لوتز) ، مدعمًا قوله بالوثائق والصور والبيانات ..

وكانت فضيحة عالمية ..

فضيحة تناقلتها وكالات الأنباء طوال محاكمة الجاسوس ، من 29 يونيو ، وحتى 21 أغسطس ، عندما صدر الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، مع غرامة مالية ضخمة ، وبالأشغال الشاقة المؤقتة على زوجته (فالتراود) ..

أما الفضيحة الأكبر ، والتى لم تتناقلها وكالات الأنباء العالمية ، فهى تلك التى تفجرت فى أروقة المخابرات الإسرائيلية ، معلنة ذلك الفشل الذريع ، الذى لحق بالجهاز وعميله الأول فى (مصر) ..

العميل الذى حمل اسم الذئب ، فافترسته ذئاب حقيقية .. ومصرية .

* * *

الشقيقان ..

على الرغم من الكتفين العريضتين والجسد القوى الممشوق ، لذلك الرجل المتين البنيان ، الذى هبط من سيارته الصغيرة ، أمام مبنى المخابرات العامة المصرية ، فى أوائل يناير ، عام 1974م ، إلا أن صوته بدا شديد الاضطراب والتوتر ، وهو يتقدم إلى حارس أمن البوابة ، قائلاً :

أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

لم يكن من المعتاد أو المألوف أن يحدث هذا ، فى تلك الفترة ، التى أعقبت حرب أكتوبر ، ووقف إطلاق النار ، واستقرار الأمور على الجبهة ، إلا أن حارس الأمن بدا مدربًا على مثل هذه المواقف بالتحديد ، وهو يستمع إلى الرجل فى هدوء شديد ، ثم يطلب الإطلاع على هويته ، ويقوده إلى حجرة انتظار أنيقة ، مجاورة لبوابة المبنى ، ثم يستأذنه بأدب جم فى أن يغيب عنه لبعض الوقت ، وهو يقدم له عددًا من الصحف والمجلات ، ليطالعها أثناء انتظاره .

ولكن الرجل لم يستطع التقاط مجلة واحدة ، وهو يفرك كفيه فى توتر بالغ طوال الوقت ، ويراجع موقفه ألف مرة ، خشية أن يكون قد ارتكب أكبر حماقة فى حياته ، بقدومه إلى قلعة الأسرار

الغامضة ، التى تحاك عشرات الأساطير ، حولها وتدور خلف أسوارها المنيعة ..

ولم يطل انتظار الرجل فعليًا ، وإن بدت له الدقائق العشر ، التى قضاها فى حجرة الانتظار ، أشبه بدهر كامل ، قبل أن يبرز حارس البوابة ، وهو يشير بيده ، ويدعوه للسير معه ..

وراح الاثنان يتنقلان من مبنى إلى آخر ، ومن ممر إلى ممر ، ومن قسم إلى قسم ، حتى انتهى المطاف بالرجل إلى حجرة بسيطة الأثاث ، استقبله داخلها شاب هادئ الملامح ، أشيب الفودين قبل الأوان ، قدم له نفسه باسم (نادر) ثم دعاه للجلوس ، وسأله فى اهتمام هادئ عن السبب الذى دعاه لطلب مقابلة أحد المسئولين بالجهاز ، وهنا وكأنما كان الرجل يكتم بركانًا بداخله ، اندفع يقول فى لهفة :

ـ إننى أشك فى أن جارى جاسوس .

تراجع رجل المخابرات فى مكتبه ، وسأله فى اهتمام :

ـ تشك ؟!

اندفع الرجل يجيب فى انفعال :

ـ إنه شاب مجند ، يدعى (أمين محمود محمد) كان يحيا حياة

عادية ، تتناسب مع دخله المتواضع ، ومستوى أسرته العادية ، ثم فجأة ظهرت عليه علامات الثراء والبذخ ، وراح ينفق فى سعة غير منطقية ، ويقيم حفلات باهظة لأصدقائه ، ويبتاع عشرات الهدايا الثمينة لرؤسائه ، على الرغم من أنه لا يرتبط بأى عمل معروف .

شبك رجل المخابرات أصابع كفيه أمام وجهه ، وتطلع إلى الرجل بضع لحظات فى صمت ، وقد خلا وجهه من أية انفعالات ، قبل أن يقول فى بطء .

ـ أهذا ما جعلك تشك فى كونه جاسوسًا ؟

حرك الرجل رأسه فى قوة ، مجيبًا :

ـ كلا .. إنه أيضًا يكثر من الأسئلة ، فى الآونة الأخيرة ، ويدس أنفه فى شئون عسكرية واقتصادية ، لم تكن تثير لديه أدنى اهتمام فيما سبق .

وفى هذه المرة أيضًا لم يحمل وجه رجل المخابرات أية انفعالات ، على الرغم فى أن شيئًا ما قد اشتعل فى أعماقه ، معلنًا أن ما يقوله الرجل يتفق بالفعل والاحتمالات المنطقية للموقف ..

ورجال المخابرات خاصة لديهم حاسة مدهشة فى هذا الشأن ..

حاسة تجعلهم يلمسون بعقولهم ، ويرون بكل خلايا مخهم ، ما لا نراه نحن بأعين مفتوحة ..

وبهذه الحاسة ، راح (نادر) يلقى على الرجل بعض الأسئلة ، ثم لم يلبث أن ابتسم وهو يقوده إلى الخارج ، ويصافحه فى حرارة ، قائلاً :

نشكرك للغاية على ما أبلغتنا به .. لقد انتصرنا بفضل المخلصين أمثالك ، ولكن دعنا نحتفظ بالأمر سرًا بيننا لبعض الوقت .. هل تعدنى بهذا ؟!

كان الرجل مفعمًا بالحماس والارتياح ، وهو يلقى إليه وعده ، ثم يغادر المبنى كله ، وقد انزاح عن كاهله حمل ثقيل ، وامتلأ كيانه بشعور عارم بأنه قد أدى واجبه ، ووضع الأمر فى أيدى أصحابه ، والقادرين على التعامل معه ..

أما (نادر) ، فقد بدأ الحمل على كاهله ، منذ تلك اللحظة ..

لقد تلقى للتو المعلومات بالغة الأهمية والخطورة ، قد تقود إلى الإيقاع بجاسوس آخر ، يعمل لحساب العدو الإسرائيلى ، فى تلك الفترة ، التى بدأت فيها (مصر) عمليات إعادة البناء ، وحصاد نتائج نصر أكتوبر المجيد ..

وعلى الفور ، غادر (نادر) ذلك المكتب ، الذى التقى فيه بالمُبَلِّغ ، واتجه مباشرة إلى مكتب رئيسه ، ليطرح عليه الأمر كله ..

ولا أحد يمكن أن يعلم بالطبع ، تفاصيل الحديث ، الذى دار بين الرجلين ولكنــه انتهى إلى إسناد العمليـة كلهـا لرجل المخابرات (نادر) ، مع وضعها فى خانة الأمور المهمة والعاجلة ..

ومنذ تلك اللحظة ، بدأ (نادر) تحرياته ..

وانطلق فـريق عمـل مدرب ، من الطراز الأول ، لجمع كـل المعلومات الممكنة عن المجند (أمين محمود محمد) ..

وعن حياته ، وعمله ، وأقاربه ، وأصدقائه ..

وحتى عن عاداته وتقاليده ..

ولأن الرجال محترفون بحق ، فقد راحوا يجمعون المعلومـات من كل الاتجاهات بمنتهى الدقة والسرعة والإتقان ..

وبكل كيـانه وخبـراته وذكائـه ، راح (نـادر) يضع كل هـذه المعلومات جنبًا إلى جنب ، ويربط بعضها ببعض ، ويستنبط منهـا كل ما يختفى بين السطور ..

وكما يحدث فى لعبة (البـازل) ، راحت الصورة تتضح أكثر وأكثر ، مع كل معلومة جديدة ..

وكل استنباط جديد ..

وفى النهاية بدت الصورة واضحة ..

وحملت معها أكثر مما كـان يتوقع (نادر) أو يتصور ، عندما بدأت هذه العملية ..

لقد حملت معها مفاجأة ..

مفاجأة مدهشة ..

وبكل حماسـة وانفعـال ، حمـل (نادر) أوراقـه ومعلوماته إلـى رئيسه ، الذى استقبله ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ ما المفاجـأة التى تتحـدث عنهـا ، فى عملية ذلك المجنـد يا (نادر) ؟!

أجابه (نادر) فى سرعة :

ـ المفاجـأة أن (أمين محمـود محمـد) هـذا مجـرد واجهـة .. مجرد مخلب للجاسوس الحقيقى .

سأله رئيسه فى اهتمام :

ـ ومن الجاسوس الحقيقى ؟!

شد (نادر) قامته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ شقيقه .. شقيقه (السيد محمود محمد) .. هذا هو الجاسوس الحقيقى ..

وكانت بالفعل .. مفاجأة ..

(السيد محمود محمد) سكندرى ، من مواليد 1926م ، قضى طفولته وصباه فيها ، ولم يستطع إكمال دراسته ، فتركها قبل الإعدادية ، واتجه إلى الأعمال البحرية ، حتى استطاع أن يمتلك يومًا نسبة كبيرة فى باخرة تجارية لبنانية (ميم باهى) ، كان يعمل مساعدًا للقبطان فيها ..

وكعادة أنصاف المتعلمين ، لم يكد (السيد) يشعر بنجاحه ، حتى كان أول ما فعله هو أن تزوج مرة أخرى ، وراح ينفق على بيتين بدلاً من بيت واحد ، مما كان له أثر عكسى على أرباحه ونفقاته ، على نحو لم يكن يتوقعه ..

وأثناء سفره إلى (روما) ، التقى (السيد) بصديق يهودى قديم ، من زملاء الصبا ، وليالى الكورنيش الدافئة ، يدعى (فيتوريد) ، كان يعمل ضابطًا إداريًا فى إحدى السفن الإيطالية ..

بعد استعراض واسترجاع ذكريات الصبا ، انتاب (السيد) موجة كرم سكندرية تقليدية ، فهتف بزميله اليهودى القديم :

لماذا لا تأتى لزيارتى فى (الإسكندرية) ؟!.. سيسعدنى للغاية أن نستعيد ذكرياتنا على الطبيعة هناك ..

صمت (فيتوريو) بعض الوقت ، وهو يتطلع إليه بنظرة ثاقبة ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة ، ويقول :

ـ ولِمَ لا ؟!

كان (السيد) يتصور أن الأمر سينتهى عند هذا الحد ، إلا أنه فوجئ بصديقه القديم يزوره فى (الإسكندرية) بالفعل بجواز سفر إيطالى ، حاملاً إليه وإلى زوجته بعض الهدايا الأنيقة والبسيطة ..

ولقد أكرم (السيد) وفادة ضيفه ، وأنفق عليه فى سعة ، وهو يدعوه إلى ليالى وسهرات زمان ، وإن لم يمنعه هذا من الشكوى باستمرار من النفقات الكبيرة لفتح بيتين فى آن واحد ، وعن حاجته إلى عمل جديد ، يدر أرباحًا كبيرة بمجهود قليل ..

ولان (فيتوريو) كان فى الواقع مجرد صياد ، أو (Spotter) كما يسمى فى عالم المخابرات ، فقد أدرك على الفور أن الشخص الذى أمامه جاسوس مثالى ، يصلح مائة فى المائة للتجنيد ، مما دعاه إلى أنى قول ، وهو يتفحص (السيد) جيدًا .

ـ لو أنك تبحث عن عمل جيد ، فهناك صديق لى يعمل بالصحافة فى « أمستردام » لحساب حلف شمال الأطلنطى ، وهو يحتاج إلى بعض المعلومات عن (مصر) .

سأل (السيد) فى اهتمام :

ـ أى نوع من المعلومات ؟!

هز (فيتوريو) كتفيه مجيبًا فى حذر :

ـ كل المعلومات الممكن .. اقتصادية ، أو .. أو حتى عسكرية .

لم يبد على (السيد) أنه قد استوعب ما رمى إليه (فيتوريو) ، إلا أنه جرع ما تبقى فى كأسه دفعه واحدة ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ وكم سيدفع بالمقابل ؟!

وهنا ابتسم (فيتوريو) فى ظفر ، فلو أن هذا هو السؤال الوحيد ، الذى يشغل عقل (السيد) ، فهذا يعنى أنه قد نجح فى مهمته .. تمامًا ..

وعلى نفقته الخاصة ، ابتاع (فيتوريو) تذكرتى سفر إلى (أمستردام) ، ومنح (السيد) خمسين جنيها ، ليتركها لزوجتيه ، ثم سافر الاثنان إلى (هولندا) ..

وفى (أمستردام) ، التقى (السيد) بشخص نحيل حاد النظرات ، قدم إليه (فيتوريو) باعتباره بريطانيًا ، يدعى (ميشيل جى طومسون) ، ولقد بدأ (طومسون) الحديث عن العمل مباشرة ، وطلب من (السيد) أن يتعاون معه ، بجمع كل المعلومات الممكنة عن النشاط العسكرى والاقتصادى فى (مصر) ، وأية أخبار عن السوفيت وبقايا تواجدهم هناك ..

ولم يبد (السيد) رفضًا ، أو حتى اعتراضًا واهيًا ..

بل قبل العمل مباشرة ، وهو يسأله فى لهفة عن المقابل الذى سيتقاضاه ، مقابل ما سيبلغه من معلومات ..

ولثوان تطلع إليه (طومسون) فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ ألا يهمك فى البداية أن تعلم ، لحساب من تعمل ؟!

أجابه (السيد) هو هدوء .

ـ لست أظنه حلف شمال الأطلنطى كما تقولون .. وما دمتم تسعون لمعرفة أخبار السوفيت ، فالأرجح أنكم تعملون لحساب المخابرات الأمريكية ..

تراجع (طومسون) ، وهو يسأله :

ـ وماذا لو أنها المخابرات الإسرائيلية ؟!

رفع (السيد) عينيه إليه بحركة حادة ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة سيختلف الأمر كثيرًا .

سأله (طومسون) فى حذر :

ـ كيف ؟!

وهنا أجابه (السيد) فى حزم :

ـ ستتضاعف المكافأة بالطبع .

وابتسم (طومسون) فى ارتياح ، واطمأن إلى أن الأمور يمكن أن تتطور فى سرعة ، من مرحلة التجنيد إلى مرحلة التدريب ..

وقبل أن يعود (السيد) إلى (مصر) ، تلقى على يد (طومسون) تدريبات مكثفة ، على كيفية جمع المعلومات ، وإثارة من حوله ، للإدلاء بما لديهم ، وتمييز الأسلحة ، واستدرار المعلومات الاقتصادية والسياسية والعسكرية من معارفه وجيرانه ، ثم حصل على خمسمائة دولار تحت الحساب ، عاد بها إلى (مصر) ، متصورًا أنه قد وضع يده أخيرًا على منبع الربح والثراء ، حتى آخر العمر ، دون أن يدرك عقله المظلم أن ما حدث فعليًّا هو أنه قد خاض بدمه فى مستنقع الخيانة ..

ذلك المستنقع الذى يلتهم وارديه ، حتى النخاع ..

وفى (مصر) ، انهمك (السيد) فى جمع المعلومات ، حتى تجمع لديه الكثير ، فسافر مرة أخرى إلى (أمستردام) ، والتقى بضابط المخابرات الإسرائيلى (طومسون) ، الذى ارتاح لما حمله (السيد) من معلومات ، وهنأه على نجاحه ، ثم أخضعه لدورة تدريبية جديدة ، علم خلالها استخدام الراديو واللاسلكى ، لإرسال واستقبال المعلومات والتعليمات ، وكيفية حل الشفرة وكتابتها ، والكتابة بالحبر السرى ، ثم طلب منه العودة إلى (مصر) ، واستئناف نشاطه ، وإرسال المعلومات فى رسائل عادية بالحبر السرى ، إلى عنوان خاص فى (لندن) ..

وعاد (السيد) إلى (القاهرة) ، حاملاً أدوات التجسس الجديدة ، وتعليمات بمحاولة تجنيد من يعاونه ، مقابل مائة دولار شهريًّا ..

ولأن المبلغ يعد كبيرًا ، فى تلك الفترة ، فقد وجد (السيد) أن شقيقه (أمين) أجدى بالحصول عليه ، ففاتحه فى الأمر ، واستجاب له شقيقه بسرعة ولهفة ، وانضم معه إلى مستنقع الخيانة ، وراح ينفق فى بذخ ، ويغرق رؤساءه بالهدايا ، ويقيم الحفلات الماجنة لأصدقائه ، فى حين واصل (السيد) عملية جمع المعلومات ، والسفر إلى (أوروبا) ليلتقى بالضابط (طومسون) ، فيمنحه المعلومات ، ويحصل على راتبه ومكافأته ، وراتب شقيقه (أمين) ..

وفى مكتب مدير المخابرات ، تم طرح كل هذه المعلومات ، وراح الجميع يراعونها فى اهتمام بالغ ، قبل أن يقول المدير :

ـ ترى هل تتوقع تحقيق أية فائدة من (السيد) أو (شقيقه) ، فى المستقبل القريب أو البعيد ؟!

هزّ (نادر) رأسه ، قائلاً :

لست أعتقد هذا ، فالاثنان يعملان بملء إرادتهما ، من المستبعد أن ننجح فى تحويلهما إلى جاسوسين مزدوجين .

مص المدير شفتيه ، وقلب كفه ، وهو يقول :

ـ فيم الانتظار إذن ؟!

ثم اعتدل فى حزم ، مستطردًا :

ـ دعونا ننه هذه العملية على الفور .

وهكذا ، وفى الثامن والعشرين فى مارس ، عام 1974م ، استيقظ (السيد) فى بيت إحدى زوجتيه ، على صوت طرقات قوية على الباب ، فاندفع إليه منزعجًا ، ولم يكد يفتحه ، حتى وجد أمامه شابًا ممشوقًا قويًا ، يسأله فى هدوء حازم :

ـ (السيد محمود محمد) ؟!

أجابه (السيد) فى قلق شديد :

ـ نعم .. أنا هو ..

قال الشاب فى صرامة :

ـ وأنا (نادر ..) من المخابرات العامة المصرية .

شحب وجه (السيد) ، وامتقع ، وتراجع فى ذعر هائل ، وهو يلوح بذراعيه ، صارخًا بصوت مبحوح مختنق :

ـ سأعترف .. سأعترف بكل شىء .

وفى انهيار عجيب ، وبوجود وكيل نيابة أمن الدولة ، راح

(السيد) يدلى باعتراف كامل ، ومع كل حرف من كلماته يرتجف ويرتعد ، وفى نهاية اعترافه ، راح يبكى ، ويطلب العفو والصفح والسماح ، مؤكدًا أنه لن يعود إلى ما فعله ثانية ..

ثم ، وبإصرار عجيب ، رفض التوقيع على أقواله ، وأخذ يعلن استعداده للتعاون مع المخابرات المصرية ورد الصفعة للمخابرات الإسرائيلية .

وفى حزم ، أفهمه وكيل نيابة أمن الدولة أن رفض التوقيع لن يجديه كثيرًا ، لأن رجال المخابرات العامة لديهم من الأدلة ما يكفى لإدانته ، حتى دون أن يعترف ..

ثم وصل فريق آخر من رجال المخابرات ، وبصحبتهم (أمين) ، فى حالة انهيار كامل ، مع اعتراف تفصيلى مذيل بتوقيعه ..

وهكذا أسقط فى يد الجاسوس ، وذيل اعترافه بتوقيعه ، ثم عاد يبكى ويتوسل ، ويكرر عرضه بالتعاون ، ولكن (نادر) أجابه بكل حزم وصرامة الدنيا :

ـ لم يعد أحد بحاجة إلى خدماتك يا رجل .. لقد انتهى الأمر ، وعليك أن تتقبل جزاء أفعالك فى خضوع .

وهذا فقد الجاسوسان آخر أمل فى النجاة ..

وفى ديسمبر 1974م ، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على (السيد) بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى شقيقه (أمين) بالسجن لخمسة عشر عامًا ..

وبهذا ، بهذا فقط ، أصبح بإمكان (نادر) أن يغلق الملف ..

ملف الجاسوسين ..

الشقيقين .

* * *

الطـــاووس ..

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السابعة بعد ، فى ذلك اليوم من بدايات صيف 1973م ، فى (تل أبيب) ، عندما استيقظ رجل المخابرات الإسرائيلى البولندى الأصل (يارون ديلشمسكى) ، على رنين الهاتف المجاور لفراشه ، فأسرع يختطف سماعته ، قائلاً بصوت خشن ، لم تفارقه رائحة النوم بعد :

- (ديلشمسكى) .. من المتحدث ؟!

أتاه صوت رئيسه المباشر ، وهو يقول فى صرامة :

- استيقظ وافتح عينيك يا (يارون) .. أريدك فى مكتبى بعد نصف الساعة فحسب .. الأمر عاجل للغاية .

أنهى رئيسه الاتصال ، بعد هذه العبارات المقتضبة مباشرة ، على نحو يوحى بأنه غير مستعد لإضاعة لحظة واحدة ، فهب الرجل من فراشه ، وراح يرتدى ملابسه على عجل ، ولم يمض نصف الساعة ، الذى أشار إليه رئيسه ، حتى كان يقف أمامه ، فى مبنى (الموساد) وهو يقول :

- ترى أى أمر عاجل هذا ، الذى يستدعى العمل فى هذه الساعة المبكرة ؟!

رمقه رئيسه بنظرة جافة ، ومط شفتيه لحظة ، قبل أن يقول :

ـ رئيسة الوزراء تقول إن المصريين يستعدون لشن الحرب .

ارتفع حاجبا (يلشمسكى) فى دهشة ، لم تلبث أن استحالت إلى ابتسامة ساخرة وهو يقول :

ـ ومن أين استقت سيادتها معلوماتها هذه ؟!.. المفترض أننا الجهاز المسئول عن مدها بالمعلومات .

هز رئيسه رأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ لسنا وحدنا فى هذا .. هناك المخابرات الحربية (أمان) وجهاز الأمن الداخلى (شين بيت) وكلاهما لديه جواسيس وعملاء فى كل مكان وربما حصل أحدهم على معلومة ما .

قال (ديلشمسكى) فى حزم واثق :

ـ لا يمكن أن يحصل أحدهم على معلومة لم تبلغنا .

ثم أشار إلى صدره فى زهو شديد ، مضيفًا .

ـ نحن الأفضل .

أشاح رئيسه عنه بوجهه ، وانعقد حاجباه ، وهو يمط شفتيه فى ضيق واضح ..

كان هذا بالضبط ما يمقته فيه ويبغضه كل البغض ..

صحيح أنه رجل مخابرات بارع فى مضماره ، أدار عمليات ناجحة عديدة ، إلا أن زهوه وغروره ، وثقته الزائدة بنفسه أمور بغيضة ، تجعله أشبه بطاووس متباه ، لا يحلو له أن يسير إلا مفرود الذيل ، متفاخرًا مرحًا ..

وبنفس الثقة المستفزة ، واللهجة المثيرة للأعصاب ، قال (ديلشمسكى) ، وهو يلوح بيده فى أناقة ، وكأنما يؤدى مشهد تمثيليًا :

ـ ما دامت المعلومة لم تصلهم من خلالنا ، فلا يمكن الوثوق بها أبدًا .

ابتلع رئيسه ضيقه هذه المرة ، وهو يقول :

ـ المهم أن نثبت هذا ، على نحو لا يقبل الشك .

سأله (ديلشمسكى) فى اهتمام :

ـ وكيف هذا ؟!

أشار رئيسه بيده ، مجيبًا :

ـ رئيسة الوزراء رشحتك شخصيًا ، بصفتك المسئول عن المعلومات العسكرية المصرية ، للتحقق من الأمور ، والحصول

على جواب صحيح ومباشر ، لا يقبل الشك ، للسؤال الذى يقلق كل مسئول فى (إسرائيل) الآن ..

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى حزم صارم :

ـ هل سيحارب المصريون أم لا ؟!

منذ نطق رئيسه بالعبارة ، لم يعد هناك عمل لرجال المخابرات الإسرائيلية سوى البحث عن جواب السؤال ، وجمع كل المعلومات الممكنة ، حول استعدادات المصريين ، وقدراتهم ورغبتهم الفعلية فى شن الحرب ، والسعى لاستعادة أرضهم المحتلة .

وعلى الرغم من زهوه وغروره ، كان (ديلشمسكى) بالفعل رجل مخابرات بارعًا ، يعمل دومًا فى دقة ومهارة ، ويجيد التعامل مع رجاله ، وتوزيع الأدوار عليهم ، وجمع كل ما جلبوه من معلومات ، وتنفيذها ، وتصنيفها ، والفوز بأكبر قدر ممكن من الفائدة منها ..

لذا فقد أطلق ذئابه فى كل صوب ، طلب منهم جمع كل معلومة ممكنة ، سواء أكانت عسكرية ، أم اقتصادية ، أم حتى اجتماعية .

ولكن كل ما جمعه زبانيته من معلومات ، لم يكن من الممكن أن يحسم الأمر قط .

فالرئيس (السادات) يبدو منشغلاً بمشكلات الجبهة الداخلية ، ومحاولات الاستقرار على مقعد الحكم ، والقاعدة الطلابية تبدى

غضبها وتوترها ورفضها لاستمرار حالة اللاسلم واللاحرب ، ومشكلة الخبراء السوفيت بلغت أوجها ، كما صنع طردهم المفاجئ فجوة غير محسوبة ، فى النظام العسكرى ، الذى اعتاد وجودهم لعدة سنوات .

وكل هذا يتعارض مع بعضه البعض ، ويتداخل ، على نحو يجعل الوصول إلى قرار حاسم أمرًا مستحيلاً .

وبحسبة محترف بسيطة ، وجد (ديلشمسكى) أنه بحاجة إلى جاسوس ..

ليس جاسوسًا عاديًا ، وإنما شخص فى مركز كبير أو حساس ، بحيث يمكنه الاطلاع على ما يجهله العامة ، وبلوغ قدر من المعلومات ، لا يتوافر للشخص العادى ..

ولابد وأن يكون هذا الشخص من العاملين أو المرتبطين ارتباطًا وثيقًا بالقوات المسلحة المصرية ، على نحو أو آخر ..

وبكل همة ونشاط ، مع كثير من الثقة ، راح (ديلشمسكى) يدرس الأمر مع فريق خاص من رجاله ، وقضوا الليالى فى البحث والتنقيب ، والفرز والتجنيب ، وسط كومة من ملفات كل الأشخاص ، الذين يمكن استغلال مواقعهم ، فى (مصر) و(سوريا) .

وبعد أسبوع كامل بلا نوم ، وقع اختياره على (إبراهيم) .

المهندس (إبراهيم كريم) ، كبير مهندسى أحد المصانع الحربية المصرية ، والمسئول الأول عن خط إنتاج الذخائر والأسلحة الخفيفة فى حلوان ، والوثيق الصلة ببعض كبار قادة وضباط الجيش .

المشكلة الوحيدة كانت فى البحث عن نقطة الضعف أو وسيلة السيطرة المباشرة على المهندس (إبراهيم) ، لإجباره على العمل لحساب (الموساد) وتزويده بكل المعلومات المطلوبة ، عن الجيش ، استعداداته ، واحتمالات خوضه للحرب من عدمه .

ولم يستغرق هذا طويلاً ، بالنسبة لرجل مثل (ديلشمسكى) .

فنقطة ضعف (إبراهيم) الوحيدة هى ابنه .. ولقد أنجب (إبراهيم) ابنه (طارق) هذا ، بعد عشر سنوات من الزواج ، وبعد أن دار مع زوجته على عيادات الأطباء ، ومستشفيات (مصر) و(أوروبا) ، حتى تسرب اليأس إلى نفسيهما ، وتصورا أنهما سيقضيان عمرهما بلا أبناء ثم فجأة حدث الحمل ..

لم يصدقا نفسيهما فى البداية ، وراحا يدوران مرة أخرى على الأطباء ويجريان عشرات التحاليل والفحوصات ، قبل أن يطمئنا إلى أن الأمر حقيقة ، وأن الله (سبحانه وتعالى) قد من عليهما أخيرًا بالإنجاب ..!

ولم تكن فترة الحمل بالأمر السهل فقد كان على الزوجة أن ترقد

خلالها على فراشها ، وتحذر أية حركات مفاجئة ، أو تصرفات عنيفة ، وأن يقوم هو ووالدتها على خدمتها ، بكل صبر وعناية وأمل ..

وأخيرًا ، جاء (طارق) طفلاً جميلاً باسم الثغر ، ورث جمال أمه وذكاء أبيه وصار أملهما الوحيد فى الحياة والمستقبل ..

واليوم كبر (طارق) وصار شابًا يافعًا ، فى عامه السادس عشر ، وصار أيضًا من وجهة نظر (ديلشمسكى) ، نقطة الضعف الكبرى ، فى حياة المهندس (إبراهيم) ، الذى لا يسكر ، أو يقامر ، أو يهتم بالعلاقات النسائية .

ولثلاث ليال أخرى ، راح (ديلشمسكى) يدرس الأمر مع رجاله ، للبحث عن وسيلة مثلى ، للاستفادة من نقطة الضعف هذه لتجنيد (إبراهيم) ودفعه لمدهم بكل المعلومات المطلوبة والمنشودة .

ولم ترق فكرة واحدة ، من كل الأفكار التى تم طرحها ، لرجل المخابرات الثعلب (ديلشمسكى) الذى لم يلبث أن طرح فكرته فى النهاية .

كانت فكرة مجنونة للغاية ، تحمل غروره وغطرسته ، وثقته الزائدة بنفسه ، ولكنه راح يدافع عنها بعناد وإصرار حتى وافق الجميع عليها مع مطلع الفجر .

وفى أوائل سبتمبر 1973م ، اختفى (طارق) فجأة ..

وجن جنون (إبراهيم) وزوجته ، وقفزت أفكارهم إلى الاتصال بالشرطة ، للبحث عن ابنهما الوحيد ، لولا أن تلقيا اتصالاً محددًا «طارق» عندنا ، وسيتم ذبحة بلا رحمة ، لو حاولتما الاتصال بالشرطة ، أو بأية جهة أخرى ..

وحدد المتحدث موعدًا ومكانًا للقاء .

وبكل ذعره ورعبه وهلعه ، ذهب المهندس (إبراهيم) إلى المكان المحدد ، فى الموعد المطلوب تمامًا ..

وانتظر ..

انتظر طويلاً وكثيرًا ، قبل أن يظهر شخص نحيل طويل ، متجهًا إليه بسيارة صغيرة ، ثم يقول فى صرامة :

ـ هيا لنذهب إلى حيث (طارق) .

قفز المهندس (إبراهيم) إلى السيارة ، ودق قلبه فى توتر بلا حدود ، وهو يسأل سائقها ، الذى انطلق بها فى طريق المقطم :

ـ أين (طارق) ؟!.. كيف هو ؟!

أجابه الرجل فى برود :

ـ بخير .. لو أطعت أوامرنا .

هتف بسرعة :

ـ سأفعل كل ما تريدون ، وسأدفع أى مبلغ ، مقابل إعادة ابنى .

أوقف الرجل سيارته فى منطقة مقفرة تمامًا وهو يجيب :

ـ اطمئن .. لن تدفع شيئًا .. بل ربما تحصل على ثروة .

لم يفهم المهندس (إبراهيم) ما يعنيه هذا فسأله فى حيرة :

ـ وكيف ؟!

لم يجب الرجل على سؤاله ، وإنما غادر السيارة ، ووقف على مسافة مترين منها ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه سيارة أخرى اتجهت نحوهما مباشرة ، ثم هبط منها رجل فى مثل طول الأول ونحوله ، وجلس إلى جوار (إبراهيم) وهو يسأله ؟

ـ هل ترغب حقًا فى استعادة ابنك ؟

هتف (إبراهيم) فى لهفة :

ـ ومستعد لفعل أى شىء فى الدنيا ، فى سبيل هذا .

ابتسم الرجل قائلاً :

ـ عظيم .

ثم خرج من جيبه عدة أوراق ، قدمها له ، مستطردًا :

- وقع هذه الأوراق إذن .. بعد أن تعيد كتابتها بخطك بالطبع .

واتسعت عينا (إبراهيم) فى رعب حقيقى ، وهو يحدق فى الأوراق ..

كانت عبارة عن اعتراف بعمله لحساب المخابرات الإسرائيلية ، منذ عام 1971م مع عدد من الخطابات التى تحتوى أسرارًا عسكرية عديدة ، مرسلة إلى عنوان (الموساد) فى روما ، وإيصالات بتلقى مبالغ مختلفة من الإسرائيليين ، نظير معلومات خطيرة .

باختصار ، كان هناك كل ما يكفى لإدانته بتهمة الخيانة العظمى ، وفى زمن الحرب ، مما يستوجب إعدامه بلا رحمة ..

وكان الرجل واضحًا صريحًا .

إما إعادة كتابة الخطابات والتوقيع عليها أو حياة (طارق) .

ولم يكن أمام المهندس (إبراهيم) مجال للاختيار ..

فكل شىء فى الدنيا يهون ، من أجل (طارق) .

وطوال ثلاث ساعات كاملة راح يعيد كتابة الاعتراف والخطابات والإيصالات ويمهرها بتوقيعه ثم يسلمها إلى عميل المخابرات الإسرائيلية ، الذى دسها فى حقيبته وهو يقول فى صرامة :

- (طارق) سيعود إلى المنزل . فور تلقينا أول معلومات حقيقية ،

ترسلها إلينا من هنا ، على العنوان فى (سالزبورج) وينبغى أن تعلم أن أية محاول لخيانتنا ، سيكون ثمنها حياة ابنك ، حتى بعد أن نعيده إليك ..

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بدون (طارق) وقد حمل على كتفيه طنًا من الهموم والأحزان والمرارة والعار ..

ومع انهيار زوجته ، ودموعها التى أغرقت وسادتها ليلة كاملة ، جلس هو صامتًا يفكر وبركان هائل يغلى فى رأسه ، وتلهب حممه عروقه كان عليه أن يفعل أى شىء فى الدنيا ، وأن يحمل قراره ، أيًا كان ، هدفًا واحدًا لا غير ، مهما كانت النتائج ..

مصلحة (طارق) .. وحدها .

وفى الصباح التالى ، وبعد ساعتين فحسب من وصوله إلى عمله كان المهندس (إبراهيم) يكتب أول خطاباته ، الذى يحوى كل ما بلغته يداه من معلومات عسكرية ، ويرسله إلى ذلك العنوان فى (سالزبورج) وأوفى الإسرائيلى بوعده فلم يمض يوم واحد ، على وصول الخطاب ومراجعة (ديلشمسكى) بنفسه ، له ، حتى عاد (طارق) إلى المنزل ، فى منتصف النهار ..

كان شاحبًا ممتقعًا ، وإن لم يصبه خدش واحد ، ولكن الملاحظ

أنه لم يتحدث عما حدث قط ، ولم يحاول النظر إلى والده أبدًا ، وكأنما يفهم ما يحدث ، ويدرك مدى ما تورط فيه الأب ، فى سبيل إنقاذه .

ولم يحاول (إبراهيم) تفسير موقفه ، أو مناقشة الأمر مع ابنه ، وكأنما يدرك بدوره فداحة الأمر وخطورته .

وطوال الشهر التالى واظب المهندس (إبراهيم) على إرسال الخطابات إلى (سالزبورج) مستخدمًا ذلك النوع البسيط من الحبر السرى الذى دربه عليه الإسرائيلى خلال يومين فحسب ..

وفى (تل أبيب) ، كان (ياور ديلشمسكى) يراجع كل الخطابات بنفسه ، ويدرسها ويفحصها ويمحصها ، حتى استقر أمره على قرار واضح نقله مباشرة إلى الرئيس ، قائلاً بنفس زهوه وغروره :

- تمامًا كما توقعنا ، لا يوجد دليل واحد على أن المصريين يفكرون مجرد تفكير فى خوض الحرب .. إنهم هادئون تمامًا .. ضباطهم يستعدون لأداء عمرة رمضان ، ورئيسهم يتجنب الحديث عن الحرب ، بحجة أن المتغيرات الدولية لا تسمح بهذا ، وقائد قواتهم الجوية يستعد لزيارة (ليبيا) وجنودهم يسترخون ويستمتعون بحمامات الشمس ، على شاطئ القناة .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

- يمكن لرئيسة الوزراء نسيان فكرة الحرب هذه تمامًا .

وفى المساء نفسه ، أرسل رئيسه تقريرًا رسميًا بكل هذا إلى رئيسة الوزراء الإسرائيلية بتوقيع (ديلشمسكى) ، وبتاريخ اليوم الرابع من أكتوبر 1973م .

وبعد يومين بالضبط ، وفى أحد المبانى التابعة للمخابرات العامة ، كان رجل المخابرات المصرى (رفعت) يبتسم ، وهو يقول للمهندس (إبراهيم) :

- صدقنى أيها المهندس .. أنا لم أر شخصًا بشجاعتك ووطنيتك هذه قط . لقد كنت تدرك أن حياة ابنك قد تكون ثمن تعاونك معنا لخداع الإسرائيليين ، وإيهامهم بأننا لا نفكر فى شن الحرب قط ، وعلى الرغم من هذا فقد لجأت إلينا ، وشرحت لنا الأمر كله ، ونفذت كل ما طلبناه منك ، حتى باغتتهم الحرب اليوم ، وحطمت غرورهم وغطرستهم فى ساعات معدودة .

أغمض (إبراهيم) عينيه ، مغمغمًا :

- حمدًا لله :

ثم فتحهما ، مستطردًا فى حزم :

ـ لقد فعلت كل هذا من أجل (طارق) ، من أجل ألا يشب هو ويشعر أن والده قد خان وطنه ، لأى سبب كان .. فعلته حتى لا يفقد انتماءه لبلده الذى أنجبه ورباه .. من أجل (طارق) ومستقبله ، قررت أن ينمو فى وطن حر مستقل ، حطم هزائمه ، وصنع انتصاراته .

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، من فرط الانفعال ، وهو يضيف :

ـ حتى ولو كان الثمن هو حياته .. وحياتنا جميعًا ..!

ربت (رفعت) على كتفه ، قائلاً فى حزم :

ـ لقد فعلت الصواب يا سيد (إبراهيم) .. فعلته لوطنك ، وابنك ولنفسك أيضًا .. واطمئن .. (طارق) سيبقى دائمًا تحت حمايتنا ، ولن يمس الأعداء شعرة واحدة من رأسه .

واستعاد ابتسامته ، مستطردًا :

ـ وسيظل يزهو طيلة عمره ، بأنه واحد من أبطال (مصر) .

لحظتها شعر (إبراهيم) بأن كل مخاوفه قد زالت ، وبأن فيضان من الاطمئنان والارتياح يسرى فى عروقه ، ويملأ كيانه كله ..

وعندما تخيل الإسرائيليين ، وحالة العار التى يشعرون بها بعد أن باغتتهم الحرب ، بضربة جوية ساحقة ، وبعبور كسر أنفهم ، وحطم أسطورتهم إلى الأبد ، وجد نفسه ينفرد فى فخر وزهو حقيقيين ، حتى إنه غادر المبنى عائدًا إلى (طارق) وأمه ، وهو يسير مختالاً كالطاووس ..

طاووس مصرى ..

ظافر .

* * *

العميل النـووى ..

ران صمت طويل على حجرة الاجتماعات الرئيسية ، فى مبنـى المخابرات العامة المصرية ، فى تلك الليلة من ليالى سبتمبر 1969م ، والرجـال الذين ضمتهم مـائدة الاجتماعـات البيضاويـة الكبـيرة ، يتابعون فى اهتمام بالغ ، فيلمًا سينمائيًا خاصًا ، نجح أحد عمـلاء المخابرات فى قلب (إسرائيل) فى تصويره بدقة وبراعة مدهشتين ، لأحد المفاعلات الذرية ، التى أقامها العدو فى صحراء النقب ..

كان الفيلم يصور مداخل ومخـارج المفـاعل ، ووسـائل الأمـن المتبعة فيـه ، وتحركات طاقم الحراسـة المحيطـة بـه ، ولقد تابعه الرجل بذلك الصمت التام ، حتى انتهى العرض ، فاعتدلوا يواجـه بعضهم البعض حول المائدة ، قبل أن يقول المدير :

- فيلم ممتاز ، كما لاحظتم ، ولكنـه لا يمنحنا للأسف كل مـا نحتـاج إليه ، فى هـذا الشـأن ، فرجلنـا الـذى يستحق كـل التقدير ، أمكنـه تصوير كل ما يحدث حـول المفاعل وخارجـه ، ولم يمكنه بالطبع دخول المكان ، أو الحصول على أية معلومات عما يدور داخله .

قال أحد الرجال فى اهتمام :

- إننا نحتاج إلى عين بالداخل ..

أشار إليه المدير ، قائلاً :

- بالضبط ، نحتاج إلى زرع عميل ما ، داخل هيئة الطاقة النوويـة الإسرائيلية ، أو تجنيد أحد العاملين فيها .

تراجع رجل مخابرات بمقعده ، وهو يقول :

- عملية الزرع هذه ، تحتاج إلى زمن طويل للغاية ، ونتائجها غير مضمونـة ، فـى الظـروف الحاليـة ، وأعتقـد أن الأفضـل أن نتجه بجهودنا إلى محاولة تجنيد أحد العاملين فى الهيئة .

أومأ المدير برأسه متفهمًا ، وقال :

- هذا أيضًا ليس بالأمر السهل ، فالمرحلة القادمة بالغة الحساسية ، والإسرائيليون يعلمون أننا نعيد بناء الجيش ، بعد نكسـة يونيـو 1967م ، وأننا لن نسكت أبدًا على احتـلال أرضنا ، والحرب الثأريـة آتية لا ريب ، لذا فهى تنشر شائعاتها فى كل الأوساط العربيـة ، للإيحاء بأنها تمتلك مخزونًا من القنابل النووية ، يتيح لها تدمـير العواصم العربية ، التى تحـاول شن الحرب عليها ، ولا يخفى عليكـم أن شائعة كهذه ستجد صدى حتمًا ، فى نفوس العديدين ، وربمـا أقلقت القيادة العسكرية والسياسية أيضًـا ، لـذا فمن الضرورى ، بل من المحتم أن نبحـث هذا الأمر بأنفسنا ، حتى نحسم تلـك الشـائعات ، ونبلـغ الجـانب الحقيقى منهـا ، لتحديـد مـا إذا كـان

الإسرائيليون يمتلكون أسلحة نووية بالفعل أم لا ، ولأن الإسرائيليين ، يدركون أهمية أن تبلغنا معلومة كهذه ، فهم ينتقون العلماء والعاملين فى تلك المفاعلات النووية ، بمنتهى الدقة والحسم ، لضمان الأمن والسرية الكاملين .

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

- لا يوجد نظام أمنى مأمون مائة فى المائة .. هناك حتمًا ثغرة ما .

أشار إليه المدير ، قائلاً :

- بالضبط .. لذا فسنشاهد الفيلم مرة أخرى ، ثم نعيد دراسة الأمر مرات ومرات ، حتى نجد تلك الثغرة ، التى يمكننا أن ننفذ من خلالها إلى الحقيقة ..

كانت المرة الثالثة ، التى يشاهدون فيها هذا الفيلم ، وعلى الرغم من هذا فقد خيم عليهم صمت مطبق ، وهم يتابعون كل لحظة منه ، ثم عادوا يناقشون الأمر ، ويفحصونه ويمحصونه ، ويقلبونه على كل الوجوه ، حتى استقر رأيهم ، فى الثالثة والربع صباحًا ، على المضى قدمًا فى موضوع التجنيد ..

وطوال الأيام الخمسة التالية ، لم يغمض لأحدهم جفن ، وهم يراجعون كل ما لديهم من معلومات ، عن هيئة الطاقة النووية الإسرائيلية .. والعاملين بها ..

ولم يكن الأمر سهلاً أو بسيطًا ، إلا أنهم بذلوا بحق جهدًا خرافيًا ،

فى مراجعة ملفات عشرات العلماء ، ومئات العاملين ، وتاريخهم ، وطبائعهم ، وأصولهم التى كانوا ينتمون إليها ، قبل هجرتهم إلى (إسرائيل) ..

وفى اليوم السادس فى حجرة الاجتماعات نفسها ، طرح الجميع ترشيحاتهم ..

كانوا قد انتخبوا ثلاثة فحسب ، من بين تلك الملفات .. فنى قديم من أصل بولندى ، وموظف حسابات من جيل (الصابرا) ، والمولود فى (إسرائيل) ، وعالم نووى من أصل فرنسى .

والعجيب أنه بعد سبع ساعات كاملة من الفحص والدراسة وقع الاختيار على العالم اليهودى ، ذى الأصل الفرنسى (جان بيير) .

ووجه العجب هنا هو أن (جان بيير) كان رجلاً بلا أخطاء تقريبًا ، فهو عالم شاب ، ولد فى (نيس) ، لأب فرنسى وأم يهودية ، وهاجر إلى (إسرائيل) فى أوائل الستينيات ، دون أن يعانى من تلك المصاعب والمتاعب والمشكلات المرهقة ، التى يعانى منها المهاجرون الجدد فى المعتاد ، فلم يتم وضعه فى أحد المعسكرات أو (الكيوبتز) ، ولم يضطر للعمل بالزراعة أو الحراسة ، أو يضطر للإقامة فى منزل بسيط متواضع ، يقاتل فيه الحشرات والفئران فى كل يوم ، للدفاع عن غذائه وأمنه ..

هذا لأن (جان بيير) كان عالمًا من علماء الطاقة النووية ، التى

تحتاج إليهم (إسرائيل) بمنتهى الاهتمام واللهفة فى تلك المرحلة ، لذا فلم يكد يصل إلى (تل أبيب) حتى اختطفوه اختطافًا ، ومنحوه وظيفة جيدة ، فى هيئة الطاقة النووية هناك ، براتب كبير ، جعله يحصل على منزل أنيق وسيارة فاخرة ، خاصة وأنه غير متزوج ، ولا ينفق على والديه أو خلافهما ..

ومن الناحية الأخرى ، كان (جان بيير) رجلاً ملتزمًا بمعنى الكلمة ، فهو لا يدخن ، أو يتناول المخدرات ، ولا يلعب القمار ، أو يميل إلى أية علاقات نسائية ، كما أنه مغرم بعمله ، ويبذل من أجله كل اهتمامه وطاقته ووقته ..

أو بمعنى أدق ، لم تكن عنده نقطة ضعف واحدة يمكن النفاذ منها إليه ، وتجنيده للعمل لحساب المخابرات المصرية ..

السؤال الذى يطرح نفسه إذن ، هو لماذا وقع عليه اختيار الجميع ..

والجواب ، الذى قد يدهشك ، هو أنها الأسباب السالف ذكرها نفسها .

والواقع أن الرجال كانت لديهم نظرة عبقرية للغاية فى هذا الشأن ، فما دام (جان بيير) دقيقًا وملتزمًا إلى هذا الحد ، ويصعب تخيل عمله لحساب مخابرات دولة أخرى ، فهذا يعنى أنه الشخص المثالى ، الذى ينبغى السعى لتجنيده ، إذ إن الشك لن يتطرق إليه قط مهما كانت الظروف ..

ثم إنه ، ومهما بلغت قوة شخصيته ، مجرد بشر ، عنده حتمًا نقطة ضعف فى مكان ما فى تكوينه ..

نقطة ضعف تكفى حتمًا لتجنيده ..

ولأن البحث عن تلك النقطة أمر عسير للغاية ، فقد انهمك الرجال فى مراجعة ملف (جان بيير) لأسبوع آخر ..

أسبوع بدا لهم أشبه بالدهر ، وهم يطلقون كل عملائهم فى (إسرائيل) و(فرنسا) خلف الرجل ، لجمع أدق أدق تفاصيل حياته ، ومعيشته ، وعمله ..

وفى الاجتماع التالى ، سألهم المدير :

ـ هل توصلتم إلى نقطة ضعف الرجل ؟!

أجابه أحدهم فى سرعة :

ـ (جان بيير) هذا لا يمكن تجنيده من أجل المال أو النساء ، أو حتى المنصب والقوة والسلطة .. وهذا يعنى أن هناك سبيلاً واحدًا للوصول إلى عالم فذ مثله .

ثم أشار إلى رأسه ، مستطردًا فى حماس :

ـ أفكاره .

اعتدل المدير فى مجلسه ، وهو يسأله فى اهتمام :

- أتقصد معتقداته ؟!

هز رجل المخابرات رأسه نفيًا يجيب :

- بل أفكاره وعلومه .. الشىء الوحيد الذى يمنحه كل اهتمامه وقناعته وميوله .. باختصار .. الشخص الوحيد .. الذى يمكنه تجنيد رجل مثل (جان بيير) هو عالم نووى مثله .. شخص يتحدث بلسانه ، ويتكلم بأفكاره ، ويفكر بلغته .. شخص ينجح فى تجنيد عقله ، قبل أن يصارحه بما يريده منه بالضبط .

كان من الواضح أن فكرته هذه قد لقيت قبولاً من الجميع ، إذ تبادلوا نظرة استحسان صامتة ، قبل أن يسأله المدير فى اهتمام :

- لاحظ أن البروفيسير (جان بيير) ليس موظفًا عاديًا بهيئة الطاقة النووية الإسرائيلية ، إنه أيضًا أستاذ بمعهد التكنولوجيا الإسرائيلى (تكنيون) فى (حيفا) ، وهذا يعنى أنه صاحب عقلية فذة .. كيف يمكنك اللعب على عقل شخص كهذا ؟!

أجاب الرجل بسرعة :

- بشخص مثله .

ثم اعتدل فى مقعده ، ليتابع فى حماس :

- شخص عبقرى ، فى المضمار نفسه ، وقارئ جيد أيضًا ،

بحيث يمكنه الاطلاع على كل ما كتبه (جان بيير) فى هذا الشأن ، إذ إن أكثر ما يحب أى عالم سماعه ، هو حديث شخص متحمس لآرائه ونظرياته ..

سأله أحد رفاقه :

- ومن أين يمكننا الحصول على شخص كهذا ؟!

وفى هذه المرة بالتحديد ، لم يجب رجل المخابرات بنفس السرعة والحماس ، وإنما تراجع فى مقعده ببطء ، وهو يجيب فى حذر :

- لدينا علماء عباقرة بالتأكيد .

تبادل الرجال نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يقول المدير :

- هذا أمر طبيعى يا رجل ، فلن تخلو (مصر) من العقول الجبارة ، التى تتساوى وتتفوق أيضًا على العقول الإسرائيلية ، ولكننا ، فى قضيتنا هذه لا نبحث عن عالم فحسب ، وإنما عن رجل يدرك هدفه بالضبط ، ولديه الخبرة اللازمة لبلوغه ، دون أن يرتكب خطأ واحدًا ..

ثم مال إلى الأمام مستطردًا فى حزم صارم :

- باختصار ، نحن نحتاج إلى رجل مخابرات لديه عقلية عالم نووية .

وعندما تبادل الرجال نظراتهم هذه المرة ، كانت عيونهم تحمل الكثير ، والكثير من القلق ، والتوتر ، والحيرة ، والتساؤل ...

وفى حزم ، أجاب صاحب الفكرة :

ـ فلنصنع ما نحتاج إليه إذن .

وانحبست الأنفاس ، من فرط الانفعال والانبهار .

ولكن الفكرة تم طرحها على بساط البحث ..

ولن نكون مبالغين ، لو قلنا إنها استغرقت الليل كله ، قبل أن تتحول من فكرة إلى قرار حاسم صعب ، اتفق عليه الجميع .

وفى اليوم التالى مباشرة ، تم استدعاء أحد أساتذة قسم الهندسة النووية فى جامعة (الإسكندرية) ، وآخر فى قسم الطاقة الذرية بكلية علوم (القاهرة) ، وثالث فى هيئة الطاقة الذرية المصرية .

وعندما اجتمع الثلاثة ، قدم لهم مدير المخابرات أحد رجاله وهو (م .ع) وهو يقول :

ـ زميلنا هذا عبقرى فى مجاله ، كما يؤكد كل من تعامل معه ، والمطلوب منكم أن تصنعوا منه عبقرية أخرى ، فى مجال الطاقة النووية .

كان مطلبًا عجيبًا ومدهشًا للغاية ، بالنسبة للرجال الثلاثة ، لسنا نكشف سرًا ، لو قلنا : إنه فجر دهشتهم واستهجانهم واستنكارهم فى آن واحد ، واعترض الثلاثة على الفكرة وأكدوا أن العبقرية فى مضمار ما ، لا تعنى حتمية فهم مضمار آخر وإدراكه ..

ولكن المدير استمع إليهم فى اهتمام صامت ، ثم راح يناقش الأمر معهم فى هدوء شديد ، وأخبرهم أنه ليس المطلوب منهم أن يصنعوا (أينشتاين) جديدًا ، وإنما عليهم أن يبذلوا جهدهم فحسب ، وستقيم التجربة نفسها فى النهاية ..

وعلى مضض ، ودون حماس يذكر ، بدأ العلماء الثلاثة عملهم .. وكم كانت دهشتهم ، للسرعة والمهارة والذكاء ، التى استقبل بها (م .ع) ما منحوه إياه من معلومات ومعادلات وتفاصيل ..

فالواقع أن رجل المخابرات (م .ع) كان أحد خريجى كلية العلوم ، ممن شغفوا بالدراسات الفيزيائية والذرية ، مما ساعده على استقبال والتهام كل هذه المعلومات فى سهولة ويسر ..

بل واستمتاع أيضًا ..

ومع مرور الوقت ، اكتسب العلماء الثلاثة الكثير من الاهتمام والحماس ، وازداد ارتباطهم بالرجل ، وراحوا يواصلون عملهم معه بمتعة حقيقية ، وكأنه لم يعد لهم من عمل فى الحياة سواه ..

وفى أوائل عام 1970م . كان (م .ع) قد تحول إلى عالم نووى حقيقى ، فى نفس الوقت الذى انهمك فيه الباقون فى متابعة (جان بيير) ، وجمع كل المعلومات الممكنة عن حياته وتحركاته وأسفاره ..

وفى مكان ما ، داخل (إسرائيل) أو خارجها ، تم لقاء (م .ع) بالبروفيسير (جان بيير) ، وتبادلا أول حوار ..

ومن المؤكد أن ذلك الحوار كان عبقريًا للغاية ، وأنه فريد من نوعه ، فى عالم المخابرات ، وكذلك الحوارات التى تمت بعده على مدى شهر كامل ، وعلى نحو جعل (م .ع) هو الشخص الوحيد ، فى الكون كله ، الذى يحرص (جان بيير) على لقائه والحديث معه .. ومما لا يدع مجالاً للشك ، أن عملية تجنيد العالم النووى الإسرائيلى لا مثيل لها ، فى تاريخ المخابرات كله ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، بدليل أن أحدًا لم يوافق على التصريح بنشرها قط باعتبارها ما زالت تندرج تحت بند السرية المطلقة ..

ولكن المهم فى النهاية ، هو أن المخابرات المصرية قد نجحت فى دفع (جان بيير) إلى العمل لحسابها ..

بمنتهى الصراحة ..

والوضوح ..

والإقناع ..

ولم يخذلنا البروفيسير أبدًا ، فقد راح يرسل إلينا معلومات بالغة الأهمية والخطورة ، وبمنتهى الدقة والإتقان ، عن كل ما يتعلق بالنظام النووى الإسرائيلى ، والمفاعلات النووية ، من خلال رسائل بالحبر السرى ، يتم إرسالها إلى عناوين مختلفة ، فى معظم أنحاء العالم ، أو عبر تقارير مفصلة ، كان يسلمها يدًا بيد لأحد رجال المخابرات المصرية ، أثناء سفره خارج (إسرائيل) ، فى رحلات دراسية أو سياحية .

ومن حسن الحظ أن (جان بيير) لم يكن خبيرًا نوويًا فحسب ، وإنما كان على دراية كاملة بهندسة المعادن والجيولوجيا أيضًا ، ولقد نجح فى توظيف كل هذه لخدمة نشاطه التجسسى ، إذ راح يمدنا بكافة المعلومات ، حول التعدين ، والأبحاث الجيولوجية ، التى تجريها (إسرائيل) فى كل مكان ..

ولكن أهم ما منحنا إياه (جان بيير) على الإطلاق ، هو إثبات أن الشائعات الخاصة بالمخزون النووى الإسرائيلى أكذوبة كبيرة ، وأن (إسرائيل) لم يكن لديها ، فى ذلك الوقت ، أية قنابل ذرية ، أو حتى برامج لصنع تلك القنابل خلال السنوات الخمس التالية ، مما يعنى أنها ، حتى ولو بلغت الجيوش العربية (تل أبيب) ، لن يكون بإمكانها قط تهديدنا بأى سلاح نووى ..

ولقد تم نقل هذا بالتأكيد ، فور وصوله ، إلى القيادة السياسية

والعسكرية ، مما كان له أكبر الأثر فى وضع الخطة النهائية للمعركة ، على نحو واقعى سليم .

وكان من الممكن أن يمضى (جان بيير) فى عمله هذا إلى الأبد ، دون أن ينكشف أمره ، لولا أن وقع فى خطأ عجيب للغاية .

فبينما كان يرسل أحد خطاباته ، المكتوبة بالحبر السرى ، إلى أحد العناوين الخاصة ، فى عاصمة من العواصم الأوروبية ، أخطأ فى كتابة رقم صندوق البريد ..

وكان من الطبيعى عندما فشلت إدارة البريد الأوروبية فى توصيل الخطاب ، أن تعيده إلى مرسله فى (إسرائيل) ..

ومع عودة الخطاب سقط بالمصادفة فى يد رئيس طاقم الأمن ، فى هيئة الطاقة النووية الإسرائيلية ، الذى فتحه بدافع الفضول ، ثم عرضه على مندوب (الموساد) هناك ..

وتم فحص الخطاب بالأشعة فوق البنفسجية ، فظهر الحبر السرى ، وانكشف أمر البروفيسير (جان بيير) ، وتم إلقاء القبض عليه ، دون أية مقاومة منه .

وحوكم (جان بيير) ، وصدر الحكم ضده بالسجن لعشر سنوات نظرًا لتعاونه مع سلطات التحقيق هناك وإدلائه باعتراف كامل ،

بهر الإسرائيليين ، وأثار ذهولهم وسخطهم بشدة ، عندما تبينوا كم تطورت المخابرات المصرية ، وكم أصبحت عبقرية فذة فى عالم الغموض والأسرار ..

ولأن (مصر) لا تتخلى بسهولة عن كل من ساعدها ، أعدت المخابرات المصرية خطة محكمة ، لتهريب البروفيسير فى سجنه ، ونقله إلى (القاهرة) ، مع اثنين من عملائها ، يقضون مدة عقوبتهم فى السجن نفسه .

وسار كل شىء على ما يرام ، حتى كانت لحظة التنفيذ ..

وهنا انهار (جان بيير) ، وأعلن خوفه الشديد من محاولة الفرار ، وأكد لرفيقيه أنه قد تقدم بالتماس عفو ، لدى السلطات الإسرائيلية ، وأنه ينتظر الإفراج عنه قريبًا ..

وأكمل العميلان الآخران الخطة بدونه ..

ونجحت الخطة نجاحًا مبهرًا ، أثار جنون الإسرائيليين وسخطهم ، خاصة وقد وصل العميلان إلى (القاهرة) سالمين .

ولم تنفذ السلطات الإسرائيلية وعدها للبروفيسير (جان بيير) ، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد انقضاء عقوبته كاملة ..

وعندما غادر (إسرائيل) بعدها ، كانت المخابرات المصرية فى انتظاره ، لتمنحه مكافأة سخية بعد انتصارنا فى السادس من أكتوبر 1973 ، استغلها لبدء حياة جديدة فى (الأرجنتين) .

أما (م .ع) ، فقد استهواه الأمر ، وواصل دراسة الفيزياء النووية ، ليحصل فيها على درجة الدكتوراه ، ويصبح أول رجل مخابرات مصرى .. نووى .

* * *

العميـــــل

على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت منتصف النهار بعد ، فى ذلك اليوم من أيام يناير ، عام 1970م ، إلا أن الغيوم الكثيفة التى تحجب الشمس والسماء ، وينهمر منها مطر غزير ، لم يسبق له مثيل ، طوال ذلك الشتاء القارص البرودة ، أعطت شعورًا زائفًا بأن الغروب وشيك ، مما دفع سائق سيارة الأجرة القديمة ، التى تنطلق بسرعة متوسطة ، إلى جوار (قصر الطاهرة) ، إلى أن يضىء الأنوار الخافتة على نحو عفوى ، وهو يختلس نظرة قلقة إلى مرآة السيارة الداخلية ، التى تعكس صورة الراكب الوحيد الذى انكمش صامتًا شاحبًا فى المقعد الخلفى ، غارقًا فى لجة من الأمطار ، اشتركت مع نحوله الشديد فى منحه مظهرًا يتجاوز سنوات عمره الحقيقى بعشرة أعوام على الأقل ..

ولم يكن سائق السيارة يشعر بالارتياح ، منذ دلف ذلك الراكب إلى المقعد الخلفى بحركة مباغتة ، وقال فى عصبية واضحة :

ـ المخابرات يا أسطى .

لحظتها سقط قلبه بين قدميه ، واستعاد ذهنه فى لحظات كل ما سمعه ، وما همست به الألسن الخائفة ، عن المخابرات العامة ، وكل ما التصق بها من شائعات ، وخيل إليه أنه إذا ما اتجه

إليها ، فسيتم اعتقاله دونما ذنب جناه ، وانطلق بساقين مرتجفتين إلى ذلك المبنى المهيب ، فى حدائق القبة ..

ولكن عندما بلغت سيارته أول الطريق ، الذى يقود إلى مبنى المخابرات العامة ، كانت غريزته وملاحظاته قد أنبأتاه أن ذلك الراكب النحيل لا يمكن أن يكون أحد هؤلاء الطغاة ، الذين سمع عن وجودهم داخل ذلك المبنى الصامت أبدًا ، فتوقف قبل أن يبلغ السور المرتفع ، واستدار قائلاً فى شىء من الصرامة :

ـ وصلنا يا أستاذ .

انتفض فى عنف ، وكأنما انتزعه السائق بغتة من سبات عميق ، وحدَّق فيما حوله فى شىء من الدهشة والارتياح ، وهو يسأل بصوت كالهتاف :

ـ كيف ؟!.. إنها منطقة خالية .

زمجر السائق فى شىء من العصبية ، قائلاً :

ـ اقطع الأمتار المتبقية سيرًا على الأقدام ، لن أقترب من هذا المبنى فنزل النحيل من السيارة .

واتجه إلى البوابة مباشرة ، وعندما بلغها ، كان أشبه بغريق تم انتشاله من أعماق البحر على التو ، فتوقف أمامها مضطربًا .

ولكن انتزعه من دهشته صوت هادئ يسأل :

ـ أية خدمة يا أستاذ ؟!

انتفض جسده مرة أخرى فى عنف ، وحدَّق فى رجل يبتسم ابتسامة ودود ، فى انتظار جوابه ، فازدرد لعابه فى صعوبة ، وبذل جهدًا حقيقيًّا ليقول :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .. اسمى (أحمد هـ .)

كان لديه هو الآخر ذلك الشعور العجيب ، بأن رجال المخابرات سينقضون عليه ، ويفترسونه بلا رحمة ، لمجرد أنه جرؤ على الاقتراب من أسوارهم العالية ، لذا فقد أدهشه ذلك الأدب الجم فى التعامل ، والأسلوب الشديد التهذيب لرجال الأمن ، الذين أجروا اتصالاً هاتفيًّا داخليًّا محدودًا ، ثم احتفظوا ببطاقته الشخصية ، ومنحوه بدلاً منها بطاقة صغيرة خاصة ، تحمل رقمًا كبيرًا ، مع كلمة (زائر) ..

وبمنتهى الاحترام والهدوء ، اصطحبه أحدهم عبر ممرات المكان إلى أحد المبانى الداخلية ، وأجلسه داخل مكتب أنيق بسيط ، وسرعان ما وجد أمامه كوبًا من عصير الليمون مع وعد بأن أحد مسئولى المخابرات سيلتقى به .

ومع الدفء الذى أحاط به ، كان من الطبيعى أن تسترخى

أعصابه ، وتهدأ عضلاته ، ويغوص فى مقعده الوثير ، وينطلق عقله إلى بداية الأمر ..

البداية التى قادته اليوم إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ..

اسم (أحمد هـ ..) واحد من أبناء مدن القناة ، الذين عاصروا نكسة عام 1967م ، وفقدوا أعمالهم ومأواهم ، وأحلامهم ، واضطروا إلى النزوح إلى (القاهرة) ضمن موجة التهجير ، التى ضاعفت من أعبائهم وأعباء سكان (القاهرة) وباقى مدن (مصر) ..

وفى (القاهرة) شعر (أحمد) بغربة ما بعدها غربة ، وارتبكت مشاعره ، واختلت حياته ، وصار عليه أن يخرج من جلده ، ويرتدى ثوبًا يناسب العاصمة ، وهو الذى قضى عمره كله يجاور القناة ، يتاجر مع السفن المارة بها ، ويبيع ويشترى منها ، ويجيد لغات أصحابها وألسنتهم ، وطرق التعامل معهم ..

ولم يناسبه ذلك الثوب الجديد أبدًا ..

كان يشعر بثقل المسئولية على كاهله ، وهو المسئول عن إعالة والدته ، وشقيقه (مصطفى) ، وابنة خالته (نعيمة) ، الذين يقيمون جميعًا فى حجرة واحدة ، تضمهم بالكاد ، لذا فقد امتهن كل مهنة سمحت بها إمكاناته ، وباع واشترى أشياء لم يتعامل بها قط من قبل ، واحتمل مصاعب ومتاعب وسخافات ، لم يتصور يومًا أن يواجهها ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يكن ما يحصل عليه من دخل يكفى أكثر من الضرورات الحتمية ، إطعامًا ولباسًا .

وأخيرًا فاض به الكيل ..

ولأنه يمتلك طبيعة مغامرة ، ونفسًا لا تقبل بالاستسلام أو اليأس ، فقد اتخذ (أحمد) قرارًا جريئًا بتحطيم كل القيود ..

وأولها قيود المكان ..

ولم يكن السفر إلى خارج البلاد سهلاً أو متاحًا ، فى تلك الحقبة الزمنية ، ولكن (أحمد) ألقى ثقله كله على الأمر ، وقاتل كما لم يقاتل من قبل ، وكافح فى استماتة ، حتى حصل فى النهاية على أول الخيط للحلم ..

جواز سفر ، وتصريح خروج ، وتأشيرة لدولة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط ..

وبعد جلسة عائلية صاخبة ، أسند (أحمد) مسئولية الأسرة إلى شقيقه (مصطفى) ، واستقل الباخرة إلى تلك الدولة ، بحثًا عن فرصة عمل جيدة ، ولكن الحلم لم يكن ورديًا ، والكفاح فى الغربة لم يكن هينًا ..

كان كتلة من العذاب والألم والتعب حتى ظهر (ماريو) ..

كان (أحمد) قد يئس من العثور على عمل ، واستنفد كل ما معه

من أموال تقريبًا ، ولم يعد لديه ما يكفى حتى لعودته إلى (مصر) ، لو أراد هذا ، لذا فقد كان من الطبيعى أن ينجذب بشدة للقادم الجديد ، الذى ظهر فى حياته فجأة ، ليهمس فى أذنه :

- (أحمد) يا صديقى .. من الواضح أن مواهبك تفوق أقرانك بكثير ، فلماذا تسعى للحصول على عمل وضيع ، يمكن أن يقوم به أى شخص تافه .. دعنى أبحث لك عن عمل يناسبك ..

هزّ (أحمد) عندئذ كتفيه ، وقال :

- يدى على كتفك .

رمقه (ماريو) بنظرة طويلة صامتة ، قبل أن يبتسم ، قائلاً بلهجة دغدغت كل ما تبقى من آمال (أحمد) وأحلامه :

- امنحنى يومين فحسب ، وسأمنحك أفضل عمل فى المدينة كلها .

ومنحه (أحمد) اليومين ..

بل منحه عشرة أيام كاملة ، لم يظهر (ماريو) خلالها لحظة واحدة ، حتى انهار كيان (أحمد) كله ، وتفجر يأسه إلى الذروة ، وكاد يبكى بدموع من دم ، وهو ينفق آخر قرش فى يده ، ويدرك جيدًا أنه لن يجد قوت يومه ، عندما تشرق شمس الغد ..

وفجأة ، ظهر (ماريو) مرة أخرى ، وصك هتافه أذنى (أحمد) ، وهو يقول :

- (أحمد) صديقى .. كيف حالك ؟

قفز (أحمد) يتعلق به ، كما يتعلق الغريق بآخر قشة فى البحر ، وسأله فى لهفة وغضب عن سبب غيابه ، وأغاظه أن يجاوبه (ماريو) بضحكة عالية مجلجلة ، قبل أن يربت على ظهره فى حرارة ، قائلاً :

- لا عليك يا صديقى .. انس كل متاعبك السابقة ، فاليوم ستبدأ حياتك الجديدة .. هيا .. دعنا نلتقى برئيس العمل ..

لم يصدق (أحمد) أذنيه ، ولم يحاول إخفاء لهفته ، وهو يهرع معه إلى واحد من أكبر المقاهى فى المنطقة ، ليلتقى بالرئيس المزعوم (جاكوب) ..

ولا أحد يدرى لماذا لم يشعر (أحمد) بالارتياح تجاه (جاكوب) هذا ، على الرغم من أن الرجل قد أحسن استقباله ، واستمع إليه فى اهتمام ملحوظ ، وتحدث معه عن (مصر) وأحوالها ، وقال بزهو : إنه ولد هناك ، وعاش طفولته وصباه فى حى (بولاق) ، ثم منحه فى النهاية مبلغًا معقولاً ، يزيد عما حضر به من (مصر) ، وطلب منه أن يقابله فى اليوم التالى ، لمناقشة تفاصيل العمل ..

ولم ينم (أحمد) ليلتها ، أو يغمض له جفن لحظة واحدة ..

ولم يخطر بباله لحظة واحدة أن يكون الثمن هو الوطن .. (مصر) ..

ولم تراوده الفكرة حتى فى لقائه الثانى مع (جاكوب) ، على الرغم من حديث هذا الأخير عن أحلام السلام ، وضرورة السعى لمنع اندلاع الحروب فى الشرق الأوسط ، وأهمية جمع المعلومات التى تساعد على تحقيق هذا الهدف ..

ولكن عقله أضاء كله دفعة واحدة ، وهو يجلس فى المقهى فى المساء ، يراجع ذلك الحديث ، عندما انضم إلى مجلسه بحار قوى البنية ، مفتول العضلات ، يعرفه رواد المقهى باسم الريس (زكى) ، وسأله عن أحواله ، ثم مال على أذنه يهمس :

ـ لا داعى لاختلاطك بذلك الرجل (ماريو) .. إنه لا يدعو للارتياح .

إن عبارة الريس (زكى) قد ضغطت زر الإنارة فى عقله ..

وفى لقائه الثالث مع (جاكوب) كان يستوعب الأمر تمامًا ..

الرجل يطلب معلومات خاصة عن (مصر) ، ويعد بمكافأة سخية .

لم يعلنه (جاكوب) بالجهة التى تطلب هذه المعلومات ، وغادر المقهى ثم غادر المدينة كلها ، بل وافق على الأمر ، وحصل على مبلغ نقدى جديد ، ولم يحاول (أحمد) أن يسأل ، فى اليوم التالى ، عائدًا إلى (مصر) ..

وفى (مصر) لم ينفق (أحمد) قرشًا واحدًا مما حصل عليه من (جاكوب) ، على الرغم من أنه وجد أسرته فى فاقة ، و(مصطفى) لا يجيد حمل المسئولية ، وإنما وضع كل النقود فى جيبه ، وانطلق فى الصباح التالى مباشرة ، وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة ، إلى المخابرات العامة المصرية ، ليطرح الأمر على رجالها .

ـ « أهلاً يا (أحمد) .. »

انتزعه القول من أفكاره وذكرياته ، وبدا له الصوت مألوفًا ، فارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو ينهض بحركة غريزية ، ويلتفت لمواجهة صاحبه ، قبل أن تتسع عيناه فى ذهول ، ويحدّق فيه لحظة ، محاولاً تمييزه فى الحلة الأنيقة ورباط العنق الرفيع ، ثم يهتف بصوت ارتج له كيانه كله :

ـ مستحيل !.. الريس (زكى) ..

كانت مفاجأة مذهلة له بالفعل ، أن يكشف أن ذلك البحار القوى ، الذى التقى به هناك ، لم يكن سوى رجل المخابرات المصرى (ر . ج) ، الذى هدأ من روعه ، وجلس إلى جواره ، واستمع إليه جيدًا ، ثم اعتدل قائلاً :

ـ نحن نعرف (ماريو) منذ فترة طويلة ، ونعرف أن مهمته هى انتقاء العناصر الصالحة للتجنيد لحساب (إسرائيل) .

أما (جاكوب) فهو وجه جديد فى اللعبة ، ولقد تعرفناه فقط ونحن نراقبك ، بعد اتصال (ماريو) بك .

وفى تلك الجلسة ، بدأت عملية التحول ، وتلقى (أحمد) أول درس فى لعبة (الجاسوس المزدوج) ، وطلب منه (ر . ج) إنفاق الأموال التى حصل عليها من (جاكوب) على نحو طبيعى ، بل والمطالبة بالمزيد ، عند عودته إلى تلك الدولة ، كما سيفعل أى جاسوس طماع ، وطالبه أيضًا بالسعى للحصول على كل ما طلبه منه (جاكوب) ، وإبلاغه كل المعلومات بمنتهى الصدق والأمانة ..

وأطلت الدهشة واضحة فى عينى (أحمد) ، وهو يستمع إلى هذا ، ولكن (ر . ج) ابتسم ، وربت على كتفه ، قائلاً :

- لا تشغل نفسك بمحاولة تفسير قواعد اللعبة الآن .. كل شىء سيفسر نفسه مع الوقت .. اطمئن .. نحن نراعى كل التفاصيل .

وجمع (أحمد) المعلومات المطلوبة بالفعل ، ودون أدنى مساعدة من (ر . ج) أو المخابرات المصرية ، وسافر ليسلمها بنفسه إلى (جاكوب) الذى أبدى سعادته وارتياحه ، ومنحه مكافأة سخية ، مع قائمة جديدة من الطلبات ، ثم ناقش معه وسيلة الذهاب والعودة ، واقترح أن يقوم (أحمد) بنشاط يتفق مع فكرة السفر ، مثل إنشاء شركة للسياحة ..

وفى نهاية المجلس ، أعلنه (جاكوب) صراحة أنه يعمل لحساب (إسرائيل) وهو يتفرس ملامحه جيدًا ..

وأدى (أحمد) دوره كأحسن ممثل درامى فى العالم ، فاتسعت عيناه ، وارتجف ، وتراجع ، وعقد حاجبيه فى تفكير عميق ، ثم لم يلبث أن سأل عن المكافأة التى سيحصل عليها بالمقابل ، وبلهجة توحى بالطمع واللهفة ..

وهنا اطمأن قلب (جاكوب) إلى هذه الخطوة ، وطلب من (أحمد) أن يستعد لتلقى بعض التدريبات ، فى كيفية الحصول على المعلومات ، وإرسالها ، وبعض الأمور الأخرى المهمة ، فى عالم التجسس .

وطوال العامين التاليين ، أثبت (أحمد) للإسرائيليين أنه جاسوس موهوب من الطراز الأول ، ومنحهم كمية لا بأس بها من المعلومات ، تحت إشراف (ر . ج) وجهاز المخابرات العامة المصرى ، حتى اطمأن جهاز المخابرات الإسرائيلى إليه تمامًا ، وقرر منحه دورة تدريبية جديدة ، لرفع مستواه ، ووضعه على مرتبة أعلى من مراتب التجسس وجمع المعلومات .

وفى العام الثالث ، أصبح (أحمد هـ) .. أفضل جاسوس فى (مصر) فى رأى جهاز المخابرات الإسرائيلى ..

وفى العام نفسه ، اندلعت حرب أكتوبر 1973م ..

ومع مرارة الهزيمة والعار ، قرر الإسرائيليون القيام بخطوة قوية .

كان لديهم إرسال جديد فائق القوة ، يستحيل كشف موقعه ، دون معرفة تركيبه أو ذبذبته مسبقًا ، وكانوا يرغبون فى تسليم هذا الجهاز لأحد عملائهم فى (مصر) ، كوسيلة لجمع المزيد من المعلومات بسرعة أكبر ، ودقة أكثر ..

وكان من الطبيعى أن يختاروا أفضل عملائهم فى (مصر) .. (أحمد) ..

ولأن الأمر ليس هينًا أو بسيطًا ، قرر رجال المخابرات الإسرائيلية استدعاء (أحمد) إلى (تل أبيب) لإعادة اختباره ، والتأكد من ولائه .

وهنا شعر (أحمد) بخوف حقيقى ..

إنه لن يواجه الإسرائيليين هذه المرة فى أرض محايدة ، وإنما فى أرضهم ولكن رجل المخابرات (ر . ج) أخذ يطمئنه ، ويشرح له الأمر ، ثم اصطحبه إلى قسم يعرف باسم (3 ج1) ليدربه على الحياة الإسرائيلية ، وعلى التعامل مع الإسرائيليين ومواجهتهم ..

وسافر (أحمد) إلى (تل أبيب) ..

وخضع للاختبار واجتازه بنجاح ، والدليل على هذا أنهم منحوه جهاز الإرسال المتطور ، وتركوه يغادر (تل أبيب) إلى دولة أوروبية وسيطة ، ليستقل الطائرة منها إلى (مصر) ..

وفى الليلة التالية مباشرة ، تلقى الإسرائيليون أول رسالة من جهازهم المتطور ..

رسالة تشكرهم على حسن تعاونهم ، على الهدية التى أرسلوها إلى (مصر) مع توقيع جهاز المخابرات العامة المصرية .

* * *

الفشـــــل

خيَّم الظلام مبكرًا على (تل أبيب) ، مع الغيوم الكثيفة ، التى حجبت السماء ، فى تلك الليلة ، من ليالى شتاء 1972م ، فأضاء رئيس قسم التجسس ، فى مبنى المخابرات الإسرائيلية مصباحًا إضافيًا على مكتبه ، وهو يراجع التقرير الطويل ، الذى قدمه له ضابطه (هيدار) ، المسئول عن التجسس فى (مصر) ، والذى جلس أمامه هادئًا واثقًا ، يتبادل حوارًا هامسًا مع زميله المعروف باسم (أبو يوسف) ، وآخر مسئول عن التجسس فى (لبنان) واستغرقهم الحوار بعض الوقت ، حتى رفع رئيس القسم عينيه عن التقرير ، وسأل (هيدار) بلهجة صارمة :

ـ معلومات جيدة يا (هيدار) ، ولكن ما زلنا نفتقر كثيرًا إلى المعلومات الخاصة بالنشاط السوفيتى فى (مصر) ، وهى ـ كما تعلمون ـ معلومات شديدة الأهمية والخطورة ، فى هذه الأيام .

أومأ (هيدار) برأسه متفهمًا ، وشملت وجهه ابتسامة واثقة ، وهو يقول :

ـ إننى فى انتظار هذه المعلومات يا سيدى ، وستصل مساء الغد على الأرجح .

رمقه رئيسه بنظرة صارمة ، وهو يسأله :

ـ أأنت واثق من هذا ؟!

أومأ (هيدار) برأسه مرة أخرى ، وهو يجيب :

ـ تمام الثقة أيها الرئيس .. عميلنا فى (مصر) أمكنه تجنيد أحد ضباط الجيش هناك ، وذلك الضابط أرسل لنا العديد من المعلومات الصحيحة من قبل ، ولقد طلبنا منه تلك المعلومات على وجه السرعة ، ووعدناه بمكافأة سخية .

وتسللت السخرية إلى ابتسامته ولهجته ، وهو يستطرد :

ـ وأنت تعلم ما يفعله المال بالضمائر ، وكيف يدير الرءوس ، ويجعل المرء مستعدًا لبيع أمه نفسها ، لو حصل على المقابل المناسب .

تطلَّع إليه رئيسه بنظرة صارمة أخرى ، فأضاف إلى سرعة :

ـ اطمئن أيها الرئيس .. إنها عملية مضمونة ، ولا يمكن أن تفشل أبدًا .

واتسعت ابتسامته ، وهو يردف فى حزم :

ـ مهما حدث .

قالها ، لأنه يثق تمامًا فى كفاءة عميله فى (القاهرة) (شاكر فاخورى) ، وفى سيطرته التامة على ضابط الجيش ، الذى تم تجنيده هناك ..

و(شاكر فاخورى) هذا شاب عابث ، لم يستطع العيش فى (مصر) ، مع رغباته الجامحة ، واحتياجه الدائم للمال ، فسافر للعمل فى (الكويت) بعض الوقت ، إلا أن عمله هناك لم يحقق له الثراء الذى ينشده ، بالسرعة التى يطمح إليها ، فترك (الكويت) إلى (بيروت) ، ثم لم يلبث أن هجرها إلى (قبرص) ..

وفى العاصمة (نيقوسيا) ، كرر (شاكر) محاولة البحث عن عمل مجز ، إلا أن طبيعته العابثة ، وافتقاره إلى الموهبة أو الخبرات اللازمة ، حال دون هذا ، مما وضعه فى موقف شديد الصعوبة ، وخاصة عندما تناقصت مدخراته إلى حد مخيف ، وأشرف على الإفلاس ، مما دفعه إلى التفكير على نحو محموم ، للبحث عن وسيلة لتدبير الموارد اللازمة ، مهما كانت ..

ولأن الأمر انتهى بعبارة (مهما كانت) ، فقد تفتق ذهنه ويأسه عن فكرة عجيبة مخيفة ، لا أحد يدرى كيف جالت بخاطره ، فى ذلك الحين ، ولكن المهم أنه لم يضع الوقت ، أو يحاول التراجع عنها ، وإنما وضعها على الفور موضع التنفيذ ، واتجه بلا تردد إلى السفارة الإسرائيلية فى (نيقوسيا) ، وطلب مقابلة الملحق العسكرى شخصيًا ..

ومن المؤكد أن الأمر كان غريبًا ، بالنسبة لكل العاملين فى السفارة ، ففى ذلك الحين ، كانت الأمور بين (مصر) و(إسرائيل) فى أسوأ أحوالها ، ولم يكن من الطبيعى أو المنطقى أن يتوجه (مصرى) ، أيًا كان شأنه ، ليطلب مقابلة الملحق العسكرى الإسرائيلى مباشرة ..

ولكن الملحق العسكرى التقى به بالفعل ، وسأله عما يريد ، ففاجأه (شاكر) بقوله :

ـ أريد التعاون معكم .

تراجع الملحق العسكرى فى بطء ، وهو يقول بحذر :

ـ التعاون معنا ؟!

لم يشأ (شاكر) أن يضيع لحظة أخرى ، لذا فقد قال فى سرعة ولهفة :

ـ باختصار .. أريد أن أعمل لديكم كجاسوس .

اتسعت عينا الملحق العسكرى عن آخرهما ، وبدا له أنه يجلس أمام أحد شخصين ، إما شخص مجنون ، أو شديد التهور ، ولكنه ، وطبقًا لما يقتضيه الموقف ، أحاله إلى ضابط المخابرات المسئول فى السفارة ، والذى استمع إليه جيدًا ، ثم

طلب منه أن يكتب كل ما يريد بخط يده ، وبعد أن فعل (شاكر) هذا ، طلب منه ضابط المخابرات الانتظار فى الفندق ، حتى يتم الاتصال به ..

ولم يدر (شاكر) كيف قضى تلك الأيام الخمسة التالية ، فقد راحت السكرة وجاءت الفكرة ، وانتبه إلى ما فعله ، وأدرك بشاعته وصعوبته ، وخشى أن ينتهى الأمر بقتله أو سجنه ، أو ...

ولكن فجأة ، وصله خطاب من السفارة الإسرائيلية ، يطلب منه الحضور إليها فى الصباح الباكر ، لمقابلة خاصة جدًّا ..

وحتى تلك اللحظة ، كان بإمكان (شاكر) أن يتراجع ، وأن يعود إلى وطنه سالمًا ، دون أن ينغمس أكثر وأكثر فى عالم الخيانة والعار ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد قرر الغوص حتى أعماق البئر ..

بئر الخيانة ..

وفى السفارة الإسرائيلية ، استقبله ضابط المخابرات الإسرائيلى (هيدار) المسئول عن نشاط التجسس فى (مصر) ، وتحدث معه قليلاً ، ثم أبلغه أنه قد قرر اختياره للتجسس فى (القاهرة) ،

وأعطاه ثلاثمائة دولار ، وطلب منه أن يعود إلى (مصر) ، وهو يودعه ، قائلاً :

ـ سنلتقى بعد شهر من الآن ، لتقييم نتيجة عملك .

وسافر (شاكر) إلى (القاهرة) ، وبناءً على أوامر ضابط المخابرات الإسرائيلى ، راح يعقد الصداقات مع بعض الساقطات ، ورواد الملاهى ، ثم تعرف على أحد ضباط الجيش ، فى ردهة فندق شهير ، فعمل على توطيد صلاته به ، وأغدق عليه الهدايا فى سخاء ، دون أن يفاتحه فى أى أمر ، أو يطلب منه أية معلومات ، مكتفيًا بإبلاغ الإسرائيليين بأمره ، طبقًا لتعليماتهم .

وبعد مرور فترة الشهر ، عاد (شاكر) إلى (نيقوسيا) ، عن طريق (بيروت) ، واتصل بضابط المخابرات الإسرائيلى فى السفارة هناك ، وسلمه كل ما لديه من معلومات ، مع كل التفاصيل التى جمعها عن الضابط المصرى ..

ومنحه ضابط المخابرات الإسرائيلية ثلاثين جنيهًا مصريًّا ، وطلب منه الانتظار ، بالفندق ، حتى يتم الاتصال به ، كما حدث فى المرة السابقة ..

ولكن فى هذه المرة كان الأمر يختلف ، فقد استقر (شاكر) فى قاع البئر ، وراح يغترف من الخيانة وينهل منها بلا حساب ،

حتى اتصل به الإسرائيلى ، بعد أربعة أيام ، وطلب منه الحضور إلى السفارة على الفور ، وهناك أبلغه رغبة مسئولى المخابرات الإسرائيلية بتعرفه عن قرب ، وسلمه جواز سفر إسرائيليًا يحمل صورته ، مع اسم (موشى إبراهيم) ، وتأشيرة دخول إلى (قبرص) ، وأخرى لدخول (إسرائيل) ، مع تذكرة طيران على شركة (العال) من وإلى مدينة (اللد) ، ثم احتفظ بجواز سفره المصرى ..

وفى (اللد) ، وجد (شاكر) ضابط المخابرات الإسرائيلى (هيدار) فى انتظاره ، حيث نقله مباشرة إلى (تل أبيب) ، ووضعه فى منزل آمن ، حتى صباح اليوم التالى ، عندما تم نقله إلى مبنى المخابرات الإسرائيلية ، ليستقبله رئيسها ، مع (هيدار) ، و(أبو يوسف) والضابط المسئول عن التجسس فى (لبنان) .

وكان هذا يعنى أن (شاكر) قد انتقل ، من مرحلة (جاسوس تحت الاختبار) ، إلى درجة (جاسوس محترف) ، وكان من الضرورى والحال هكذا ، أن يبدأ فى تلقى التدريبات الخاصة بكل الجواسيس والعملاء ..

وعلى يد مدرب يهودى ، من مواليد (الإسكندرية) ، تدرب (شاكر) على تصوير المستندات ، أو مشاهدتها بآلة تصوير دقيقة ، وتصوير المواقع بزوايا فعالة ، وفى مسافات بعيدة وعندما انتهى من هذه التدريبات ، استقبله (هيدار) فى مكتبه ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك تحقق تقدمًا ملحوظًا يا (شاكر) ، وستتلقى بالتأكيد المزيد والمزيد من التدريبات ، ولكن ..

بتر (هيدار) عبارته ، عند هذا الحد ، فارتجف (شاكر) فى مقعده ، وأطلت فى عينيه نظرة قلقة خائفة ، فابتسم (هيدار) ، مكملاً :

ـ لابد لنا من اختبار قوة أعصابك أولاً .

هتف (شاكر) ، فى مزيد من الخوف :

ـ قوة أعصابى ؟!

لم يكن يفهم ما تعنيه الكلمات ، ولكن (هيدار) هدأ أعصابه ، واصطحبه إلى قاعة صغيرة ، فى الطابق الأرضى من المبنى ، استقر فى منتصفها مقعد أشبه بقاعة طب الأسنان ، وإلى جواره بعض الأدوات الطبية الحديثة .

وبجد ارتجفت كل خلية من خلاياه ، جلس (شاكر) على المقعد ، وراح الفنيون يوصلون الأسلاك بجسده ورأسه ، ثم طرحوا عليه عشرات الأسئلة ، التى لابد وأن يجيبها بأقصى سرعة ، ودون تفكير ..

واجتاز (شاكر فاخورى) اختبار كشف الكذب بنجاح، وتأكد الإسرائيليون من أنه لا يحاول خداعهم، وانتقلوا إلى المرحلة التالية من خطة تدريبه، وتحويله إلى جاسوس محترف ..

وفى نهاية مرحلة التدريب، حصل (شاكر) على الأوامر الجديدة، وعلم أن مهمته فى (القاهرة) هى جمع معلومات وافية عن القوات الجوية المصرية، والنشاط السوفيتى فى (مصر)، ورصد تأثير الغارات الإسرائيلية الأخيرة على الشعب المصرى، وأخيرًا، وهو الأهم، العمل على تجنيد الضابط المصرى، للعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية .. نظرًا لمروره بضائقة مالية شديدة ..

وعاد (شاكر) إلى (القاهرة)، وهو يحمل حقيبة كاملة من الهدايا لصديقه الضابط المصرى، ثم لم يلبث أن أغرقه بالدعوات والحفلات والهدايا، فى محاولة لاجتذابه، وخاصة مع الضائقة المالية، التى يمر بها .

وعندما تأكد (شاكر) من توطد العلاقة بينه وبين الضابط، الذى سنطلق عليه هنا اسم (نصر)، دعاه لقضاء سهرة خاصة، فى أحد ملاهى شارع الهرم، وهناك مال على أذنه، قائلاً :

ـ ما رأيك فى وسيلة، تنهى أزماتك المالية إلى الأبد ؟!

تطلع إليه (نصر) فى دهشة، وقال :

ـ أية وسيلة هذه ؟!.. عمل إضافى ؟!

أومأ (شاكر) برأسه إيجابًا، وقال :

ـ يمكنك أن تعتبره كذلك .

بدت الحيرة على وجه (نصر)، وهو يقول :

ـ ولكن القانون يمنع الضابط من القيام بأى عمل إضافى .

ابتسم (شاكر) فى ثقة، وهو يهمس : وما لنا والقانون ؟!.. إنه عمل سرى .. سرى جدًا .

سأله (نصر) فى قلق :

ـ وما هو ؟!

وفى بطء وتأن، ودون الدخول فى التفاصيل، أو التصريح المباشر، راح (شاكر) يشرح له المطلوب، بنفس الأسلوب الذى تدرب عليه، فى المخابرات الإسرائيلية ..

وفى البداية، بدت الصدمة على (نصر)، وراح يحدق فيه بذهول، ثم لم يلبث أن لان قليلاً، وبدأ يطرح الأسئلة فى حذر شغوف ..

وعند هذه النقطة ، ارتسمت ابتسامة كبيرة فى أعماق (شاكر) ، فقد كان طرح الأسئلة ، والسؤال عن التفاصيل ، يعنى عدم الاعتراض على المبدأ ، والاستعداد لمناقشة الأمر من منظور متعادل ، أقرب إلى الموافقة ، منه إلى الرفض ..

وعندما انتهت السهرة ، كان (شاكر) قد حصل على موافقة مبدئية ، مع مطلب متلهف ، للحصول على دفعة مالية مقدمة ..

وكان هذا يعنى النجاح .. منتهى النجاح ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد بدأت المخابرات الإسرائيلية تعاونها مع (نصر) بحذر شديد ، فطلب منه (شاكر) فى البداية بعض المعلومات العسكرية ، التى يعرفها الإسرائيليون بالفعل ، كوسيلة لتأكيد صدق نواياه ، واستعداده الحقيقى للتعاون ..

وغاب (نصر) ليومين كاملين ، ثم عاد بالمعلومات المطلوبة ، وهو يطلب مكافأته فى لهفة شديدة ، متعللاً بظروفه المالية العسيرة ، ولكن (شاكر) اعتذر عن تقديم أية أموال قبل أن يتلقى الأمر بهذا ، من القيادة فى (تل أبيب) ..

وهناك ، فى مبنى المخابرات الإسرائيلية راح (هيدار) وفريقه يدرسون ما أرسله (نصر) من معلومات ، قبل أن يبتسم ضابط المخابرات الإسرائيلية ، ويرفع عينيه إلى زميله ، قائلاً :

ـ أعتقد أنه يستحق المكافأة ..

وفى اليوم التالى ، حصل (نصر) على مائتى دولار أمريكى ، مع قائمة جديدة من الطلبات ، تتضمن معرفة بعض المعلومات عن وسائل التموين العسكرية ، والنقل ، وموجة اتصالات القوات الجوية المصرية ..

واعترض (نصر) بأن المعلومات المطلوبة شديدة الصعوبة ، ولكن (شاكر) طلب منه بذل أقصى جهد ممكن للحصول عليها ، ووعده بمكافأة تتجاوز الخمسمائة دولار ، لو أنه نجح فى هذا ..

وفى هذه المرة ، غاب (نصر) لخمسة أيام كاملة ، ثم عاد ببعض المعلومات الخاصة بوسائل التموين والنقل وأعلن أنه عجز تمامًا عن معرفة موجة اتصالات القوات الجوية ..

وعندما تلقى الإسرائيليون هذا ، ابتسم (هيدار) ، قائلاً :

ـ عظيم .. عظيم .. لو أنه أرسل موجة الاتصالات ، لأدركت أنه يعمل لحساب المخابرات المصرية .

ثم هزَّ رأسه فى رضا وارتياح ، مستطردًا :

ـ أعتقد أننا سنحصل على الكثير والكثير ، من ذلك الضابط المصرى .

ومنذ ذلك الحين أصبح ضابط المخابرات الإسرائيلية ، المسئول

عن التجسس فـى (مصـر) ، واثقًا من أنـه يسيطر تمامًا علـى جاسوس شديد الأهمية ، والخطورة ، فى قلب الجيش المصرى ..

لذا ، فقد انتقل بعد عدة مطالب محدودة ، إلى الهدف الرئيسـى مباشرة .

وفى أوائل عام 1973م ، وأثناء وجود (شاكر) فـى (نيقوسيا) ، التقى به (هيدار) ، وناقش معه بعض الأمور الخاصـة بالضـابط (نصر) ، ثم قال له فى النهاية :

ـ نريد معرفة كل المعلومات الممكنة ، عن النشـاط السـوفيتى فى (مصر) .. ضع هذا على قمة الأولويات ، فى هذه الفترة .

سأله (شاكر) فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أن (نصر) يمكنه الحصول على مثل هذه المعلومات ؟!

صمت (هيدار) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم صارم مقتضب :

ـ أجـل .

وفور عودته إلى (القاهرة) التقى (شاكر) بالضابط المصـرى ، وأبلغه مطلب رؤسائه فى (تل أبيب) ، فثار (نصر) ، وغضـب ، وأخبره أن هذه المعلومات بالغـة الخطورة ، ثم لم يلبث أن تحـول من الثورة إلى اللهفة ، وهو يسأل ، كم يدفع الإسرائيليون مقـابل هذه المعلومات ؟!

ولم يكد (شاكر) يذكر المبلغ الذى يقترب من خانـة الآلاف ، حتى سال لعاب (نصر) فى وضوح ، وأبلغه أنه سيبذل قصـارى جهده للحصول على المعلومات ، فمال (شاكر) نحوه ، قائلاً :

ـ ولكـن مثـل هـذه المعلومـات لا يمكن قبولها دون وثـائق مضمونة .

سأله (نصر) مبهوتًا :

ـ وكيف يمكن الحصول على شىء كهذا ؟!

أجابه (شاكر) وهو يغمز بعينه ، ويلوح بكفه بلا معنى :

ـ أحضر أنت الوثائق ، واترك لى الباقى .

واتفقا على أن يتم هذا فى شقة مفروشة ، استأجرها (شاكر) فى أطراف (القاهرة) ، بعد يومين فحسب ..

وفى الموعد المحدد ، وصل (نصـر) ، وهـو يحمل الوثـائق ، وبدأ (شاكر) فى تصويرها ..

وفجـأة ، اقتحـم المكان عدد من الرجال ، اندفع بعضهم نحـوه ، وأمسكوا به متلبسًا ، فى حين اتجه نحـوه رجل ممشوق القوام ، أصلع الرأس ، وواجهه فى حزم وصرامة قائلاً :

ـ أنا (م . ن) ، من المخـابرات المصرية ، وزميلى هو وكيل

نيابة أمن الدولة .. إننا نلقى القبض عليك ، بتهمة التخابر لحساب دولة أجنبية ، فى زمن الحرب ..

انهار (شاكر) تمامًا ، وراح يبكى ويتوسل ، إلا أنه لم يلبث أن تلقى صدمة هائلة ، عندما صافح رجل المخابرات (نصر) ، قائلاً :

ـ أشكرك على تعاونك معنا أيها الضابط .

وفى ذهول ، هتف (شاكر) :

ـ أنت ؟!.. أنت تعمل مع المخابرات المصرية يا (نصر) ؟!

شدّ الضابط قامته ، وهو يجيب :

ـ وماذا كنت تتصوّر ؟!

سأله (شاكر) ذاهلاً :

ـ ومنذ متى تفعل ؟!

أجابه بسرعة :

ـ من قبل أن تفاتحنى بالأمر ، فلقد أرابتنى كثرة هداياك ، بمناسبة وبدون مناسبة ، فذهبت إليهم ، وطرحت عليهم كل شكوكى ، ثم بدأت أتعاون معهم للإيقاع بك .

هتف (شاكر) :

ـ ولكنك تعانى من أزمات مالية خانقة .

انعقد حاجبا (نصر) ، وهو يجيب فى حزم وصرامة :

ـ أموال الدنيا كلها لا تكفى لخيانة الوطن يا رجل .

وهنا ، وقبل أن تتم محاكمته ، ويصدر الحكم بإعدامه ، أدرك (شاكر) أن تعاونه مع المخابرات الإسرائيلية لم يدفعه إلى الثراء ، الذى يحلم به منذ البداية ..

لقد دفعه نحو أمر واحد ، لم يدر بخلده قط ، عندما بدأ رحلة الخيانة ..

نحو الفشل ..

وبلا حدود .

* * *

أخطر جاسوس

من المؤكد أن حرب أكتوبر 1973م ، كانت مفاجأة ، استيقظ عليها العالم كله ، وأدرك فى لحظة واحدة ، أن العرب والمصريين قد يتحملون ويصبرون طويلاً ..

لكنهم أبدًا لا ينسون .. ولا يستسلمون ..

وبالنسبة للمجتمع الإسرائيلى ، لم تكن الحرب مجرد مفاجأة .. لقد كانت صاعقة ، انقضت على رأس الشعب الإسرائيلى ، وقلب ومعدة وأحشاء الجيش الإسرائيلى ، وقيادته السياسية كلها ..

واختل توازن الجميع ، والجيش المصرى يتدفق كنهر من الحزم والإرادة والقوة ، عبر قناة (السويس) ، ويقهر خط (بارليف) ، ويغمس الأنف الإسرائيلية فى رمال (سيناء) ، ليرفع فوقها علم (مصر) عاليًا ..

وتوالت الأحداث بسرعة مدهشة ، دارت معها العيون فى محاجرها ، والرءوس فى جماجمها ، وتغيرت معها أحداث الخريطة ، حتى قبل أن ينتصف الليل ..

ورفرف علم الهزيمة ضخمًا واضحًا ، وربما لأول مرة ، فوق رءوس الإسرائيليين ..

ومع الهزيمة ، انهالت الاتهامات على القيادة السياسية والعسكرية .. وتوالت العقوبات على الجميع بلا رحمة أو هوادة ..

وكانت المخابرات الإسرائيلية هى صاحبة النصيب الأكبر بالطبع ، لعجزها عن كشف نية المصريين ، وفشلها فى التنبؤ بالحرب ، التى أذلت ناصية الجيش الإسرائيلى ، كما لم تفعل أية مواجهة سابقة .

ومع تغير القيادات ، فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، كان من الطبيعى أن يكون أول ما تفعله القيادة الجديدة ، هو دراسة كل ما يتعلق بالهزيمة ، ومحاولة معرفة كل ما أدى إليها ..

وبعد دراسة مستفيضة ، ظهرت عشرات الأسباب ..

وعشرات النتائج المخيفة ..

وعلى رأس تلك النتائج حقيقة رهيبة للغاية ..

لقد نجح المصريون فى اختراق كل أجهزة الأمن الإسرائيلية ..

بلا استثناء ..

ولكن الأمر الذى أخذ يؤرقهم بشدة ، هو أنهم يجهلون كيف ومتى حدث هذا الاختراق بالضبط .

والأكثر خطورة أنهم ما زالوا يجهلون هوية الأفراد ، الذين

جندتهم المخابرات المصرية ، فى كل موقع ، داخل أجهزة الأمن المختلفة ..

وبالذات داخل مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ..

فسير الأحداث على هذا النحو ، كان يؤكد حتمية وجود جاسوس للمصريين ، فى قلب مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ، وفى أحد المواقع المهمة فيه أيضًا ..

ولأنه من المستحيل اتهام الجميع ، أو عزل كل القيادات ، ذات الخبرة الطويلة ، عن مواقعها ، راح جهاز المخابرات الإسرائيلى يجرى تحقيقات استغرقت ستة أشهر كاملة ، دون الوصول إلى دليل واحد يمكن أن يكشف أمر ذلك الجاسوس الخطير ..

لذا ، فقد اجتمع رجال المخابرات الإسرائيليون ، وراحوا يراجعون ملفات كل المشتبه فيهم للمرة العاشرة قبل أن يقول مديرهم فى صرامة متوترة :

ـ دعونا نعترف بأنه لو كان للمصريين جاسوس بالداخل فعلاً ، فقد أتقنوا اللعبة إلى حد يحسدون عليه ! فالجميع فى مركز المعلومات العسكرية الرئيسى لهم ملفات غاية فى النظافة ، ولا يمكننا اتهام أحدهم قط .

أجابه أحد رجاله :

ـ ومن المستحيل ألا يكون لهم جاسوس بالداخل أيضًا ، فالمعلومات التى كانوا يمتلكونها ، عند قيام الحرب ، لا يمكنهم الحصول عليها إلا من مصدر داخلى .

هز المدير رأسه ، وقال :

ـ المشكلة الحقيقية هى أن تلك المعلومات كان يمكن الحصول عليها من خلال سبعة أشخاص ، وكلهم يحوزون ثقة القيادة السياسية ، حتى إنه من المستحيل أن نطالب بإلقاء القبض على أحدهم ، أو حتى عزله ، دون دليل قوى لا يقبل الشك .

راحوا يناقشون المشكلة زهاء ساعة كاملة ، قبل أن يزفر أحدهم فى توتر بالغ ، ويقول :

ـ لو أردتم رأيى ، فهذه المشكلة لا يمكن حلها إلا من الداخل .

التفت إليه الجميع بعيون متسائلة ، وسأله المدير فى اهتمام :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟

اعتدل ، مجيبًا :

ـ إننا نحتاج إلى مراقب من الداخل .. شخص يعمل لحسابنا ، يكون عينا لنا على كل ما يحدث هناك ، ويمكنه متابعة المشتبه فيهم لحظة بلحظة ، دون أن نتدخل مباشرة ، حتى لا يتم تجميد نشاط الجاسوس ، قبل أن نكشف أمره .

كانت الفكرة أنيقة ومنطقية ، حتى إنها لاقت قبولاً فوريًا من الجميع بعد مناقشة قصيرة .. ولكن النقطة الوحيدة ، التى كانت تحتاج إلى تفكير طويل ، هى من الشخص الذى يمكن منحه الثقة ، ليعمل كعين للمخابرات الإسرائيلية ، داخل مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ، الذى يتبع رسميًا المخابرات الحربية (أمان) ، التى ترفض الاعتراف بوجود جاسوس للمصريين بين رجالها ؟!

هذه النقطة وحدها استغرقت يومين كاملين من المناقشات والمحاورات ، وعشرات الملفات ، التى تم فحصها ومراجعتها ، وتجنيب معظمها ..

وأخيرًا استقر اختيارهم على شخص واحد ..

(جوش ماكلوسكى) ، رئيس طاقم الأمن فى مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ..

كانت اختيارًا منطقيًا منذ البداية ، إذ إنه أكثر من يعرف العاملين هناك ، بحكم موقعه ومنصبه ، وأكثر الجميع قدرة على التجول فى المكان بحرية ، وإلقاء الأسئلة على الكل ، دون أن يتصور أحد أنه عين للمخابرات الإسرائيلية (الموساد) ..

وبعد أن وقع الاختيار عليه ، كان لابد من مقابلته ، وعرض الأمر عليه ، وضمان موافقته وحماسه للقيام بالدور ، الذى سيكشف

فى حالة نجاحه أخطر جواسيس المصريين ، فى قلب أخطر جهاز أمنى إسرائيلى ..

وذات ليلة ، وعندما غادر (جوش) سيارته الصغيرة أمام منزله البسيط فى قلب (تل أبيب) ، اعترض طريقه رجل ممتلئ الجسد ، يلهث على نحو واضح ، وكأنما قطع نصف العالم عدوًا منذ قليل! وقال وهو يبرز أمامه بطاقة يحفظها جيدًا :

ـ (جوش ماكلوسكى) .. أنا العقيد (ليفى) .. كنت أريد أن أتحدث إليك قليلاً .

تطلع (جوش) إلى البطاقة فى توتر بالغ ، قبل أن يسأله فى عصبية :

ـ هل تتهمنى بشىء ما يا أدون (ليفى) ؟!

هز الرجل رأسه نفيًا ، ومال نحوه ، وهو يواصل لهاثه غير المبرر أو المفهوم ، قائلاً :

ـ على العكس يا (ماكلوسكى) .. إننا نريدك أن تتعاون معنا .

ارتفع حاجبا (جوش) فى دهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ أتعاون معكم ؟!.. ماذا تعنى ؟!

اعتدل الرجل ، وربت على كتفه مرتين ، ولهث ثلاث مرات ، قبل أن يجيب بابتسامة عريضة ، تتناسب تمامًا مع حجمه :

ـ ماذا أعنى ؟.. إنه أمر يحتاج إلى نقاش طويل ، ولو أردت رأيى ، فالأفضل ألا نتحدث عن هذا فى منزلك .. ما رأيك لو دعوتك لتناول مشروب بارد فى أقرب مقهى ؟

كانت دهشة (جوش) عارمة بحق ، وقد امتزجت بالكثير من الشك والحذر والقلق ، إلا أنه أطاع العقيد (ليفى) ، واستقل معه سيارته الأمريكية الفارهة ، إلى أقرب مقهى ، حيث اتخذ مقعدين منعزلين ، حول مائدة صغيرة ، ومال (ليفى) نحوه قائلاً فى خفوت لاهث :

ـ من الناحية الرسمية ، أنت تعمل فى قطاع عسكرى ، والمفترض أن تتولى (أمان) كل ما يتعلق به ، ولكننا نجرى تحريات شاملة ، حول أسباب ما حدث فى أكتوبر الماضى ، وهذه التحريات قادتنا إلى حيث تعمل ، و ...

راح يشرح له الأمر كله ، و(جوش) يستمع إليه فى اهتمام بالغ ، وبدهشة بلغت ذروتها ، دون أن يفارقه حذره وقلقه لحظة واحدة ، وإن هدأت أعصابه رويدًا رويدًا ، وهو يشعر أن الرجل صادق تمامًا فيما يطلبه ، وأن ما يقوله ليس مجرد مناورة لبلوغ هدف خفى آخر ..

وبعد ساعة كاملة من الحوار والتساؤلات والشرح والإجابات ، مال (جوش) نحو العقيد (ليفى) ، وقال :

ـ ما تطلبونه منى قد يكلفنى وظيفتى ومستقبلى ، لو انكشف الأمر .

ابتسم (ليفى) ، وقال :

ـ ومن ذا الذى سيكشفه ؟.. إنك ستعمل لحسابنا يا رجل ، ونحن لسنا مجرد وزارة حكومية تافهة .

ثم عاد يميل نحوه بدوره ، مضيفًا فى حزم :

ـ ثم إنك لن تخسر وظيفة أو مستقبلاً ، فلو تعاونت معنا بصدق ، سيكون لك مكان بيننا حتمًا .

تراجع (جوش) فى بطء ، وعيناه مركزتان على وجه (ليفى) ، ولاذ بالصمت لدقيقة كاملة ، قبل أن يضيف هذا الأخير فى حزم صارم :

ـ المهم ألا يعلم مخلوق واحد بما دار بيننا هنا أبدا .. أى مخلوق ..

ولأن طبيعة (جوش) وشخصيته ، وطبيعة التدريبات التى تلقاها ، كانت تحتم عليه التأنى والتروى ، قبل اتخاذ أى قرار ، فقد طلب من (ليفى) مهلة التفكير .. ومنحه إياها رجل المخابرات الإسرائيلى ، لمدة يومين فحسب ، ثم كرر تحذيره بحتمية ألا يعلم مخلوق واحد ، أيًا من كان ، بطبيعة الحوار ، الذى دار بينهما ..

ولكن (جوش) لم يعمل بنصيحته تمامًا ..

كان يدرك جيدًا أنه سيخضع لمراقبة دائمة ودقيقة ، من جهاز المخابرات الإسرائيلى ، حتى يتم حسم الأمر .. لذا فقد واصل حياته العادية ، وواظب على عمله بنفس الأسلوب ، وعلى الرغم من هذا ، فقد نجح خفية ، وبوسيلة غاية فى البراعة ، فى الاتصال ببعض أصدقائه ، وطرح عليهم عرض المخابرات الإسرائيلية ، ثم طلب مشورتهم ..

ولا ريب فى أن أولئك الأصدقاء كانوا يماثلونه هدوءًا وترويا ، فقد بحثوا الأمر فيما بينهم جيدًا ، ثم أبلغوه ، بنفس الوسيلة الخفية البارعة ، أن عليه قبول العرض بشىء من التحفظ .

وهكذا التقى (جوش) و(ليفى) مرة أخرى ، طبقًا للموعد المحدد مسبقًا ، وأعلن الأول موافقته ، مما أثلج صدر الثانى ، وشجعه على بدء الدخول فى التفاصيل ..

ولأول مرة فى حياته زارَ (جوش ماكلوسكى) مبنى (الموساد) فى (تل أبيب) ، والتقى بعدد من الرجال هناك ، راحوا يشرحون له ما عليه أن يفعله ، وكيف يراقب الجميع ، ويرصد تحركاتهم أولاً فأولاً ، حتى يكشف من منهم يعمل لحساب المصريين من قبل حرب عيد الغفران ..

ولقد أدى (جوش) عمله بمهارة ودقة واهتمام ، أثارت إعجاب الجميع واحترامهم ، فقد راح يرصد تحركات المشتبه فيهم السبعة ، فى كل يوم وساعة ودقيقة ..

بل فى كل لحظة ، منذ يبدءون أعمالهم ، وحتى يغادروا المبنى ..

ومساء كل ليلة سبت ، كان رجال المخابرات الإسرائيليون يتلقون منه تقريرًا مفصلاً يحوى أكثر مما يحلمون به بكثير ..

ولكن حتى هذا لم يسفر عن شىء ما ..

فبعد ثلاثة أشهر كاملة ، وأثناء لقائه الدورى بالعقيد (ليفى) ، زفر (جوش) فى توتر بالغ ، ولوح بذراعه كلها ، قائلاً :

ـ لا شىء .. لا يمكننى حتى مجرد الاشتباه فى أحدهم .

انعقد حاجبا (ليفى) الكثيفان ، ولهث بشدة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ مستحيل !.. هناك جاسوس بينهم حتمًا .

هزَّ (جوش) رأسه فى قوة ، وهو يجيب :

ـ دعنى أنا أستعير منك كلمة مستحيل هذه ، فأنا أعرفهم جميعًا منذ البداية ، وأراقبهم بمنتهى الدقة ، طوال ثلاثة أشهر ، ويمكننى أن أجزم أنهم فى نصاعة ثلوج الشتاء .

ازداد انعقاد حاجبى (ليفى) ، وهو يسأله فى خشونة :

- هل سئمت العمل ؟!

هز (جوش) رأسه نفيًا مرة أخرى ، وأجاب :

- كلا بالتأكيد .

ثم مال نحوه بحماس مباغت متابعًا :

- ولكننى أرغب فى تطويره .

بهت (ليفى) لقوله ، فازدرد لعابه ، وتضاعف لهاثه ، وهو يسأله :

- كيف ؟!

أجاب بنفس الحماس :

- سأنقل المراقبة إلى الصف الثانى .. طاقم السكرتارية والمعاونين .. إنهم أقرب الرجال إلى المديرين ، وربما يحصل أحدهم على المعلومات بوسائل غير مباشرة ، عن طريق الكبار ، الذين يجهلون كل شىء .

كانت الفكرة واضحة ومنطقية للغاية ، حتى إنها راقت كثيرًا للعقيد (ليفى) ولكل زملائه ورؤسائه فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، فصدرت الأوامر إلى (جوش) بتنفيذها على الفور ..

وهكذا تطورت المراقبة ، وانتقلت إلى رجال الصف الثانى ، فى مركز العمليات العسكرية الرئيسى ..

وعلى الرغم من أن هذا كان يحتاج إلى ثلاثة أضعاف الجهد ، فقد واظب (جوش) على إرسال تقاريره إلى المخابرات ، مساء كل ليلة سبت ، بنفس الإيقاع والدقة ، وعلى نحو جعلهم يرشحونه بالفعل للعمل فى (الموساد) ، بعد انتهاء العملية ..

وسارت الأمور على هذا النمط لأربعة أشهر أخرى ، و ...

وفجأة ، استيقظ العقيد (ليفى) على رنين هاتف منزله المفاجئ ، فى الثالثة والنصف صباحًا ، فقفز من فراشه والتقط سماعته ، هاتفًا :

- من المتحدث ؟!

أتاه صوت (جوش) ، وهو يقول فى توتر شديد :

- أدون (ليفى) .. لقد .. لقد توصلت إليه .

خفق قلب (ليفى) فى عنف ، وهتف به :

- الجاسوس المصرى ؟!.. أتقصد الجاسوس المصرى ؟!.. هل توصلت إليه ؟!

- نعم .. لقد كشفت أمره .. اليوم حاول أن يحصل على وثائق

جديدة ، ولكننى كشفت أمره .. أسرع يا أدون (ليفى) .. أخشى أن يبادر بالفرار ..

لقد أدرك حتمًا أننى كشفت أمره .

هتف (ليفى) ، وقد جف حلقه ، وبلغ لهاثه منتهاه :

ـ من هو يا (جوش) ؟!.. من ؟!

ـ (برايان) .. مساعد الجنرال (جولهى) .. لقد كشفته أثناء نوبتجية الليل ، ولكنه اختفى .. أخشى أنه قد أدرك أن أمره قد انكشف .. أسرع يا أدون (ليفى) .. أسرع ..

ولم يضع العقيد (ليفى) لحظة واحدة ..

لقد اتصل بكل أجهزة الأمن التى يعرفها ، وهرع كالصاروخ إلى مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ، وقام بكل الاتصالات الممكنة ، حتى لا يصطدم بغضب المخابرات الحربية (أمان) ، و ... ، و ...

ولكن (برايان) كان قد اختفى تمامًا ..

لقد نجح بوسيلة ما ، فى مغادرة (إسرائيل) كلها ، قبل أن تطبق الحلقة حول عنقه ..

وبقدر ما شعر الإسرائيليون بالارتياح ، لأنهم كشفوا أمر الجاسوس المصرى ، إلا أن الغضب ملأ نفوسهم لنجاحه فى الفرار من قبضتهم ..

ومن (القاهرة) بلغتهم أنباء عن وصول (برايان) ، وعن تهريبه إلى جهة غير معلومة ، فى (أمريكا اللاتينية) ، بعد أن حصل من المخابرات المصرية على مكافأة كبيرة ، نظير كل ما نقله إليهم ، من أسرار مركز المعلومات العسكرية الرئيسى ..

وبعد سلسلة طويلة من التحقيقات ، وإعادة فحص ملف (برايان) عدة مرات ، تقرر إغلاق ملف الجاسوس المصرى تمامًا ..

وحصل (جوش) على مكافأة كبيرة بالطبع ..

ولكنه لم ينتقل للعمل فى (الموساد) ..

لقد فضل البقاء فى موقعه ، كرئيس طاقم أمن مركز المعلومات الرئيسى ، خاصة أن أحدًا لم يعلم بالدور الذى قام به فيه ، لحساب (الموساد) ..

وفى أول إجازة له ، ولأنه حصل على مكافأة سخية قرر (جوش) القيام برحلة سياحية إلى (أوروبا) ..

وإلى (باريس) بالتحديد ..

وهناك ، وما أن استقر به المقام ، فى فندق (ريتز) ، الذى يطل على برج (إيفل) مباشرة ، حتى تلقى اتصالاً هاتفيًا من أحد أصدقائه ، وتبادل معه عبارة متفق عليها ، قبل أن ينهض لاستقباله فى غرفته .

وبحرارة بالغة ، التقى الاثنان وابتسم الصديق ابتسامة كبيرة ، وهو يقول ..

ـ أعتقد أن اللعبة قد انتهت بنجاح يا (جوش) .

ابتسم (جوش) ، وهز كتفه ، قائلاً :

ـ أنتم أجدتم القيام بها إلى أقصى حد يا سيدى (رفعت) .. صحيح أنها كانت مصادفة مدهشة ، أن يقع اختيار (الموساد) على بالذات ، ولكنكم أحسنتم استغلال هذا بأسلوب عبقرى ، بحق ، فتجنيدكم (برايان) بعدها ، ثم إقناعه بانكشاف أمره ، وبحتمية فراره من (إسرائيل) على وجه السرعة ، أقنع الجميع أنه الجاسوس الذى نقل إليكم كل المعلومات ، قبل حرب أكتوبر .

ربت رجل المخابرات المصرى (رفعت) على كتفه ، قائلاً بنفس الابتسامة الكبيرة :

ـ لم يكن من الممكن أن نضيع فرصة كهذه ، ولا أن نجازف بفقدان رجل مثلك .. لقد منحتنا العديد من المعلومات التى ساعدتنا على الانتصار ، وعلى اقتحام خط (بارليف) ، وكان من الطبيعى أن نحميك ، وأن نمنحك غطاء ، يكفى لمواصلة عملك ، فى نفس الموقع ، لفترة طويلة قادمة .

ضحك (جوش) ، وقال :

ـ من يصدق أنهم كلفونى البحث عنى طوال الوقت .

ابتسم (رفعت) ، وقال :

ـ هذا انتصار آخر يا رجل ، فهو يثبت أن ملفك بدا لهم ناصع البياض ، على نحو لا يمكن أن يتطرق إليه الشك .

لم يعلق (جوش) ، ولكنه كان يدرك أن رجل المخابرات المصرى على حق ..

لقد صنعت منه المخابرات المصرية جاسوسًا محترفًا ..

بل أخطر الجواسيس .

* * *

المهاجر

لم تكن شمس السادس من أكتوبر ، عام 1973م قد أشرقت بعد على (مصر) ، ولم يكن شعبها قد استيقظ من نومه ، أو بدأ حياته اليومية ، باستثناء فئات محدودة للغاية ، من موزعى الصحف وباعة الألبان ، وبعض سائقى سيارات الأجرة ، عندما أضيئت أنوار قاعة الاجتماعات الرئيسية ، فى مبنى الأمن القومى ، داخل جهاز المخابرات العامة ، ليدلف إليها عدد من الرجال ، لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وعلى رأسهم مدير الجهاز شخصيًا ، الذى اتخذ مجلسه على رأس مائدة الاجتماعات ، وانتظر حتى احتل الجميع مقاعدهم ، قبل أن يقول فى حزم :

- اقتربت ساعة الصفر أيها السادة .

أومأ الرجال الخمسة برءوسهم فى صمت ، معلنين إدراكهم لتلك الحقيقة ، التى انتزعتهم من فُرُشهم ، بعد ساعات ثلاث من منتصف الليل ، وأحضرتهم بأقصى سرعة إلى ذلك المكان ، فاعتدل المدير ، قائلاً :

- كل القادة الآن فى غرفة العمليات الرئيسية ، يراجعون كل التفاصيل ، وسيلحق بهم سيادة الرئيس شخصيًا ، بعد ساعتين على الأكثر ، وسيادة اللواء (حسنى مبارك) ، قائد القوات الجوية ،

يستعد لتوجيه الضربة الجوية الأولى ، وكلهم ينتظرون آخر ما لدينا من معلومات ، وعلينا أن نراجع كل ما وصلنا ، من كل عملائنا ، فى قارات العالم الست ، فى أسرع وقت ممكن ..

لم يناقش الرجال الأمر ، وإنما انهمكوا فى مراجعة سيل المعلومات ، الذى ينهمر بلا توقف ، من كل مكان فى العالم ، وتولى أحدهم نقل آخر النتائج للقيادة السياسية أولاً فأولاً ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه سلسلة من التحركات ، فى كل الاتجاهات والجبهات ، استعدادًا للضربة القادمة ، التى تثأر فيها (مصر) لكرامتها ، وتدافع فيها عن سيادتها ، وتسترد بها أرضها المحتلة السليبة ..

الرئيس (أنور السادات) انتقل إلى غرفة العمليات الرئيسية ، وراح يراجع المعلومات والخرائط مع رجاله وقادته ، ويدرسون كل النتائج المحتملة سياسيًا وعسكريًا ، بعد الضربة الأولى ..

قائد القوات الجوية (حينذاك) (حسنى مبارك) ، يستعد لإطلاق أسراب نسوره ، لدى خط (بارليف) ، وتوجيه الصفعة الأولى للعدو ..

قادة الكتائب والوحدات وفرق الجيش يستعدون ، على طول الجانب الغربى للقناة ، للحظة الصفر .

رجال الضفادع البشرية انطلقوا لتنفيذ أهم أدوارهم ، وإغلاق أنابيب النابالم ، تحت مياه قناة (السويس) ..

ورجال الصاعقة والكوماندوز يهبطون بمظلاتهم خلف خطوط العدو ، لقطع طرق مواصلاته ، ومنع إمداداته ووسائل تموينه ..

ثم اندلعت الحرب ..

نسور (مصر) عبروا قناة (السويس) فى آن واحد ، وبصوت أشبه بهزيم الرعد ، زلزل قلوب الأعداء ، وتفجر فى أعماقهم ، حتى قبل أن تنفجر قنابلنا فى أقوى خط دفاعى عبر التاريخ (على حد قولهم) ، وتدك حصونه دكًّا ..

ثم انطلق الأبطال يعبرون القناة ، ويهاجمون القابعين فى خط (بارليف) ، ويضعون أمام عيونهم ، ولأول مرة ، حقيقة المقاتل المصرى الجسور ، ويذيقونهم ما يمكن أن تفعله مواجهة حقيقية ، مع أسود (مصر) وأبطالها ..

وارتفع العلم المصرى على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ..

وسقط خط (بارليف) .. وسقطت معه أسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى ، الذى لا يقهر ..

ولعدة أيام متصلة ، لم يذق الرجال طعم النوم ، فى قلب المخابرات

العامة المصرية ، وهم يتابعون كل ما يصلهم من تقارير ، من عشرات العملاء ، وخاصة من أولئك الذين اخترقوا صفوف العدو ، وانغرسوا فى أكثر مواقعه أهمية وخطورة وحساسية ، وراحوا ينقلون ، وبمنتهى الدقة ، ردود الفعل السياسية والعسكرية والشعبية ، لتلك الهزيمة الساحقة ، التى غرست أنوف الإسرائيليين فى تراب (سيناء) ، وسحقتها تحت أقدام المصريين ..

وعندما هدأت الأمور ، واستقرت إلى حد ما ، وبينما كان الرجال يتابعون النتائج الأخيرة ، ويحاولون تقييم الموقف ، وثقتهم تبلغ ذروتها ، بعد أن تأكدوا من نجاح خطتهم الخداعية ، فى مفاجأة العدو بالحرب الشاملة ، اعتدل أحدهم فى مقعده ، وقال فى اهتمام :

ـ أعتقد أن الوقت قد حان ، لحسم بعض الأمور الداخلية أيضًا .

ابتسم المدير ، قائلاً :

ـ آه .. إنك تقصد عملية (المهاجر) بالتأكيد .

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. لقد كنا نبقى على ذلك الجاسوس ، حتى يمكننا استخدامه لنقل ما نرغب من معلومات زائفة للعدو ، كجزء من خطة الخداع ، وما دامت الحرب قد اندلعت بالفعل ، فلم تعد هناك حاجة لوجوده .

كانت عبارته شرارة لبدء مناقشة جديدة ، حول موقف ذلك الجاسوس ، وما إذا كان من الممكن الإبقاء عليه ، واستمرار استخدامه لخداع العدو ، لفترة أخرى قادمة ، أم إن وجوده لم يعد له ما يبرره ، بعد أن انهزم الإسرائيليون بالفعل !!..

وفى نهاية المناقشة ، استقر الأمر على الرأى الثانى ، فاعتدل المدير فى مجلسه ، وجذب ملف عملية (المهاجر) ، ووضع فوقها تأشيرة مختصرة صريحة ..

يتم إنهاء العملية فورًا ..

وكان هذا إيذانًا بالإيقاع بجاسوس جديد من جواسيس المخابرات الإسرائيلية فى (مصر) ..

وإيذانًا بإنهاء العملية ..

عملية (المهاجر) .

* * *

(نبيل النحاس) ، لبنانى من مواليد (السويس) ، عام 1936م ، هاجر والده إلى (مصر) ، مع إحدى البعثات التبشيرية ، وراقت له الحياة فيها ، فاستقر مع زوجته ، وأنجب (نبيل) ، وثلاثة أبناء آخرين ، تفتحت عيونهم على سماء (مصر) ، واستنشقت أنوفهم هواءها ، ونشئوا بين أهلها ، وترعرعوا فى ظل أمنها ..

وكان (نبيل) أسعدهم حظًا فى البداية ، فقد أتم دراسته الثانوية ، ثم التحق بكلية التجارة ، جامعة (القاهرة) ، ولم يكد يحصل على شهادته منها ، حتى تم تعيينه فى منظمة الشعوب الأفروآسيوية ، ثم لم يلبث أن حصل على عمل بالقطعة ، فى وكالة (أسوشيتد برس) للأنباء ، جعل دخله يقفز إلى مائة وعشرين جنيهًا شهريًا ، وهذا دخل كبير للغاية ، فى تلك الفترة فى أواخر الخمسينيات ..

وكان من الممكن أن يحيا (نبيل) حياة الملوك ، بمبلغ كهذا ، لولا عقبة واحدة ، لقد كان من الشبان اللاهين ، الذين يقضون أعمارهم ما بين الملذات والسهرات الحمراء ، وحياة العبث والصخب ..

وحياة كهذه لا يكفيها أى مبلغ ، مهما بلغت ضخامته ، خاصة وأن (نبيل) كان يعشق التنقل طوال الوقت ، ما بين (بيروت) و(باريس) و(القاهرة) ، وكانت جنسيته اللبنانية تمنحه حق السفر فى أى وقت ، على الرغم من صعوبة ذلك ، فى فترة ما بعد الثورة ..

ومع أسفاره وتنقلاته المستمرة ، وميوله للعبث واللهو ، كان من الطبيعى أن يلفت (نبيل) أنظار رجال المخابرات الإسرائيلية ، الذين وجدوا فيه خامة مناسبة للعمل معهم ، حتى إن ضابطهم (إلياهو) قد طرح الفكرة للمناقشة ، قائلاً :

ـ إنه شاب لاه ، لا يقيم وزنًا سوى للمال فحسب ، وهذا الطراز يمكنه خيانة والده نفسه ، لو حصل على المقابل المادى المناسب .

هزَّ رئيسه رأسه ، قائلاً :

ـ ولكنه عربى ، ويقيم فى (مصر) منذ مولده ، وسيشعر ببعض الانتماء تجاهها .

ثم لوَّح بسبَّابته فى وجهه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وتذكر أن كل محاولاتنا لتجنيد اللبنانيين ، المقيمين فى (مصر) ، قد باءت بالفشل الذريع .

هزَّ (إلياهو) رأسه نفيًا ، قبل أن يقول فى إصرار :

ـ هذا الشاب يختلف .. إنه لا يشعر بالانتماء تجاه (لبنان) نفسها .. صدقنى .. إنه شاب مناسب تمامًا .

لم يكن إقناع رئيسه بالمهمة السهلة ، ولكن الأمر تمت دراسته من كل الوجوه ، كما خضع (نبيل) لجدول مراقبة دقيق ، دون أن يشعر ، حتى تأكد الجميع من عدم انتمائه ، ومن أنه مناسب تمامًا لعملية التجنيد هذه ..

لذا فقد تم إسناد العملية للضابط (إلياهو) ، وتقرر أن تتم المقابلة فى أكثر الأماكن قربًا لقلب (نبيل) ..

فى (باريس) ..

وبعد ستة أيام بالتحديد ، وبينما كان (نبيل) يقضى إحدى سهراته الحمراء ، فى أكبر ملهى ليلى فى (باريس) ، اقترب منه (إلياهو) ، وتحدث إليه بالعربية ، التى يجيدها إجادة تامة ، نظرًا لمولده فى (دمشق) ، قائلاً :

ـ أنت عربى .. أليس كذلك ؟!

التفت إليه (نبيل) مبتهجًا ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. أنا لبنانى ، أقيم فى (مصر) ، وأنت تبدو سوريًا .. ألنا على حق ؟!

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (إلياهو) ، وهو يجيب :

ـ يمكنك أن تقول إننى أحد جيران (سوريا) ، وعلى أية حال ، تستطيع أن تدعونى (أبا مازن) .

لم يكن (نبيل) يميل فى المعتاد لعقد صداقات جديدة ، إلا أن (إلياهو) نجح فى جذبه إليه ، عندما أصر على دفع تكلفة السهرة بالكامل ، ثم دعاه بعدها لقضاء سهرة أخرى على حسابه ، فى الليلة التالية ..

ولم يعارض (نبيل) الفكرة ، أو حتى يناقشها ، فقد راق له أن يقضى سهرات باريسية أخرى ، دون أن يدفع فيها فرنكًا واحدًا ..

والتقى مع (إلياهو) مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وفى المرة الخامسة ، بدأ (إليـاهو) يتحدث معه عن (مصر) ، وأحوالها ، وتطورات الأمور فيها ، بعد العدوان الثلاثـى ، والتغيرات الاجتماعيـة والسياسية ، ونوايا الرئيس (جمـال عبـد النـاصر) وردود فعل الشارع المصرى .

وكان (نبيل) من الذكاء ، بحيث لـم يفتـه هذا التطور ، حتى بعد أن تناول عدة كئوس من الخمر ، فمال نحو (إلياهو) ، قـائلاً فى خبث :

ـ عجبًا !.. فيـم اهتمـامـك المبـاغت هـذا بأحـوال (مصر) يا (أبو مـازن) ؟!

تطلع إليه (إلياهو) مباشرة ، وهو يسأله :

ـ ما رأيك أنت ؟!

تراجع (نبيل) فى مقعده ، ولوَّح بكأسه ، قائلاً :

ـ رأيى إنك لست سوريًا كما تدعى .. بل ولست حتى عربيًا ، على الرغم من لغتك هذه .

أدهش ذلك الذكاء (إليـاهو) ، فمـال هو ناحيتـه هذه المـرة ، وسأله ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة :

ـ ما جنسيتى إذن ؟!

صمت (نبيل) بضع لحظات ، ارتشف خلالها رشفة خمر ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ إسرائيلى .

تضاعفت دهشـة (إلياهو) ، وهو يحدِّق فى وجهه ، إلا أنه لـم يلبث أن تمالك جأشه فى سرعة ، وتراجع بدوره ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

لم يستغرق الأمر منهما طويلاً ، بعد هذه المصارحـة المباشرة ، ليدرك (نبيل) الدور المطلوب منه بالضبط ، ويستوعبه ، ويوافق عليه بلا تردد ..

وعندما عاد (نبيل) إلـى (القـاهرة) فـى أوائـل عـام 1960م ، كان يحمل صفة جديدة ، إلى جوار صفته كمهاجر لبنانى ..

صفة جاسوس للمخابرات الإسرائيلية ..

ونشط (نبيل) على نحو غير عادى ، فى هـذا العمـل الحقير ، وراح يسعى بكل جهده لجمع المعلومات عن أمن وجيش وساسة وشعب (مصر) التى أكرمت وفادته ، ومنحته حق العيش على أرضها ، كما لو كان أحد أبنائها ..

وتغيرت طبيعته تمامًا ، خلال السنوات التالية ، إذ راح يسعى لعقد الصداقات ، مع العديد من الفئات ، وخاصة ضباط الجيش ، والشرطة ، والمهندسين ، والعاملين على خطوط المواجهة ..

أسرته نفسها شعرت بالدهشة ، لهذا التطور المفاجئ فى شخصيته ، ولكن والده ووالدته شعرا بالسعادة ، لأن ابنهما بدأ يقوى صلاته بالمصريين ، وينغرس أكثر وأكثر فى تراب (مصر) التى عشقاها ، وذابا فى حبها ، واعتبراها وطنهما الثانى بعد (لبنان) ، ومنحاها كل ولائهما ووفائهما وثقتهما ..

حتى أشقائه كانوا مصريين أكثر مما هم لبنانيون ..

ربما لأنهم ولدوا جميعًا على أرض (مصر) ، وشربوا ماء نيلها العظيم ..

هو وحده انغمس فى مستنقع الخيانة ، كما لو أنه نبتة شيطانية ، تنكر خير الأرض التى أنبتتها ..

وراق عمل (نبيل) للإسرائيليين ، وتلقوا كل ما يرسله من معلومات فى شغف واهتمام ، واستدعوه أكثر من مرة إلى (باريس) ، ليتلقى المزيد والمزيد من التدريبات ، ويترقى من جاسوس عادى إلى جاسوس ممتاز ، من طراز خاص ..

خاص جدًا ..

ولكن ، فى عالم المخابرات لا تسير الأمور قط فى اتجاه واحد ..

فكما جذب عبث (نبيل) انتباه رجال المخابرات الإسرائيلية فى البداية أثارت أسفاره المتعددة ومعدلات إنفاقه المتزايدة اهتمام المخابرات المصرية أيضًا ..

وكان من الطبيعى أن يبدءوا فى مراقبته ، وجمع كل المعلومات الخاصة به ..

وكالمعتاد ، اجتمع الرجال حول مائدة الاجتماعات لمناقشة الأمر ، وفتح ملف الجاسوس ، وقال أحدهم :

ـ المعلومات الجديدة أكدت أن (نبيل النحاس) جاسوس للمخابرات الإسرائيلية ، وهو يتعامل مباشرة مع (إلياهو بن عازر) ضابط الموساد رقم (ر ـ6010) ، ومن الواضح أنه قد تلقى تدريباته حتى المستوى الرابع ، وهذا يعنى أنه يمثل لهم أهمية كبيرة ، وأنه يستطيع الحصول على معلومات مهمة بالفعل .

سأله المدير :

ـ وماذا عن أسرته؟!

أجابه الرجل فى حسم :

ـ كلهم فوق مستوى الشبهات ، مثل كل اللبنانيين والسوريين ، الذين يقيمون فى (مصر) .

هزّ المدير رأسه متفهمًا ، ثم قال :

ـ إذن فنحن أمام عملية فردية ، ولابـد وأن نتعامل معها بمنتهى الحكمة والذكاء ، فما دام العدو يثق فى جاسوسه هذا ، فلابد وأن نحسن استغلال هذه الثقة إلى أقصى حد ..

وطوال أربع ساعات كاملة ، تمت دراسة الأمر من كل الوجوه ، ووضعت خطة التعامل الرئيسية مع (نبيـل النحـاس) ، جاسـوس المخابرات الإسرائيلية ، الذى حمل فى ملفـات المخـابرات العامـة المصرية اسمًا كوديًّا جديدًا .

اسم (المهاجر) ..

وطوال السنوات التالية ، تلقى (نبيل) سيلاً من المعلومات ، عبر سلسلة جديـدة من الصداقـات ، التـى تصـور أنـه قـد عقدهـا بذكائه ، مع ضابط كبير من القوات الجوية .

وآخر يحتل موقعًا حساسًا فى قيـادة الجيش ، ومهنـدس من المشرفين على بناء حائط الصواريخ ، وغيرهم ..

وابتسم الإسرائيليون فى ثقـة وارتيـاح ، مـع النجـاح المبهـر لجاسوسهم ، وراحوا يطلبون منه المزيد والمزيد من المعلومـات ، فى نهم واهتمام بالغين ..

وابتسم رجـال المخـابرات المصرية أيضًا ، وهم يزودون (نبيل) بكل ما يريدون نقله إلى العدو من معلومات ، عبر عملائهم ، الذيـن ارتبطوا معه بصداقات وهمية ..

ومع اقتراب سـاعة الصفر ، نشـط الرجـال فـى هذه العمليـة ، لينقلوا إلى الإسرائيليين كل ما يوحى بأن الحرب لن تنشب أبـدًا ، وبـأن القيـادة السياسـية والعسـكرية فـى (مصـر) قـد قنعـت مـن الغنيمة بالإياب ، ولم تعد على استعداد للمجازفة بمواجهة جديـدة مع جيش الدفاع الإسرائيلى ..

ثم كانت المفاجأة ..

والصفعة ..

والهزيمة الساحقة ..

وقبل أن يتمالك (نبيل) جأشه ، ويلملم ذهوله ، ويستعيد سيطرته على مشـاعره وأفكاره ، اقتحـم رجـال المخـابرات العامة منزله ، مع وكيل نيابة أمن الدولة ، وقدموا له أنفسهم ، مع كل مـا يحملونـه من أدلة خيانته ..

وانـهار (نبيل) انهيارًا عنيفًا ، مـع قسـوة المفاجـأة ، وإدراكـه أن المصريين يعلمون بأمره منـذ البدايـة ، ولـم يكـن مـن العسـير الحصول على اعتراف كامل موقع منه ..

وانهارت أسرته انهيارًا أكثر عنفًا ، وكادوا يفقدون وعيهم ، عندما علموا أن ابنهم خان (مصر) ، التى أكرمت وفادتهم ، ولم تشعرهم لحظة واحدة أنهم خارج وطنهم .. ومع اعتراف (نبيل) تبرأت منه أسرته ، ورفضت حتى توكيل محام للدفاع عنه ، باعتبار أنه خائن ، جاسوس ، لا يستحق منهم أدنى احترام أو تعاون ..

ومع صدور الحكم بسجنه لخمسة وعشرين عامًا ، أدرك (نبيل) فداحة ما ارتكب ، فى حق وطنه الثانى (مصر) ، وأدرك الإسرائيليون ، بعد فوات الأوان ، أن المصريين لم ينتصروا عليهم فى (سيناء) فحسب ، وإنما كانوا المنتصرين أيضًا طوال الوقت ، فى واحدة من أنجح وأبرع عملياتهم .. عملية المهاجر .

* * *

الهـــدية ..

على الرغم من أن (إسرائيل) لا تعد بأى حال من الأحوال ، واحدة من الدول العظمى أو الكبرى ، مثل (إنجلترا) أو (فرنسا) وليست ـ بالطبع ـ دولة عربية ، ذات تاريخ طويل ، أو حضارة متأصلة ، مثل (مصر) أو (سوريا) أو (تركيا) ، فإن بعض الأسباب السياسية والانتخابية ، كانت تدفع الرئيس الأمريكى ـ أيا كان ـ إلى الاهتمام دائمًا بوصول أى سفير جديد ، إلى سفارة (إسرائيل) فى (واشنطن) والاحتفاء به على نحو يفوق ما يمكن أن يحدث ، من الناحية الدبلوماسية ، مع سفير أية دولة أخرى ..

ولتلك الأسباب ، وغيرها مما يخفى على الجميع ، سواء أتم إعلانها أم إخفاؤها استقبل الرئيس الأمريكى السفير الإسرائيلى الجديد ، فى مكتبه البيضاوى بالبيت الأبيض ، فى أوائل عام 1973م ، بابتسامة عريضة وترحاب واضح ، واجتمع به لساعة كاملة ، وهى ضعف الوقت الذى قضاه مع وزير الدفاع الأمريكى لمناقشة الموقف العسكرى الأمريكى ، إزاء الاستفزازات السوفيتية الأخيرة ، ودارت معظم حوارات الرئيس مع السفير حول الوضع على الجبهة المصرية ، التى استقرت الأوضاع فيها أو كادت ، فى ظل حالة جمود اللاسلم واللاحرب ، بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر وتولى الرئيس أنور السادات مقاليد الحكم ، وانتصاره على كل مراكز القوى .

ولقد أبدى السفير الإسرائيلى تخوفه ، من أن يعيد الرئيس (السادات) بناء الجيش المصرى ، مكملاً ما بدأه الرئيس (عبد الناصر) ، ولكن الرئيس الأمريكى طمأنه ، مؤكدًا أن المخابرات الأمريكية تتابع الموقف المصرى ، بمنتهى الدقة والاهتمام ، وأنه من المستحيل أن يقدم المصريون على أية تحركات عسكرية مباشرة ، دون أن تعلم المخابرات الأمريكية بأمرها ، قبل أن تدخل مرحلة التنفيذ الفعلية بشهر كامل على الأقل ..

وفور انتهاء المقابلة ، غادر السفير الإسرائيلى مقر الحكم الأمريكى ، متجهًا إلى سفارته ، وعلى شفتيه ابتسامة واثقة كبيرة ، صنعها شعوره بأنه سفير أقرب دولة إلى أقوى دولة فى العالم .

وفى السفارة الإسرائيلية ، استقبله الجميع بمزيج من الترحاب والتحفظ والقلق والترقب ، شأن أى سفير جديد ، لم يختبر أحد ردود أفعاله أو أسلوب معالجته للأمور بعد ، على الرغم من تاريخه المعروف فى الدبلوماسية الإسرائيلية ، وصداقته الشخصية الطويلة لأشهر وزير دفاع إسرائيلى على الإطلاق (موشى دايان) .

ووسط الهالة التى رسمها السفير الجديد حوله ، جاءت سكرتيرته الشقراء الفاتنة ، لتهمس فى أذنه بأن هناك ضيفًا فى انتظاره ، ويطلب مقابلته شخصيًا ، وقدمت له بطاقة أنيقة مذهبة الإطار ، تحمل اسم الضيف ..

ولم يكد السفير الإسرائيلى يلقى نظرة على البطاقة ، حتى تهللت أساريره ، وهتف فى سعادة واضحة :

ـ آه .. مستر (أدوين) .. دعيه يدخل على الفور .

لم تمض لحظات ، حتى كان السيد (جاك أدوين) يدلف إلى حجرة السفير ، حاملاً ابتسامته الأنيقة وملامحه الوسيمة ، قائلاً :

ـ لقد رأيت أن أهنئك بنفسى .

نهض السفير الإسرائيلى يصافحه فى حرارة ، ويربت على كتفيه فى مودة ، توحى بمعرفتهما وصداقتهما الطويلة القديمة ، وهو يهتف :

ـ مرحبًا بك فى أى وقت (يا جاك) .. أنت على الرحب والسعة دائمًا ..

قضى (أدوين) ساعة كاملة معه ، وهما يتناقشان فى ألف موضوع ، لا يمس أيها السياسة ، من قريب أو بعيد ، وقبل أن ينصرف (أدوين) ، أدار عينيه فى حجرة السفير ثم غمز بعينه ، قائلاً :

ـ فى المرة القادمة ، عندما آتى لزيارتك ، سأحمل معى هدية خاصة ، ستروق لك ، وتناسب مكتبك كثيرًا .

ضحك السفير الإسرائيلى ، وهو يربت على كتفه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ ليس لدى أدنى شك فى هذا .

ابتسم مستر (أدوين) ابتسامته الهادئة الأنيقة مرة أخرى ، وغادر مبنى السفارة كله فى هدوء ، واستقل سيارته الفارهة البيضاء ، وانطلق بها عبر شوارع العاصمة الأمريكية ، ثم لم يلبث أن توقف أمام فيلا أنيقة صغيرة من طابقين ، وضغط زرًّا صغيرًا فى بوابتها المعدنية ، قائلاً :

ـ الشمس لا تشرق ، فى سماء ملبد بالغيوم .

مضت لحظة من الصمت وأتاه بعدها صوت هادئ يقول :

ـ وماذا عن القمر ؟!

ـ ابتسم (أدوين) مجيبًا :

ـ القمر لا تحجبه أية غيوم .

قالها ، وعاد يدير محرك سيارته فى اللحظة نفسها التى انفتحت فيها البوابة المعدنية ، فعبرها بنفس الهدوء ، وقطع حديقة الفيلا ، قبل أن يتوقف أمام بابها ، ويدلف إليها فى سرعة .

وبغض النظر عما دار داخل تلك الفيلا الأنيقة فى (واشنطن)

مما لم يمكننا الحصول على تفاصيله قط ، فقد انعكس الأمر على عيادة خاصة ، فى قلب (القاهرة) ..

عيادة الدكتور (عابد صادق) أستاذ الطب النفسى الشهير ، الذى فوجئ بأحد مرضاه ، يبرز له بطاقة خاصة ، قائلاً فى هدوء جازم :

ـ (م . ر . ج) .. من المخابرات العامة المصرية .

فى ذلك الحين ، وبسبب بعض الظروف السياسية ، كان مجرد ذكر اسم المخابرات العامة ، يكفى لإيقاع الرعب فى قلب أشجع الرجال ، حتى إن الدكتور (عابد) قد تجمد فى مقعده ، وهو يحدق فى محدثه وبطاقته ، قبل أن يقول بصوت مبحوح مختنق :

ـ ما .. ماذا فعلت ؟!

أجابه الرجل فى هدوء مشوب بالاحترام والتقدير :

ـ لا شىء يا دكتور (عابد) .. لا شىء بكل تأكيد ثم مال نحوه ، متابعًا باللهجة نفسها :

ـ الواقع أننا نحتاج إلى استشارتك .

ردد الدكتور (عابد) مبهورًا :

ـ أنتم ؟!

اعتدل الرجل ، وقال بمنتهى الحزم هذه المرة :

ـ مصر (تحتاج) إلى خدماتك يا دكتور (عابد) .

الكلمة نسفت كل ذرة من التوتر ، فى كيان خبير الطب النفسى الشهير ، وجعلته يهتف فى حماس عجيب :

ـ رقبتى فداء لها .

ابتسم رجل المخابرات ، وهو يقول :

ـ فلتحتفظ برقبتك يا دكتور (عابد) .. كل ما نريده منك مجرد استشارة فنية .

ـ قال بنفس الحماس .

ـ أنا رهن إشارتكم .

هز الرجل رأسه ، قائلاً :

ـ لا .. ليس هنا .. سأنتظر حتى تنهى عملك ، ثم سنذهب معًا إلى مكان قريب .

ـ وعلى الرغم من ازدحام العيادة بالمرضى ، انتظر رجل المخابرات فى صبر ، حتى انتهى خبير الطب النفسى من كل ارتباطاته ، ثم اصطحبه فى سيارته ، عبر شوارع (القاهرة) إلى أحد الأماكن التابعة للمخابرات العامة ..

وهناك وجد الدكتور (عابد) فى انتظاره ملفا كاملاً ، يحوى جميع التفاصيل عن شخص ما ، باستثناء اسمه ووظيفته ، وبنفس الهدوء قال رجل المخابرات :

ـ افحص هذا الملف جيدًا يا دكتور (عابد) ، ولا تهمل أية تفاصيل ، مهما تبلغ تفاهتها وصغرها ، لأننا نريدك أن تعرف صاحب الملف معرفة تامة كاملة ، إلى الحد الذى تصبح فيه وكأنك هو .. نريد أن تدرك ما الذى يحبه ويكرهه وما الذى يمكن أن يثير انتباهه واهتمامه .

قال الدكتور (عابد) فى حماس :

ـ أه .. أنت تريد حالة تقمص تام ؟

أجابه رجل المخابرات فى حزم :

ـ بالضبط .

سأله الدكتور (عابد) بنفس الحماس :

ـ وكم أمامى من الوقت ؟

صمت رجل المخابرات بضع لحظات ، قبل أن يلقى نظرة على ساعته ، ثم يجيب فى لهجة حاسمة :

ـ حتى موعد محاضرتك ، فى التاسعة من صباح الغد .

كانت مفاجأة عنيفة لخبير الطب النفسى ، ولكنه لم يرفض أو يعترض ..

ولم يطرح أية أسئلة أيضًا ..

لقد أدرك ، بذكائه المعهود ، أن أية أسئلة لن تجد جوابًا واحدًا شافيًا ، وأنه مادامت المخابرات المصرية قد منحته هذه المهلة القصيرة ، فهذا يعنى أن لديهم أسبابًا منطقية وحتمية لهذا ..

وبالغة السرية أيضًا ..

وباهتمام فاق الحد ، قضى الخبير النفسى ليلته كلها ، يدرس كل صفحة فى الملف ..

بل كل سطر ، وكل جملة .. وكل حرف ..

وقبل أن تشرق الشمس ، شعر وكأنه يعرف صاحب هذا الملف منذ عشرة أعوام على الأقل ..

وأنه قادر على تعرفه فور رؤيته ، على الرغم من أن الملف قد تجاهل أية معلومات ، يمكن أن تفصح عن هويته الحقيقية ..

وفى الثانية صباحًا ، جلس رجل المخابرات (م . ر . ج) أمامه ، يسأله عما إذا كان قد انتهى من عمله ، فأجابه بكل حماس ، وطلب منه أن يطرح أية أسئلة يشاء ، وهو يعتدل فى مجلسه ، مستعدًا لسيل من الأسئلة ..

وفى هدوء ، مال رجل المخابرات نحوه ، وسأله :

ـ قل لى ما أفضل هدية ، يمكن أن تقدمها لشخص كهذا ؟!

صمت الخبير النفسى لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ ساعة .

ابتسم رجل المخابرات ، وكأنما وافق الجواب استنباطًا سابقًا له ، وسأله بنفس الهدوء الواثق :

ـ فى أية هيئة ؟!

أشار الدكتور (عابد) بيده ، قائلاً :

ـ ساعة تقليدية تمامًا .. من الخشب الداكن .. ذات عقارب وبندول ، ولكنها أنيقة لامعة ، وتحمل اسم ماركة أوربية شهيرة .

اتسعت ابتسامة رجل المخابرات ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .

ثم نهض يمد يده للخبير النفسى ، مستطردًا :

ـ أشكرك يا دكتور (عابد) ..

لقد أفدتنا كثيرًا نهض الدكتور (عابد) يصافحه بدوره ، وهو يقول فى دهشة :

ـ أهذا كل شىء ؟!

اتسعت ابتسامة (م .ر .ج) وهو يجيب :

ـ نعم ..هذا كل شيء .

وغادر الدكتور (عابد) ذلك المبنى التابع للمخابرات العامة المصرية ، وهو ما زال يهز رأسه فى دهشة ترفض أن تفارقه ..

إنه واثق من معرفته لصاحب الملف المجهول عن ظهر قلب ..

ولكنه عاجز عن فهم هؤلاء الرجال ..

عاجز عن فهمهم تمامًا ..

وسواء نجح عقله فى فهم مغزى السؤال أم لا فبعد أسبوع واحد ، فى السفارة الإسرائيلية فى (واشنطن) كان مستر (جاك أدوين) يقدم للسفير الإسرائيلى هدية أنيقة للغاية وهو يقول بابتسامته المتميزة :

ـ أنا واثق فى أنها ستروق لك .

تألقت عينا السفير الإسرائيلى ، وهو يخرج ساعة الحائط من علبتها ..

ساعة تقليدية ، تحمل ماركة أوربية شهيرة ، من الخشب الداكن ، وذات عقارب وبندول ، ولكنها أنيقة لامعة ..

وبمنتهى السعادة والتقدير والامتنان ، علق السفير الإسرائيلى الهدية فوق مكتبه تمامًا ، وراح يشكر صديقه (أدوين) طويلاً ..

وفور انصراف (أدوين) قال مدير أمن السفارة فى صرامة :

ـ ينبغى أن يتم فحص هذه الهدية .

قال السفير معترضًا :

ـ أية هدية ؟!.. إنه أمر شخصى محض ، ومستر (جاك أدوين) هذا صديق قديم وفوق مستوى الشبهات تمامًا .

هز مدير أمن السفارة رأسه ، قائلاً :

ـ القواعد واضحة فى هذا الشأن .

لم يرق هذا للسفير ، إلا أنه أشار إلى الساعة ، قائلاً فى ضجر محنق :

ـ فليكن .. أد واجبك .

ثم استدرك فى صرامة غاضبة :

ـ ولكن إياك أن تخدشها .

والتقط مدير الأمن الساعة بمنتهى الحرص ، وعقد لجنة مع مساعده ، وأحد خبراء التنصت ، وانهمك الثلاثة فى فحص الساعة لساعتين كاملتين ..

ولكن كل شىء بدا عاديًا للغاية ..

وهكذا عادت الساعة إلى موقعها ، فوق مكتب السفير الإسرائيلى ..

وكانت ساعة أنيقة ، أثارت إعجاب الجميع ، ودقيقة إلى حد مدهش ، حتى إنها لم تتوقف عن عملها لحظة واحدة ..

وبالذات خلال شهر أكتوبر 1973م .

فتلك الساعة كانت تحفة من تحف قسم التنصت ، فى المخابرات العامة المصرية ..

ذلك القسم ، الذى يضم عددًا من أفضل الخبراء والعلماء كل فى مضماره ..

وكلهم يحفظون قواعد الأمن الإسرائيلى عن ظهر قلب ..

ولهذا ، فالساعة التى أبدعها ظلت تعمل كأية ساعة عادية ، لمدة أسبوعين كاملين ، حتى يطمئن الجميع إلى أن جهاز أمن السفارة قد انتهى من فحصها ، بكل صورة ممكنة ..

وبعد مرور الأسبوعين ، وفى منصف الليل تمامًا ، بدأت عقاربها فى القيام بعمل إضافى ، إلى جوار عد الساعات والدقائق والثوانى ..

لقد تحولت إلى آلة تنصت ، من الطراز الأول ..

وبأسلوب بسيط للغاية ..

وعبقرى للغاية أيضًا ..

وفى كل مرة يزور فيها مستر (أدوين) مكتب السفير الإسرائيلى ، كان ينظر إلى الساعة الأنيقة ، ويبتسم ..

وفى كل مرة يتحدث فيها السفير إلى رؤسائه ، أو إلى أحد المسئولين الأمريكيين ، كانت الساعة تنقل كل تفاصيل الحديث إلى الآذان المصرية ..

والعقول المصرية ..

والمخابرات العامة المصرية ..

وعندما بدأ العد التنازلى لحرب أكتوبر 1973م ، كان للساعة هدف مهم وحيوى للغاية ..

كان عليها أن تنقل كل أحاديث السفير الإسرائيلى فى (واشنطن) للإجابة عن سؤال ، كان عندئذ أهم سؤال فى الدنيا كلها ، بالنسبة للمصريين ..

هل شعر الإسرائيليون أن (مصر) و(سوريا) يستعدان لخوض الحرب ؟!..

هل ..؟!

ولهذا عكف فريق كامل من الرجال على الاستماع إلى كل حرف يدور فى مكتب السفير ..

كل حرف ..

كان عليهم الاستماع إلى ما يقال ، وتفنيده ، وتحليله ، وإرساله إلى (القاهرة) لحظة بلحظة ، وكأنهم يقومون ببث مباشر ، على الهواء مباشرة ، فى موقع الأحداث ..

ولم يعد لدى المصريين أدنى شك ..

لقد أفلحت لعبتهم إلى أقصى حد ..

الإسرائيليون ابتلعوا الطعم كله ، حتى اخترق معدتهم ، وانتزع قلوبهم من صدورهم واندلعت الحرب ..

وكانت مفاجأة مذهلة للجميع ..

للإسرائيليين والأمريكيين معًا ..

بل وللعالم كله تقريبًا ..

وعلى رأسه السفير الإسرائيلى ، الذى شد ما تبقى من شعر رأسه ، وهو يهتف ؟!

ـ كيف فعلها المصريون ؟!.. كيف ؟!

وفى هذه المرة ، أخفى صديقه (جاك أدوين) ابتسامته فى أعماقه ، ورفع عينيه يلقى نظرة أخرى على هديته ، التى مازالت عقاربها تدور وتدور ..

ولكن فى أعماقه ، انطلقت ضحكة كبيرة .. لقد دارت عقارب الزمن بالفعل ، واستعاد المصريون كرامتهم وأرضهم ، ورفعوا علمهم مرة أخرى على (سيناء) ..

وكانت هذه هى الهدية الحقيقية لـ (مصر) أكبر هدية .

* * *

بلا ثمـــن

لم تكد عقارب الساعة تشير إلى السابعة والنصف ، فى صباح ذلك اليوم الدافئ ، فى أيام شتاء 1969م ، حتى اتجهت أم (ليلى) إلى حجرة ابنتها ، ودقت بابها فى رفق ، وهى تقول فى صوت خافت حنون ، وكأنها تخشى أن يؤذى صوتها أذن ابنتها :

- (ليلى) .. استيقظى يا بنتى .. إنها السابعة والنصف ، و ...

قبل أن تتم عبارتها ، ارتفع صوت (ليلى) من الداخل ، وهى تقول :

- أنا مستيقظة بالفعل يا أمى .

ارتفع حاجبا الأم فى دهشة ، وخفق قلبها بين ضلوعها فى قوة ، عندما التقطت أمومتها ذلك الإجهاد الخفى ، المغلف بتوتر مرهق ، فى صوت ابنتها ، ودفعت الباب ، وكيانها كله يهتف .

- ماذا هناك يا (ليلى) ؟!

ومع دخولها الحجرة ، انتفض قلبها مرة أخرى بين ضلوعها ، واعتصرته قبضة باردة كالثلج ، فابنتها (ليلى) ، التى تستغرق ربع ساعة كاملة لإيقاظها يوميًا ، كانت ترتدى ملابسها كلها ، على نحو يوحى بأنها قد استيقظت منذ ساعة على الأقل إلا أن

زينتها المكتملة لم تنجح فى إخفاء تورم جفنيها ، ولا احمرار عينيها ، اللذين يوحيان بليلة طويلة مسهدة أرقة ، لم تذق فيها المسكينة النوم قط .

وبكل لهفتها ولوعتها ، هتفت الأم :

- ماذا بك يا بنيتى ؟!.. ماذا أصابك ؟!

حاولت (ليلى) أن تبتسم ، وهى تلوح بيديها ، قائلة :

- لا شىء يا أماه .. يبدو أن عقلى قد انشغل بموضوع صحفى جديد ، فأبى أن يهدأ أو يهجع ، طوال الليل الطويل .

لم يكن صوتها بقادر على إقناعها شخصيًا بتلك الحجة ، إلا أن قلب أمها كان يرغب فى تصديق ما سمعته أذناها ، حتى لا يغرق فى توتره ولوعته طوال اليوم ..

وفى حنان قلق ، ربتت الأم على كتف ابنتها ، قائلة :

- لقد أعددت طعام الإفطار .

تطلعت إليها (ليلى) فى صمت ، وهى تحاول البحث عن حجة للفرار من وجبة الإفطار ، مع ذلك التوتر العنيف ، الذى يعترى معدتها ، ثم لم تلبث أن قالت فى كلمات تقطر انفعالاً :

- ليس لدى وقت يا أمى .. عندى موضوع صحفى عاجل للغاية .

خفق قلب الأم للمرة الثالثة ، وهى تتابع ابنتها ، التى التقطت حقيبتها ، واندفعت تغادر الشقة .

وفى لوعة حقيقية ، تساءلت الأم :

ماذا أصاب ابنتها ؟!

وإلى أين تذهب فى هذه الساعة المبكرة ؟!

وعلى الرغم من قلقها وتوترها ، إلا أنه كان من الأفضل لها كثيرًا ألا تعرف إلى أين ستذهب ابنتها ، فى ذلك الصباح ، إذ إن معرفتها لوجهتها الحقيقية ، كانت كفيلة بمضاعفة مشاعرها وانفعالاتها ألف مرة على الأقل ..

هذا لأن (ليلى) كانت فى طريقها إلى مكان ، لا يمت بأدنى صلة لعملها ، أو تحقيقاتها الصحفية ..

كانت فى طريقها إلى المخابرات العامة المصرية .

وفى تلك الفترة فى أواخر الستينيات كان مجرد ذكر اسم جهاز المخابرات كفيلاً ببث الخوف ، بل والرعب أيضًا ، فى أكثر القلوب شجاعة ، بعد نكسة يونيو 1967 ، وإلقاء تبعة معظم الأخطاء والسلبيات على الجهاز ، الذى لم يكن له فيها ناقة ولا جمل .

وهذا ما دار فى عقل (ليلى) ونفسها ، وهى تسير على

قدميها فى شوارع (القاهرة) ، فى تلك الساعة المبكرة ، وتراجع موقفها وما لديها مرة ومرة .. وألف مرة ..

وفى النهاية ، اتخذت قرارها فى حسم ، واستقلت واحدة من سيارات الأجرة إلى مبنى المخابرات العامة مباشرة .

وعندما أنزلها السائق هناك ، وانطلق بأقصى سرعة مبتعدًا ، فارقها حسمها وحماسها ، وفرت منها شجاعتها ، وشعرت بركبتيها ترتجفان ، وهى تقف أمام مكتب الحراسة ، وقد غابت الدماء من وجهها ، حتى حاكى وجوه الموتى ، وخصوصًا عندما سألها رجال الأمن فى هدوء :

ـ أية خدمة يا آنسة ؟!

كان صوته هادئًا ودودًا ، يفيض بالأدب والتهذيب ، وعلى الرغم من هذا فقد ارتجف لسانها بين شفتيها لنصف دقيقة كاملة ، لم ينطق الرجل خلالها بحرف واحد حتى قالت بصوت شاحب ضعيف :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين .. إنه .. إنه أمر مهم جدًا .

ابتسم الرجل قائلاً :

ـ بطاقة الهوية من فضلك .

لم تكن تتصور أن الأمر بهذه البساطة ، أو بهذه السرعة أيضًا ، فلم تمض عشر دقائق ، حتى كانت تجلس أمام ضابط المخابرات الذى استقبلها أيضًا بابتسامة كبيرة ، وبلهجة شديدة المودة والتهذيب وراح يتحدث معها فى بساطة ، حول الحياة الاجتماعية فى (مصر) ، ومتاعب مهنة الصحفى ، حتى امتص كل توترها وانفعالها ، ثم مال نحوها يسأل فى هدوء :

- لماذا أنت هنا يا آنسة (ليلى) ؟!

عاد لسانها يرتجف فى حلقها ، وهى تجيب :

- الواقع أننى كنت فى (إيطاليا) ، منذ أسبوع واحد وهناك التقيت بـ.. برجل مصرى ، يطلقون عليه هناك اسم (ماريو) و ... و ...

ارتبكت طويلاً ، ورجل المخابرات يتطلع إليها فى صبر وهدوء ، حتى اندفعت فجأة تقول فى حدة :

- وإننى أعتقد أن (ماريو) هذا جاسوس . بل أنا واثقة من هذا .

أدهشها أن وجه الجالس أمامها لم يحمل أية انفعالات ، وهو يقول :

- ولماذا أنت واثقة هكذا ؟!

أجابته فى عصبية :

- لأنه قدمنى لرجل آخر ، يتحدث العربية بلهجة شامية ، وأخبرنى

أنه صاحب دار نشر كبيرة ، وذلك الآخر تقرب إلى على نحو مثير للشك ، وطلب منى معلومات هامة عن (مصر) بحجة نشرها فى كتاب جديد ، ثم دفع حساب فندقى وحجز لى تذكرة الطائرة ، أما (ماريو) نفسه ، فقد قام بشحن سيارة اشتريتها من هناك ، على حسابه الخاص ، دون أن يطالبنى بأى مقابل ، وكل هذه أمور تثير الشك .. ثم إن (ماريو) هذا ليس اسمه الحقيقى .. إنه يحمل جواز سفر باسم ..

قبل أن تتم عبارتها ، أجاب رجل المخابرات بنفس الهدوء والابتسامة الواثقة :

- (محمد إبراهيم فهمى كامل) .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وسقط فكها السفلى من فرط ذهولها ، وهى تهتف :

- هل كنتم تعرفون اسمه ؟!

اتسعت ابتسامة الرجل وهو يجيب :

- ليس اسمه فحسب يا آنسة (ليلى) .

قالها ، وهو يضع أمامها مجموعة من الصور ، كلها تحمل وجه (ماريو) ، فى مواقف مختلفة ..

وفى هذه المرة ، لم يمكنها أن تنبس بحرف واحد ..

لقد كانت المفاجأة مذهلة بحق ..

وإلى أقصى حد ..

* * *

بدأ (محمد كامل) حياته العملية تاجر قطع غيار سيارات فى (الإسكندرية) ، بعد فترة طويلة من العمل صبى ميكانيكى فى الإسكندرية ، حيث كان معظم زبائنه من الإيطاليين ، الذين ربطتهم به صلة صداقة ، ساعدته على التقاط لغتهم ، والتحدث بها بطلاقة ، مما جعل أصدقاءه المصريين يطلقون عليه اسم (ماريو) وهو أحد الأسماء الإيطالية الشائعة ..

ومع اتساع تجارته ورواجها ، تزوج (ماريو) من إحدى فتيات الإسكندرية ، وعاش فى شقة فاخرة ، ثم لم يلبث أن تزوج قاهرية ، أسكنها شقة أخرى أنيقة فى حى (الدقى) ..

ولكن طبيعة حياته العابثة ، جعلت تجارته تكسد ، بعد فترة قصيرة ، فساءت حالته المادية ، وخصوصًا بعد أن غادر زبائنه الإيطاليون (مصر) وعادوا إلى بلادهم ..

ولأن عقله ارتبط طويلاً بالإيطاليين ، وربط بينهم وبين رواج

المال ، فقد تصور (ماريو) أنه لن يستعيد ما كان عليه ، إلا إذا سافر إلى (إيطاليا) ..

وهذا ما فعله ..

لقد ابتاع كومة تحف من (خان الخليلى) ، واستخرج جواز سفر ، وانطلق إلى (إيطاليا) ، حيث استقبله بعض الأصدقاء القدامى ، الذين ساعدوه على بيع ما لديه من تحف ، وشراء العديد من قطع غيار السيارات ، التى نجح فى تهريبها من الجمارك ، ليعاود تجارته مرة أخرى ..

وبعد عدة سفريات ، استطاع أولئك الأصدقاء أن يوجدوا له عملاً فى شركة (راواتيكس) ، حصل بموجبه على تصريح عمل وإقامة فى (إيطاليا) ، حيث ينتقل بين (روما) و(ميلانو) ، و(الإسكندرية) فى محاولة لتحسين دخله ، واستعادة مستوى معيشته السابق ..

ولكن نفقات (ماريو) الباهظة كانت تقف حائلاً بينه وبين ادخار ما يستعيد به عمله وتجارته ، مما أورثه الكثير من الحنق والسخط وجعله دائم التبرم والتذمر بلا حدود ..

وفى إحدى رحلاته ، التقى بصديق يهودى قديم ، اسمه (ليون لابى) كان قد غادر (مصر) منذ عام 1952م ، فتصافحا

فى حرارة ، وراح كل منهما يروى للآخر ذكرياته السابقة ، قبل أن يتناولا الغذاء من أحد مطاعم (ميلانو) ، ويبدأ (ماريو) فى الشكوى من كساد تجارته وبوار أحواله وقلة موارده ، وعجزه عن تحقيق طموحاته ، و ... ، و ...

وبمنتهى الاهتمام ، ودون أن يعلق بحرف واحد ، راح (لابى) يستمع إليه جيدًا ، حتى انتهى من روايته ، فتراجع اليهودى فى مقعده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

ـ لكل مشكلة حل يا صديقى .

قال (ماريو) فى بؤس :

ـ إلا مشكلتى .

اتسعت ابتسامة (لابى) الغامضة ، وهو يقول :

ـ تعال لزيارتى غدا ، فى مكتبى الخاص هنا ، فى شارع أوروبا ، رقم (12) ، الدور الثانى .

ثم نهض يربت على كتفه ، مستطردًا :

ـ ربما وجدنا حلاً لمشكلتك .

شعر (ماريو) بالدهشة ، وهو يعود إلى منزله ، ويتساءل فى حيرة عما يعنيه (لابى) ، إلا أن حيرته هذه لم تلبث أن استحالت

إلى مفاجأة قوية ، عندما ذهب إلى مكتب اليهودى ، وقرأ اللافتة النحاسية عليه ، والتى تحمل النجمة السداسية الإسرائيلية ، إلى جوار عبارة (القنصلية الإسرائيلية) ..

وعند هذه النقطة ، كان من الممكن أن يتراجع (ماريو) ، ويعود أدراجه ، دون أن يتورط فى الأمر أكثر وأكثر ، إلا أنه لم يفعل هذا ، وإنما دلف إلى القنصلية ، وأخبر سكرتيرتها الحسناء أنه على موعد مع (ليون لابى) ، الملحق العسكرى شخصيًا ..

وبكل حرارة وترحاب ، استقبله (لابى) فى مكتبه ، ثم فاتحه فى الأمر على الفور :

ـ (ماريو) .. أنت صديق قديم عزيز ، وأنا أعرض عليك فرصة نادرة للعمل معنا .

سأله (ماريو) فى حذر :

ـ معكم فى القنصلية .

أطلق (لابى) ضحكة طويلة ، قبل أن يميل نحوه ، قائلاً فى حزم :

ـ بل مع المخابرات الإسرائيلية ، يا (ماريو) .. إنك ستربح معنا الكثير ، وستحقق كل طموحاتك .

ثم نهض معلنًا انتهاء المقابلة ، وهو يضيف :

ـ فكر فى الأمر جيدًا ، ولو جاء ردك بالإيجاب ، فسنلتقى فى العاشرة من صباح الغد فى فندق (ريتز) فى (روما) .

ولم يكن (ماريو) بحاجة إلى كثير من التفكير ، ففى تمام العاشرة ، من صباح اليوم التالى ، كان يقف داخل بهو فندق (ريتز) ، فى انتظار (لابى) ، وهو يتطلع فى انبهار إلى فخامة المكان وأناقته ، التى لم يكن يحلم حتى برؤيتها ..

وجاء (لابى) فى موعده أيضًا ، وحجز له جناحًا فاخرًا فى فندق (ريتز) ، ثم أعطاه مائة دولار ، وطلب منه الإقامة فى ذلك الجناح ، حتى اليوم التالى ..

ولم يصدق (ماريو) نفسه ، وهو يرقص داخل جناح (ريتز) ، وراح ينتظر اليوم التالى بفارغ الصبر ، بعد أن تجاهل الحقيقة المرة التى يعيشها ، ألا وهى أنه قد باع وطنه بالفعل ، مقابل مائة دولار ، وليلة واحدة فى جناح فندق (ريتز) .

وفى اليوم التالى عاد (لابى) لمقابلته فى (روما) ، وبصحبته ضابط مخابرات إسرائيلى آخر ، يتحدث العربية فى طلاقة ، قدم نفسه باسم (إبراهيم) ، وقال إنه متخصص فى مكافحة النشاط الشيوعى العالمى ، وعندما جلس وحده مع (ماريو) أضاف :

ـ مهمتنا هى تعقب النشاط الشيوعى ومكافحته ، فى كل دول

العالم ، ولن نطالبك إلا بمعلومات خاصة بالنشاط الشيوعى ، مقابل ثلاثمائة دولار شهريًا ..

فما رأيك ؟!

لم يكن سؤاله قد اكتمل بعد ، عندما هتف (ماريو) ، فى حماس .

ـ موافق .

وهنا ابتسم (إبراهيم) فى ثقة ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً بشىء من الصرامة :

ـ فى هذه الحالة ينبغى أن تتلقى بعض التدريبات .

واعتبارًا من صباح اليوم التالى مباشرة ، بدأت عملية تدريب (ماريو) على جمع المعلومات ، وإرسالها ، واستخدام الحبر السرى ، والاستماع إلى رسائل البث اللاسلكية وترجمتها ، والتعامل مع شفرة ثلاثية ، تعتمد على تحديد رقم الكلمة والسطر والصفحة ، من كتاب متفق عليه ، لتكوين رسائل ومعلومات كاملة ، ثم تلقى محاضرات حول الحرب النفسية ، ورسائل إطلاق الشائعات وترويجها ..

وبعد نجاحه فى هذه الدورة التدريبية ، عاد (ماريو) إلى (مصر) ، ليقضى بعض الوقت مع زوجته وليبدأ عمله فى الجاسوسية ، مع أول راتب يقبضه من المخابرات الإسرائيلية .

وعلى الرغم من أن كل المعلومات المطلوبة كانت تتعلق بأمور الجيش ، والدفاع المدنى ، والحالة الاقتصادية والمعنوية ، دون أن تشمل أمرًا واحدًا ، يتعلق بالنشاط الشيوعى ، فقد جمعها (ماريو) كلها ، دون أن يتعجب من هذا ، أو يتساءل حتى عنه ، وكأنما كان يعلم أن لعبة مكافحة النشاط الشيوعى هذه مجرد غلاف من السكر للحقيقة الواقعية ، وهى أنه يعمل ويجمع كل المعلومات ، التى تضر بأمن وطنه وسلامته ، وتضع أمنه وأمانه فى قبضه العدو ..

فالواقع أن الهدف لم يكن يعنيه ، ما دام يتقاضى عنه الثمن المناسب ..

الثمن الذى يحقق أهدافه وطموحاته ..

وفى المرحلة التالية ، وبعد عدة عمليات ، طلب (إبراهيم) ، من (ماريو) أن يبذل جهده لتعرف المصريين الذين يسعون للسفر إلى (إيطاليا) ، لشراء السيارات المستعملة منها ، وكانوا عديدين فى تلك الفترة ، ومن مختلف فئات الشعب ، وتقديم كافة العون والخدمات لهم ، فى هذا الشأن ..

وهكذا استقر (ماريو) فى (إيطاليا) ، واتسعت شهرته بين المصريين هناك ، وخصوصًا الباحثين عن السيارات منهم ..

ومن بين هؤلاء كانت (ليلى) ..

لقد وقع اختيار خبراء المخابرات الإسرائيلية عليها ، وقرروا تجنيدها ، للعمل لحسابهم داخل (مصر) ، وأسندوا هذه المهمة لضابطهم (إبراهيم) أو (إفرام) ، وعميلهم (ماريو) ..

وكان ما كان ..

« التقيت برجل الأعمال المزعوم فى أحد مطاعم (روما) وقدمه لى (ماريو) ، ثم حدث ما أخبرتك به .. »

نطقت (ليلى) عبارتها هذه ، فى نهاية قصتها ، التى روتها لرجال المخابرات المصرى بكل تفاصيلها ، وهو يستمع إليها فى صمت هادئ ، ثم اعتدل يشبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يقول :

ـ حسنًا فعلت بإبلاغنا يا آنسة (ليلى) ، ولكن ما الذى تنوين فعله الآن ؟!

التقطت (ليلى) ، نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول فى سرعة ، وكأنها تعلن أنها قد حسمت أمرها :

ـ أنا رهن إشارتكم .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ارتياح وإعجاب هذه المرة ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ عظيم .. أعتقد أننا سنتعاون بشكل جيد فى هذا الشأن .

وبتنسيق مع المخابرات العامة أرسلت (ليلى) بعض المعلومات المهمة للغاية إلى (ماريو) فى (روما)، ثم أخبرته أن لديها معلومات أكثر أهمية وخطورة، ولكنها تخشى إرسالها بالبريد حتى لا ينكشف أمرها ..

ولأن المعلومات التى أرسلتها كانت خطيرة بالفعل، فقد قرر الإسرائيليون إرسال (ماريو) إلى مصر، لإحضار باقى المعلومات، التى مازالت تحتفظ بها (ليلى).

وهكذا وقع جهاز المخابرات الإسرائيلى فى الفخ ..

ودخل (ماريو) المصيدة بقدميه ..

وفور وصوله إلى (القاهرة) أسرع (ماريو) يلتقى بالصحفية (ليلى) التى قدمت له تقريرًا اقتصاديًّا مفصلاً عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى (مصر)، من اثنتى عشرة صفحة، تم إعداده بمعرفة ومساعدة المخابرات العامة.

وكان من الطبيعى أن ينبهر (ماريو) بالتقرير، وأن يبدى إعجابه الشديد به، ولكن (ليلى) أبدت أسفها لافتقار التقرير إلى بعض الصور المهمة، التى عجزت عن التقاطها، لقلة خبرتها فى هذا المجال.

وأسرع (ماريو) يعلن استعداده لإكمال العمل، وانطلق على

الفور لالتقاط كل الصور المطلوبة، وجمع المعلومات المتبقية، لنقلها إلى المخابرات الإسرائيلية.

وبينما كان يحمل كل هذه الأسرار فى حقيبته، ويتجه إلى بيت (ليلى) فوجئ برجل يعترض طريقه، ويقول فى صرامة:

ـ مهلاً يا رجل .. طريقك ينتهى هنا.

صاح به (ماريو) فى حدة:

ـ أفسح الطريق يا رجل .. لدى عمل مهم.

أجابه صاحب الصوت الصارم:

ـ خطأ يا (ماريو) .. هنا نهاية الطريق .. أنا (...) من المخابرات العامة المصرية.

وقبل حتى أن يكمل ضابط المخابرات المصرى عبارته، كان (ماريو) قد انهار بالفعل، وراحت التوسلات والاسترحامات تنهال من بين شفتيه، وهم يضعونه داخل سيارة خاصة بإذن وحضور وكيل نيابة أمن الدولة.

وأثناء محاكمته بكى (ماريو) فى ندم وكرر توسلاته وطلبه للرحمة، إلا أن المحكمة العسكرية، برياسة العميد (أسعد محمود إسماعيل)، لم تجد ما يستوجب الرحمة بالمتهم، ما دام قد خان بلاده عمدًا،

وقبض ثمن هذا سبعة آلاف دولار فحسب فقضت بإعدامه شنقًا ، وصدق رئيس الجمهورية على الحكم ، الذى تم تنفيذه فى أحد سجون (القاهرة) ، بعد مشرق الشمس بقليل .

أما (ليلى) ، فقد نامت ملء جفنيها ، بعد أن أدت واجبها ، وسلمت الخائن للعدالة بلا ثمن سوى رفعة وسلامة وأمن هذا الوطن ..

وما أعظمه من ثمن !

* * *

جاسوس سيناء

توقفت سيارة صغيرة مصرية الصنع ، فى ساعة مبكرة من أحد أيام نوفمبر ، عام 1993م ، أمام مكتب مكافحة المخدرات ، فى مدينة (رفح) فى (سيناء) ، وغادرها رجل ممشوق القامة ، متين البنيان ، وخط الشيب فوديه ، على الرغم من سنوات عمره ، التى تجاوزت الأربعين بقليل فمنحه مظهرًا وسيمًا ، يتناسب مع الحلة الأنيقة التى يرتديها ، والحذاء الأسود ، الذى تناثرت فوقه ذرات الرمال ، وهو يتجه إلى المكان ، حيث استقبله رئيس المكتب فى حرارة ، وقاده عبر ممراته الصامتة الهادئة ، وهو يقول :

ـ معذرة لإيقاظك فى هذه الساعة المبكرة يا سيادة العقيد ، ولكننى أعتقد أن الأمر مهم للغاية ، وأنه من الأفضل أن تستمع إليه بنفسك ، على لسان صاحبه .

أجابه الرجل بابتسامة هادئة وصوت وقور :

ـ لا بأس .. أنت تعلم أن طبيعة عملنا لا ترتبط بالوقت .. كل المواعيد تناسبنا ، ما دامت تقودنا إلى معلومات وحقائق جديدة .

تمتم رئيس المكتب فى اقتضاب :

ـ بالضبط .

كان هذا آخر ما تبادلاه من حديث ، عبر الممرات الطويلة ، حتى بلغا حجرة صغيرة ، عارية من الأثاث ، إلا من منضدة خشبية ، استقرت فوقها زجاجة مياه باردة ، وعدد من الأكواب الزجاجية ، وأربعة أو خمسة مقاعد ، جلس فوق أحدها رجل فى أوائل الخمسينيات ، يلوّح عليه مزيج من الاضطراب والتوتر والقلق ، لم يكد يلمح الرجلين ، وهما يدلفان إلى الحجرة حتى هبّ واقفًا ، ورفع يده إلى رأسه بتحية تلقائية ، فربت رئيس مكتب مكافحة المخدرات على كتفيه ، وقال بابتسامة بسيطة :

ـ اجلس يا (محمد) .. لا تقلق .. سيادة العقيد هنا لسماع أقوالك فحسب .

رمق (محمد سليمان جامع) ذلك القادم الجديد بنظرة متوترة ، ولكن العقيد استقبلها بابتسامة هادئة ، وأشار له بالجلوس ، ثم جذب مقعدًا ، وجلس أمامه عبر المائدة ، وصب قليلاً من الماء فى أحد الأكواب ، وهو يسأله بلهجة توحى باللا مبالاة :

ـ ماذا لديك يا (محمد) ؟!

ازدرد (محمد) لعابه فى صعوبة ، قبل أن يقول :

ـ نفس ما أخبرت به رئيس المكتب .. لقد زارنى فى أوائل الشهر زميل قديم ، كان محبوسًا معى خلال عام 1977م ، فى

أحد السجون الإسرائيلية ، خلال فترة الاحتلال الإسرائيلى ، وعرض علىّ أمر تهريب شحنة هيروين ، إلى داخل (مصر) ، يبلغ وزنها اثنى عشر كيلوجرامًا ، مقابل اثنى عشر ألفًا من الدولارات .

سأله العقيد فى هدوء ، وهو يرتشف كوب الماء فى بطء :

ـ وكيف سيحصل على شحنة الهيروين هذه ؟!

أدار (محمد) عينيه بين الرجلين ، فى شىء من التوتر ، ثم أجاب بصوت خافت :

ـ سيحصل عليها بمساعدة المخابرات الإسرائيلية .

انعقد حاجبا رئيس مكتب مكافحة المخدرات ، عند هذه النقطة ، وتطلّع إلى العقيد فى اهتمام ، وكأنه ينتظر رد فعله ، إزاء هذه المعلومة الخطيرة ، ولكن لدهشته ، ظلّ العقيد هادئًا ، وكأنما لم تثر تلك المعلومة أدنى قدر من اهتمامه ، وهو يسأل (محمد) فى بساطة :

ـ ولماذا تقدم له المخابرات الإسرائيلية مثل هذه الخدمة ؟!

ازدرد (محمد) لعابه مرة أخرى ، وقال :

ـ لقد ألقيت عليه السؤال نفسه ، فأخبرنى أنه يتعاون مع المخابرات

الإسرائيلية ضد (مصر) ، منذ عام 1982م ، مقابل مكافآت مالية ضخمة ، ومرتب شهرى قدره ثلاثمائة جنيه .

هزّ رئيس مكتب مكافحة المخدرات رأسه فى سخرية آسفة ، وهو يقول :

ـ يا له من ثمن بخس لخيانة الوطن !

تطلّع إليه العقيد فى صمت لحظة ، ثم لم يلبث أن عاد إلى (محمد) ، وسأله فى هدوء عجيب :

ـ وماذا أيضًا يا (محمد) ؟!

أجابه الرجل فى سرعة واهتمام ، وقد زال الجزء الأعظم من قلقه وتوتره ، مع هدوء وبساطة العقيد :

ـ لقد أخبرنى أيضًا أنه دائم التسلل إلى (إسرائيل) ، ويتصل باستمرار بأحد ضباط المخابرات الإسرائيلية ، والذى يبلغه بالتعليمات ، ويشرف على كل عملياته .

أومأ العقيد رأسه متفهمًا ، ثم سأله ، ولأول مرة ، فى اهتمام واضح :

ـ لماذا قررت الإبلاغ عنه يا (محمد) ؟

استعاد (محمد) شيئًا من توتره ، وهو يجيب :

ـ لا يمكننى أن أخون وطنى ، مقابل دولارات الدنيا كلها .

سأله العقيد فى شىء من الحزم هذه المرة :

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟!

ازدرد (محمد) لعابه مرة أخرى ، وهو يومئ برأسه إيجابًا فى صمت ، فعادت تلك الابتسامة الهادئة الواثقة ترتسم على شفتى العقيد ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ أحسنت فعلاً يا (محمد) ، ونحن نشكر لك اهتمامك وإبلاغك لنا بالأمر .. لقد قدمت خدمة جليلة للوطن بحق .

بدا الارتياح على وجه (محمد سليمان) ، فى حين قال رئيس المكتب فى اهتمام :

ـ إنه لم يخبرك بعد باسم الجاسوس .

اتسعت ابتسامة العقيد ، وهو يقول :

ـ لا داعى .. نحن نعرفه جيدًا فى المخابرات العامة .. إنه (أرميلات) .. (عامر سالمان على أرميلات) .

وانتفض (محمد سليمان) فى عنف على مقعده ، واتسعت عيناه فى شدة ..

فقد كانت مفاجأة له ..

مفاجأة حقيقية ..

منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها (عامر سالمان) ذلك السجن الإسرائيلى، فى عام 1977م، وأدرك مندوب المخابرات الإسرائيلية هناك أنه خميرة صالحة، لمشروع جاسوس .. فقد كان (عامر) عنيفًا، شرسًا، يهتم أكثر ما يهتم، فى هذه الدنيا بالمال، أيًا كان مصدره، أو العمل الذى أتى به ..

ولأن اختيار العناصر الصالحة للتجنيد، من بين المسجونين المصريين هو الهدف من وجود مندوب المخابرات الإسرائيلية فى ذلك السجن، فقد اهتم الرجل كثيرًا بمتابعة (عامر)، ومراقبته ..

واختياره أيضًا ..

والاختيار فى مثل هذه الأماكن ليس عسيرًا، فحتى فى عالم المساجين هناك الشرفاء والحقراء، والشهم والجبان، وهناك من يأبى الإساءة إلى زميل، حتى ولو تعرض للجلد بالسياط فى البرد القارص، ومن لا يتورع عن الوشاية بشقيقه نفسه، مقابل قليل من النقود، أو بعض الامتيازات البسيطة ..

وكان (عامر سالمان) .. من الفئة الأخيرة ..

لقد فعل كل ما يمكن فعله، بين جدران السجن، فى سبيل المال ..

باع الأسرار ..

وشى بالزملاء ..

تاجر فى المخدرات ..

كل شىء، فيما عدا القتل ..

وابتسم مندوب المخابرات الإسرائيلية فى ارتياح، بعد أن تأكد من أن اختياره كان مناسبًا تمامًا، وأعد تقريرًا مفصلاً عن (عامر) قدمه إلى رئيسه ضابط المخابرات الإسرائيلى، الذى أعاد دراسة الحالة بنفسه، قبل أن يضع على الملف تأشيرة بخط يده، تقول بالعبرية :

عينة صالحة جدًا، لأداء العمل المطلوب.

وعلى الرغم من هذا، لم تتم مصارحة (عامر سالمان) ولم يتم تجنيده مباشرة ..

فقد استخدمه الإسرائيليون للقيام ببعض العمليات البسيطة، داخل السجن، وبعد خروجه منه، دون تحديد هوية من يتعامل معهم، أو الإشارة إليهم ..

وعندما استعادت (مصر) (سيناء) كاملة، أدرك ضابط المخابرات الإسرائيلى أن الوقت قد حان لمصارحة (عامر) وتجنيده رسميًا ..

لم تكن وظيفة (عامر) ولم يكن موقعه الرسمى هما السبب فى سعى المخابرات الإسرائيلية خلفه، فهو يعمل كفراش فى مدرسة المطلة الإعدادية، بمطلة (رفح) فى سيناء.

ولكن المهم أنه من أبناء سيناء ، وقادر على التجول فيها بحرية .

وعلى رصد كل التحركات داخلها ..

والتقى (عامر) بضابط المخابرات الإسرائيلى (أ . ش) ، الذى تحدث معه لنصف الساعة فحسب ، ثم صارحه مباشرة بأنه يريده أن يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية .

ولأنه درس شخصية (عامر) جيدًا ، ويعلم الكثير عن طمعه وجشعه ، وشراهته للمال ، ولم يشعر بدهشة كبيرة ، عندما لم يبد الرجل اهتمامًا بالجهة التى سيعمل لحسابها ، وإنما سأله عن المبلغ الذى سيتقاضاه مقابل هذا ..

وهكذا ، واعتبارًا من منتصف عام 1982م أصبح (عامر سالمان على أرميلات) جاسوسًا لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

وضد وطنه (مصر) ..

وبدأت مرحلة التدريب ..

طوال عام كامل ، تم تدريب (عامر) على تمييز أنواع الأسلحة المختلفة ، ومعرفة وسائل التحركات العسكرية ، ونظم الجيش المصرى ، وغيرها من علوم الجاسوسية ، اللازمة لتنشئة خائن مثله ..

وبعد انتهاء مرحلة التدريب تلقى (عامر) التعليمات اللازمة لبدء عمله ..

كان عليه أن يجمع المعلومات عن بعض أنواع الأسلحة المصرية ، وأماكن وجودها ، وتحركاتها فى مناطق معينة فى (سيناء) ..

والعجيب أن (عامر سالمان) ، الذى لم يبد يومًا أدنى اهتمام بالعمل الجاد الشريف كان يعمل بهمة ونشاط مدهشين ، للإضرار بالوطن الذى نشأ فيه ، ونما من خيره سنوات طوال ..

كان يستيقظ مع الفجر ، ليراقب تحركات القوات العسكرية المصرية ، وخصوصًا فرق الدبابات ، من طراز 55/21 و56 أو الأسلحة الثقيلة فى منطقة (الخاربة) على الحدود المصرية الإسرائيلية .

وبين كل فترة وأخرى ، كان عامر يتسلل إلى إسرائيل ، عبر نقاط حدودية متفق عليها ، لينقل المعلومات إلى ضابط المخابرات الإسرائيلى (أ . ش) ثم يعود إلى (مصر) فى حذر شديد ، وتحت إجراءات حماية وتمويه متقنة ..

وعلى الرغم من هذا لم تغفل عنه العيون الساهرة ..

عيون رجال المخابرات العامة المصرية ..

فعلى الرغم من الحذر والتورية والتمويه ، وكل محاولات التغطية والحماية ، رصدت العيون المصرية تلك التحركات المريبة للجاسوس ، وراحت تتابعه ، وتكشف أساليبه ونواياه ، دون أن يدرك هذا لحظة واحدة ..

وحمل أحد ملفات المخابرات المصرية اسم (عامر سالمان على أرميلات) وراح هذا الملف يكبر ، ويتضخم ، ويتضخم ، ويتضخم دون أن يدرك صاحبه ما يدور خلف ظهره ، أو يتصور أن أمره قد انكشف ، وأن كل ما يتخذه من إجراءات الحذر والتخفى والتمويه لا طائل منه ولا أمل ، وأنه مجرد جهد ضائع ، وحذر فاشل ..

ولأن (عامر) أحد اثنين لا يشبعان ، فقد دفعته شراهته للمال إلى البحث عن وسيلة جديدة للاستزادة منه ، على حساب ضحايا جدد من أبناء وطنه وخيرة شبابهم .

المخدرات ..

ومن الواضح أن هذا الأسلوب الجديد قد أصاب هوى ضابط المخابرات الإسرائيلى وقيادته من خلفه ، فهو يحقق أحد الأهداف ، التى يسعون إليها منذ الأزل ..

تدمير الجبهة الداخلية العربية ، وإلقاء شبابها فى هوة الضياع ..

وأى ضياع أخطر من إدمان المخدرات ..

ولكن المجال كان جديدًا بالنسبة للجاسوس (عامر) ..

ومقلقًا ..

فعلى الرغم من أنه سيحصل على المخدرات من جهاز المخابرات الإسرائيلى ، إلا أنه ما زال يواجه خطر تهريبه إلى داخل البلاد ، وتصريفه بين شبابها ورجالها ..

ولأن حب المال يغلب دائمًا كل مشاعره الأخرى ، تخلى (عامر) عن حذر السنوات الطوال وعرض على كل من (قاعود حمدان سليمان) و(محمد سليمان جامع) معاونته فى جلب المواد المخدرة ، وإدخالها إلى البلاد ..

واستمع إليه الرجلان طويلاً ، ثم أسرعا إلى السلطات المصرية ، وأبلغا عنه .

وكان هذا يعنى أن الجاسوس قد تجاوز الحد المسموح به ..

وأن الوقت قد حان لوضع حد للعملية كلها ..

وذات صباح ، وبينما كان (عامر) يتجه إلى مدرسة (مطلة الإعدادية) ، والتى يعمل بها ، اعترض طريقه أربعة رجال أشداء ، داخل سيارة سوداء كبيرة وخرج أحدهم إليه ، ووضع يده القوية على كتفه ، وهو يقول له :

- لا داعى لذهابك إلى المدرسة يا (عامر) .. أنا العقيد (ن . ط) ، من المخابرات العامة المصرية .

انتفض جسد (عامر) فى عنف ، وتحركت قدماه حركة عنيفة ، وكأنه يهم بالفرار ، ولكن الرجال الأربعة أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وابتسم العقيد فى شىء من السخرية ، وهو يقول :

- هل تعتقد أنه من الممكن أن يفيدك الفرار؟!

شحب وجه (عامر) فى شدة ، وخفض عينيه إلى الأرض ، وهو يتمتم فى لهجة أقرب إلى البكاء :

- لا .

وفى استسلام تام استقل معهم السيارة السوداء الكبيرة ، ولاذ بالصمت طوال الطريق ، ودموع الندم تغرق عينيه ..

ولكنه لم يكد يصل إلى حجرة الاستجواب ، ويجلس أمام وكيل النيابة ، حتى عاد ينكر كل التهم المنسوبة إليه ، وبخاصة اتصاله بالمخابرات الإسرائيلية ، وإبلاغها بأية معلومات عسكرية ..

ولكن رجال المخابرات أفرغوا جزءًا من جعبتهم ، وواجهوه بالصور ، والوثائق ، والتسجيلات ..

وفى هذه المرة انهار الجاسوس ، وبكى بدموع من دم ، وتضرع ، وتوسل وحاول أن يلتمس لنفسه الأعذار والمبررات ..

واصطدمت دموعه وتوسلاته بجدار صلب قوى ..

أية أعذار ، وأية مبررات تلك ، التى تبيح لأى شخص كان خيانة وطنه ، وإهدار دماء أبنائه ..

وأدلى الجاسوس باعتراف كامل ..

شرح كيف اتصل به ضابط المخابرات الإسرائيلى (أ . ش) وكيف خان وطنه ، وتجسس لحساب الإسرائيليين ، ثم حاول تدمير شعبه بالمخدرات والإدمان والسموم البيضاء ، دون وازع من شرف أو دين أو ضمير .

وفى مايو 1996م ، أصدرت محكمة جنايات (العريش) حكمها على (عامر سالمان على أرميلات) بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبغرامة عشرة آلاف جنيه ، وقال رئيس المحكمة ، المستشار (أحمد حافظ مشهور) ، قبل النطق بالحكم كلمة ، أكد فيها أنه مهما تصورت المخابرات الإسرائيلية واعتقدت أنها تمتلك أساليب ووسائل للنيل من أمن وسلامة (مصر) فلابد وأن تدرك أن فى

(مصر) رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأنهم عين باتت تحرس أمنها ، وتحافظ على سلامة أراضيها ..

وكان أكثر الناس إيمانًا بكل حرف نطق به رئيس المحكمة آنذاك هو (عامر سالمان) نفسه ..

الجاسوس ..

جاسوس (سيناء) .

* * *

رائحة الخيانة

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السادسة بعد ، فى صباح السابع عشر من يناير ، عام 1973م ، عندما أدرك الجميع ، من ضباط ونزلاء ليمان طره أن ذلك اليوم لن يكون يومًا عاديًا أبدًا ، فقد ارتفعت على السجن راية سوداء ، تشير إلى أن حكمًا بالإعدام شنقًا سيتم تنفيذه ، قبل أن ينتصف النهار ، وأن شخصًا سيلقى جزاءه العادل لقاء ما اقترفت يداه يومًا ..

ولأن السجون لا تكتظ بالمحكوم عليهم بالإعدام فى المعتاد ، فقد أدرك الجميع أن الشخص الذى سيتدلى من حبل المشنقة بعد سويعات قليلة ، ليس سوى الجاسوس السكندرى (فؤاد) الذى خان وطنه ، وتعاون مع العدو فى الوقت الذى كانت فيه (مصر) تسعى للثأر ، ولاستعادة جزء محتل من أرضها ..

ولأن الجميع حتى القتلة والمجرمين ، كانوا يعرفون ما فعله (فؤاد) بوطنهم ، الذى ولد على أرضه ، وارتوى من نيله ، ونما فى خيره ، فلم تتسلل الشفقة إلى قلب أحدهم لحظة واحدة ، وإنما شملهم جميعًا شعور جارف بأن الخائن يستحق هذا الجزاء ، بل وتمنى بعضهم لو مزقه بيديه وأسنانه ، وألقى ما تبقى منه لكلاب الطرقات ، جزاء خيانته وجحوده .

ومع اقتراب الساعة العاشرة صباحًا ، سيق المتهم إلى المشنقة ، يصاحبه إمام السجن ، ومأمور التنفيذ ، وعشماوى ، و ...

وفجأة وكما يحدث فى بعض الأفلام السينمائية التقليدية القديمة ، وصل محامى المتهم وهو يلهث ويلوح بورقة رسمية فى يده ، هاتفًا :

– أوقفوا تنفيذ الحكم .. أوقفوه .. إننى أحمل أمرًا رسميًا من النائب العام بذلك .

وكانت مفاجأة عجيبة وغير متوقعة للجميع ، وأولهم المتهم نفسه ، الذى شهق على نحو غريب وكأنما عاد بالفعل إلى عالم الأحياء ، بعد موت معنوى ، دمر كيانه منذ لحظات ..

وراجع مأمور التنفيذ ، ومدير السجن العميد (بدر الدين الماحى) الأمر بنفسيهما ، وتأكدا من صحته ، ومن أن النائب العام قد أصدر قرارًا بوقف تنفيذ حكم الإعدام ، نظرًا للتقارير التى تقدم بها محامى المتهم ، والتى تثبت أن الجاسوس (فؤاد) مجنون ، وغير مسئول عن أفعاله .

ولم يكن أمام الجميع سوى تنفيذ الأمر ، وإيقاف تنفيذ حكم الإعدام .

رجل واحد بين الحاضرين كان يدرك جيدًا ، أن (فؤاد) لن ينجو من العقاب أبدًا .

هذا لأنه واثق تمامًا من أن ذلك السكندرى لم يكن مجنونًا أبدًا ..

هذا لأنه جاسوس محترف ، تفوح منه رائحة قوية ، لا يمكن أن تخطئها أنف رجل مخابرات محترف .

رائحة الخيانة .

المتابع لحياة (فؤاد حسن على حمودة) لم يكن من الممكن أن يتصور قط أن نهايته ستأتى على هذا النحو ، فقد كان موظفًا بسيطًا فى مطحنة حكومية للأرز بالإسكندرية ، له زوجة محترمة ، من عائلة طيبة ، رزق منها بثلاثة أولاد ، ويحيا حياة عادية للغاية ، فى شقة بسيطة متواضعة ، فى شارع (محرم بك) .

ولكن لسبب ما ، أعلن (فؤاد) تمرده فجأة ، على هذه الحياة البسيطة ، وتخلى عن الاهتمام بزوجته وأولاده ، وراح يصاحب الفتيات ويقضى لياليه فى لعب القمار ، واحتساء الخمر وتناول المخدرات ..

وفى سبيل هذه الحياة الفاسدة أنفق (فؤاد) كل ما ادخره فى سنوات عمله كلها ثم راح يستدين من هنا وهناك ، فتراكمت عليه الديون ، وضاق به الحال ، وصور له يأسه أنه ما من أمل من الخروج من هذه الأزمة سوى السفر إلى (أوروبا) والبحث عن عمل هناك متصورًا أنه سيجد فيها مصباح (علاء الدين) ، الذى سيخرجه من مغارة الديون والمشكلات المتراكمة بلا حدود ..

وسافر (فؤاد) بالفعل إلى ألمانيا، واستقر فى مدينة (كولون) فى بنسيون (فارسبورجر).

ومنذ أول ليلة فى (كولون) هرع (فؤاد) إلى أقرب ملهى وراح يرقص ويحتسى الخمر طوال الليل، ويجالس بعض الفتيات الألمانيات ذوات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، حتى نفدت نقوده عن آخرها، وعاد إلى البنسيون مفلسًا، ليسقط فى نوم عميق، حتى عصر اليوم التالى ..

وهنا نجد أمامنا علامة استفهام كبيرة، تحيط بطبيعة وأسلوب ذلك الرجل ..

فعلى الرغم من أنه لم يعد يملك مالاً، وفى احتياجه الشديد للبحث عن عمل، إلا أنه لم يكد يسترد اتزانه، بعد سهرة الأمس حتى هرع فى لهفة إلى الملهى نفسه، ليجالس ألمانية شقراء، ويحتسى الخمر، ويملأ معدته بأطيب الطعام ويرقص ويمرح، حتى قرب الفجر.

وعندما حانت لحظة الحساب اتسعت عيناه عن آخرهما، وحدق فى (الجارسون) بدهشة بالغة، وكأنما كان يتصور أن ذلك الملهى مجرد جمعية خيرية، لمعاونة الباحثين عن الفساد، والمتعة الحرام ..

وفى ارتباك شديد، أعلن أنه لا يملك ماركًا ألمانيًا واحدًا.

وكان من الطبيعى أن يثور (الجارسون) فى وجهه، وأن يتشاجر معه فى عنف، ويطالبه بدفع حساب طلباته، ومهددًا أياه بتسليمه للشرطة، وترحليه من (ألمانيا) كلها، لو لم يدفع.

ومع المشاجرة العنيفة، جاء صاحب الملهى لاستطلاع الأمر، واشترك مع موظفه فى توجيه الاتهامات والمطالبات وهو يسأل (فؤاد) فى غضبٍ عن جنسيته ..

ولم يكد (فؤاد) يذكر كونه مصريًا، حتى انقلب الموقف كله دفعة واحدة، كما لو أن كلمته قد ضغطت زرًا خفيًا، أزال كل شعوره بالتوتر فى أعماق المدير، وفجر فيها قنبلة من السعادة، فقد ارتسمت على شفتى الرجل ابتسامة كبيرة، وربت على كتفه فى حرارة قائلاً:

- أنت مصرى .. إذن. مرحى يا رجل .. أنا أيضًا ولدت فى مصر، ولى العديد من الأصدقاء المصريين .. تعالَ إلى مكتبى .. أعتقد أن لدينا الكثير لنتحدث فيه.

وفى مكتبه، طمأنه المدير بأن كل ما شربه وأكله سيصبح على نفقة الملهى، وأنه مستعد لمنحه المزيد فى المستقبل، ولإيجاد عمل له أيضًا، ثم ضاقت عيناه وهو يسأله فى بطء، وكأنه يزن كل كلماته، ويتابع رد فعله فى اهتمام:

ـ ما نوع العمل ، الذى تبحث عنه بالضبط ؟

هز (فؤاد) كتفيه ، وهو يجيب فى لهفة :

ـ أى عمل ، يمكن أن يدر الكثير من المال .

قال المدير بنفس البطء :

ـ الأعمال التى تدر الكثير من المال ، تنطوى فى المعتاد على بعض المخاطر .. والتجاوزات .

أجابه (فؤاد) فى سرعة :

ـ المهم أن يدر المال .

رمقه المدير بنظرة طويلة صامتة ، ثم عاد إلى ابتسامته ، قائلاً :

ـ فليكن يا سيد (فؤاد) .. عد إلى البنسيون الآن ، واصطحب معك من تشاء من فتيات الملهى ، على نفقتى بالطبع .. وسنلتقى غدًا لنتحدث قليلاً .

ولم يصدق (فؤاد) نفسه ، وهو يغادر الملهى آمنًا ، وفى يده ألمانية حسناء ، وفوجئ أيضًا بأن صاحبة البنسيون ، قد نقلت أمتعته إلى حجرة أكبر ، وراحت تعامله باحترام شديد ، على نحو يشف عن تلقيها توصية كبيرة بشأنه .

وفى اليوم التالى ، ذهب (فؤاد) لزيارة مدير الملهى ، الذى أحسن استقباله ، ودعاه لتناول الغداء معه ، ثم قال فى صراحة ووضوح :

ـ إننا نحتاج إلى بعض المعلومات عن (مصر) .. عن اقتصادها ، ونواياها .. وبالذات مع استعدادها لخوض حرب قادمة مع (إسرائيل) بعد هزيمتها فى حرب 1967م .

تطلع إليه فؤاد فى توتر ، فتابع الرجل وهو يميل نحوه ، ويرسم على شفتيه ابتسامة مهدئة :

ـ إننا نسعى لمنع الحروب فى العالم ، وكل ما نحتاج إليه هو معرفة ما استعداد أية دولة للحرب ، لنبلغ الدول الكبرى وعلى رأسها (أمريكا) لتمنع اندلاع الحرب ...

قاطعه (فؤاد) فى حسم :

ـ هذا لا يعنينى فى كثير أو قليل .. إننى مستعد للتعاون مع الشيطان نفسه ، لو أنه يدفع رواتب جيدة .

ابتسم مدير الملهى ، وتراجع فى مقعده فى ثقة وارتياح ، قبل أن يغمغم :

ـ عظيم .

قالها ، ومنحه بطاقة توصية خاصة ، إلى صديق له فى (بون) أطلق عليه اسم (إبراهيم) ، وحدد له عنوانه بدقة ، وطلب منه ألا يخبر أى مخلوق بهذا الأمر قط ..

وسافر (فؤاد) إلى (بون) ولم يكد يبلغ العنوان ، الذى منحه إياه مدير الملهى ، حتى بدت الأمور كلها واضحة ، على نحو لا يقبل أدنى شك ..

فقد كان هذا عنوان السفارة الإسرائيلية فى (بون) ..

أما (إبراهيم) هذا فقد كان ضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى استقبله هناك ، وجلس معه لثلاث ساعات كاملة ، سأله خلالها عن نفسه ، وعن أقاربه ، وجيرانه ، وزملاء عمله السابق ، وأصدقائه ، ثم طلب منه تدوين كل هذا بخط يده ، وبعدها أحضر خريطة كبيرة للإسكندرية ، وراح يسأله فيها عن عدة مواضع ، وبعدها منحه خمسين دولارًا ، وطلب منه أن يذهب للإقامة فى فندق (ماجستيك) ، وأخبره أن ينتظر اتصاله خلال بضعة أيام ..

ولم يمض وقت طويل ، حتى تم هذا الاتصال ، وبدأ (فؤاد) معه مرحلة التدريبات الأولية ، ليتعلم خلالها استخدام الأحبار السرية ، والشفرة ، والتصوير بالآلات الصغيرة (الميكروفيلم) ، والتعرف على كل أنواع الأسلحة وتمييزها ، وكيفية الحصول على مختلف المعلومات ..

وفى نهاية الدورة التدريبية أخبره (إبراهيم) أن راتبه الشهرى سيبلغ ثلاثمائة دولار ، بخلاف ما سيحصل عليه من مكافأة قدرها خمسين ألف دولار لو كشف لهم أمر أى جاسوس مصرى داخل (إسرائيل) ، ونصف مليون دولار دفعة واحدة ، لو أعلمهم يومًا بموعد أى هجوم مصرى على (إسرائيل) .

ومع كل تلك المغريات ، عاد فؤاد إلى (مصر) حاملاً لزوجته وأولاده عشرات الهدايا ، فى محاولة لاكتساب مودتهم مرة أخرى ، بعد أن هجرهم لعدة أشهر دون مبرر ، وأخبر الجميع أنه قد حصل على عمل خاص بالترجمة فى (ألمانيا) وأنه يعمل فى بيع السيارات أيضًا .

وعندما استقر به المقام ، بدأ عمله القذر على الفور ، وراح يعقد الصداقات مع عشرات الموظفين ، والعاملين فى الأماكن الحساسة ، ويسعى لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ، وأخذ يرسل كل ما يحصل عليه إلى صندوق بريد رقم (329) فى لندن باسم مستر (طومسون) .

ومع بداية عام 1972م ، وصلته الأوامر بالسفر فورًا إلى (لندن) ، وهناك التقى بضابط المخابرات الإسرائيلى (إبراهيم) ، الذى قدم له زميله (بوب) ، الذى يعمل فى السفارة الإسرائيلية فى (لندن) ، وأخبره أن هذا الأخير سيلقنه دورة تدريبية جديدة .

وبعد تلك الدورة التدريبية المتقدمة ، عاد (فؤاد) إلى (مصر) ، وهو يحمل ألف دولار جديدة ، مع مكافأة إضافية ، لاستئجار شقة خاصة ، أقنع ضابط المخابرات الإسرائيلية بأنها ستفيد عمله كثيرًا ..

وكانت هذه الشقة التى استأجرها فى شارع (خالد بن الوليد) فى (ميامى) ، هى وكر الجاسوسية الجديد ، والمكان الذى يستضيف فيه (فؤاد) أصدقاءه ليقدم لهم كل خدماته القذرة ، من خمر ومخدرات ونساء ..

وكلما انغمس المترددون عليه فى مستنقع قذارته ، أمكنه ذلك أن ينتزع منهم المزيد والمزيد من المعلومات ، التى يرسلها بانتظام إلى ذلك العنوان فى (لندن) .

ولقد سافر ابنه الأكبر إلى دورة دراسية فى (روما) ، وعاد منها ليبثه شكوكه فى أحد زملائه ، الذى كان يختفى لبعض الوقت ، ثم يعود بمبالغ كبيرة ، ينفقها بمنتهى البذخ ، قبل أن يختفى مرة أخرى ، وهكذا ..

وفى قلق شديد ، قال له ابنه :

أخشى أن يكون ذلك الزميل جاسوسًا للعدو الإسرائيلى ، وأعتقد أنه من واجبى أن أبلغ المخابرات المصرية بشأنه ..

انزعج (فؤاد) من الفكرة بشدة ، وبذل جهدًا شديدًا لإقناع ابنه بتجاهل الأمر ، وبعدم إبلاغ المخابرات المصرية ، بحجة أن هذا ليس من شأنه ، وأنه سيقحم نفسه فى مشكلات لا حصر لها لو فعل ..

وفى أول مناسبة ، سافر (فؤاد) إلى (روما) ، والتقى بضابط المخابرات الإسرائيلى هناك (دانيال) ، وأخبره باسم الشاب وبما لاحظه ابنه ..

ولقد أسعدت هذه المبادرة رجل المخابرات الإسرائيلى بشدة حتى إنه منح (فؤاد) ألف وخمسمائة دولار ، مكافأة ، وطلب منه مواصلة عمله الناجح فى (مصر) ..

وعندما عاد (فؤاد) إلى (مصر) ، وقلبه يرقص طربًا ، للمكافأة السخية التى حصل عليها ، لم يكن يدرك أن رفيق مقعده فى الطائرة ، ذلك البسيط الهادئ ، الذى انهمك فى قراءة رواية للكاتب (إحسان عبد القدوس) طوال الوقت ، لم يكن سوى رجل المخابرات المصرى (حمدى) ، الذى يتولى قضيته منذ فترة ليست بالقصيرة ..

فكما كانت شقة (خالد بن الوليد) وسيلة جديدة لمزيد من التجسس ، فقد كانت أيضًا أول الخيط الذى سيلتف حول عنق الخائن فى النهاية ..

فمن بين رواد تلك الشقة ، كان أحد المتعاونين مع جهاز المخابرات المصرى ، وهو أحد موظفى إحدى شركات الملاحة البحرية ، التى تتولى أعمال ميناء (الإسكندرية) ..

ولقد سقط (فؤاد) فى الفخ ، دون أن يدرى ، وراح يسأل (ممدوح) عن السفن السوفيتية التى تصل إلى الميناء ، وعما إذا كانت تفرغ بعض صناديق الأسلحة أم لا ..

وبمهارة تم تدريبه عليها جيدًا ، منحه (ممدوح) بعض الأجوبة ، التى لا تشفع أو تنفع ، ثم خرج من الشقة ، ليتجه إلى مكتب المخابرات فى (الإسكندرية) ، ويبلغهم بما لديه على الفور ..

وعندما تلقى (حمدى) تلك المعلومات ، راجعها مرتين ، قبل أن يقول لفريق العمل التابع له :

ـ هكذا تأكدت شكوكنا يا رجال .. الرجل جاسوس بالفعل .

كان هذا يعنى أن رجال المخابرات المصرية قد أيقنوا من أنهم يتعاملون مع جاسوس خائن ، بعد أن التقطت أنوفهم رائحة خيانته ، من خلال أسفاره المتعددة ، وخبراتهم القوية فى التعامل مع المخابرات الإسرائيلية وعملائها ..

ولكنه لم يكن يعنى أن بإمكانهم الإيقاع به .

فهذا كان يحتاج إلى دليل مادى قوى ، ولحظة مناسبة ، يتم اختيارها بدقة بالغة ..

وهكذا بدأت مرحلة المراقبة ..

والتتبع .. وجمع الأدلة والمعلومات ..

وبعد عودته من رحلة (روما) ، التقى (حمدى) بفريق العمل ، وعرض عليهم ما جمعه من صور واضحة ، وأحاديث مسجلة ، تجمع بين (فؤاد) وضابط المخابرات الإسرائيلى (دانيال) ، ثم تراجع فى مقعده ، قائلاً فى حسم :

ـ أعتقد أن العملية قد نضجت وحان قطافها أيها السادة .

ناقشوا الأمر لنصف ساعة أخرى ، قبل أن يوافقوه الرأى ، ويتم اتخاذ قرار إنهاء العملية ، وإلقاء القبض على الجاسوس .

وبعد الحصول على إذن النيابة العسكرية ، واختيار موعد مناسب للغاية ، تم اقتحام شقة (ميامى) ، فى السابعة صباحًا ، على نحو استيقظ معه (فؤاد) مذعورًا ، وهو يصرخ :

ـ ماذا هناك ؟!.. من أنتم ؟!.. ماذا تفعلون هنا ؟!

واجهه (حمدى) فى حزم صارم ، وهو يقول :

ـ نحن من المخابرات العامة المصرية ، وأعتقد أنك تعلم جيدًا ماذا نفعل هنا يا (فؤاد) ..

وكان (فؤاد) يعلم بالفعل ، فقد امتقع وجهه وشحب ، وزاغت عيناه فى شدة ، وعجزت ساقاه عن حمله ، فتهاوى جالسًا على أقرب مقعد ، وانعقد لسانه فى حلقه ، فراحت شفتاه تتحركان ، دون أن يخرج من بينهما حرف واحد ، فى حين انتشر رجال المخابرات فى المكان ، لجمع الأدلة ، والبحث عن كل ما يعنيهم ..

ولقد كان هناك دليل قوى للغاية ، يكفى وحده لإدانة (فؤاد) وإعدامه ..

ورقة تحمل بخط يده كل ما حصل عليه من معلومات فى سهرة الأمس ، والتى دونها استعدادًا لإرسالها إلى عنوان المخابرات الإسرائيلية فى (لندن) ..

وانهار (فؤاد) تمامًا ، وأدلى باعتراف تفصيلى ذيّله بتوقيعه ، دون أدنى ضغط أو إكراه ، ودموع الندم تغمر وجهه كله ..

بعد فوات الأوان ..

وتمت محاكمة (فؤاد) ، وصدر الحكم بإعدامه شنقًا ، بالفعل ، وصدق رئيس الجمهورية على الحكم ، وتم إيداع الجاسوس ليمان (طره) لتنفيذ الحكم ..

ثم حدث ما حدث ..

وتم إيقاف تنفيذ الحكم ..

ولكن رجل المخابرات (حمدى) كان على حق ..

لا يمكن أن يفلت الجاسوس من العقاب أبدًا ..

فلقد فحصت المحكمة العسكرية كل ما قدمه محامى المتهم ، وانتهت إلى أن الدفع بجنونه أمر غير مقبول إطلاقًا ، إذ إن ممارسته للجاسوسية على هذا النحو ، تؤكد سيطرته التامة على عقله وتصرفاته ، ومسئوليته الكاملة عن كل ما ارتكبه من أفعال تضر الوطن وتسىء إليه بشدة فى زمن الحرب ..

وفى الثلاثين من يناير ، أى بعد أسبوعين فحسب ، ارتفعت الراية السوداء مرة أخرى على ليمان (طره) ..

وسيق الجاسوس إلى المشنقة ..

وفى هذه المرة ، تم تنفيذ حكم الإعدام ، ولقى الجاسوس جزاءه العادل ..

وشعر (حمدى) بالارتياح ..

فالآن فقط ، زالت تلك الرائحة ..

رائحة الخيانة ..

* * *

زهرة السُّم ..

منذ اللحظة الأولى ، التى وطئت فيها قدما ذلك البحار الشاب ، أرضية المقهى الصغير الشهير ، فى ميناء (مارسيليا) الفرنسى ، أدرك الكل أنه هارب من شىء ما ..

كان زائغ العينين ، مرتجف الأطراف ، عصبى الملامح ، والعرق يغمر وجهه فى غزارة ، على الرغم من برودة الطقس فى الخارج ، وأصابعه الممسكة بقبعة البحار بين يديه ، تتحرك طوال الوقت ، على نحو عجيب ، وهو يتجه نحو البار مباشرة ، ثم يتوقف أمامه بضع لحظات ، ليحصى النقود القليلة فى جيبه ، قبل أن يقول :

ـ زجاجة مياه غازية فحسب .

ابتسم بعض البحارة القريبين فى سخرية ، وقهقه آخر فى آخر المكان ، فى حين تطلع البعض الأخر إلى الشاب فى شىء من الإشفاق ، وعامل البار يقول له ، فى صرامة قاسية :

ـ النقود أولاً .

كان العامل ، بخبرته فى هذا المجال ، يخشى أن يتناول الشاب زجاجته ، ثم يتضح بعدها أنه لا يملك ثمنها ، إلا أن الشاب ألقى

إليه بالنقود فى عصبية ، ثم راح يحصى ما تبقى لديه ، وهو يلتقط الزجاجة ، ويتجه بها إلى أبعد وأصغر منضدة فى المكان كله ، وعيناه الزائغتان مازالتا تدوران فى المكان على نحو جعله أشبه بحيوان صغير مذعور ، لا يدرى أين يمكن أن يذهب .

ولربع ساعة أو أقل ، لم يكن لرواد المقهى الصغير من حديث ، إلا عن ذلك الشاب والذى راح الكل يستنتج جنسيته ومشاكله ، ثم لم يلبث الجميع أن أهملوه وتناسوه ، وانشغلوا فى أعمالهم وأحاديثهم .

فيما عداها هى ..

(روز) تلك المرأة الجميلة الفاتنة ، التى تعرفها (مارسيليا) كلها ، منذ بضع سنوات ، والتى اعتادت التردد على مقاهى البحارة ، المنتشرة فى الميناء وحوله ، لقضاء بعض الوقت ولالتقاط زبائنها من بين بحارة السفن الأجنبية ..

وبالذات القادمة من الدول العربية ..

وفى (مارسيليا) كلها ، كانت تتردد رواية واحدة ، عن (روز) الحسناء ، التى تفتح قلبها فى صباها ، على حب بحار عربى شاب ، خلب لبها ، وأسكر عواطفها ، وأسمعها أجمل عبارات الحب والعشق ، ومنحها أروع أيامه ولياليه ..

ووفقًا للرواية اختفى البحار العربى ذات يوم ، وجن جنون (روز) ، وهى تبحث عنه فى كل مكان ، قبل أن تكتشف الشرطة جثته ، فى مخزن مهجور ..

فمع جمال (روز) وفتنتها ، اندفع بحار آخر مخمور ، إلى قتل حبيبها العربى ، مدفوعًا بالحب والغيرة وغياب العقل ..

وانهارت (روز) وهامت على وجهها فى شوارع مدينتها ، قبل أن تتخذ قرارها بالسفر إلى (مارسيليا) ، بحثًا عن بحار عربى آخر ، يمكن أن يعوضها عن حبيبها السابق .

ومنذ استقرت (روز) مع قصتها ، فى قلب (مارسيليا) ، وهى ترتاد كل المقاهى ، كانت (روز) تراقص بحارًا ألمانيًّا ضخم الجثة ، فى ضجر واضح حتى جذب الشاب انتباهها واهتمامها ، وخاصة مع اسم سفينته التجارية التى رست عند الميناء ، صباح اليوم فحسب ، والمكتوب فى وضوح ، على القبعة التى وضعها أمامه وعلى المنضدة الصغيرة ، وهو يرتوى بزجاجة المياه الغازية فى نهم ، وعيناه معلقتان بقطعة لحم كبيرة ، راح بحاران إيطاليان يلتهمانها فى شراهة على المنضدة المجاورة ..

وبخبرتها وذكائها ، أدركت (روز) أن البحار الشاب مصرى الجنسية ، وأنه يعانى من صعوبة اتخاذ قرار ما ، فى تلك الفترة فى أوائل سبعينات القرن العشرين .

وببضع كلمات هامسة ، ودعابة ماجنة ، تخلصت (روز) من الألمانى الضخم ، واتجهت مباشرة نحو مائدة البحار الشاب ، وجلست أمامه دون استئذان ، وهى تسأله فى صوت حمل طنًّا من الشفقة والحنان :

ـ أجائع أنت ؟!

ارتبك البحار الشاب بشدة ، ولوح بكفه فى ذعر ، هاتفًا :

ـ كلا .. لست جائعًا .

ابتسمت (روز) ابتسامة حانية ، قبل أن تستدعى النادل ، وتطلب منه وجبة دسمة ساخنة ، جعلت الشاب يرتبك أكثر ، وهو يقول :

ـ لا .. لست أر ...

قاطعته بابتسامة كبيرة ، وهى تربت على يده :

ـ اطمئن .. أنا سأدفع الحساب .

وجاء الطعام ، وتردد الشاب بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن أقبل عليه فى لهفة ، جعلتها تبتسم فى ثقة ، لبراعتها فى اختيار أهدافها ، وهى تراقبه فى صمت ، حتى انتهى من طعامه ، ثم غمغم فى خجل وارتباك .

شكرًا .. كنت أحتاج إلى هذا بالفعل .

منحته ابتسامة ساحرة ، وهى تسأله :

ـ أنت مصرى .. أليس كذلك ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال فى استسلام :

ـ بلى .. سفينتى رست هذا الصباح ، وستعود إلى الوطن صباح الثلاثاء القادم .. أى بعد خمسة أيام فحسب ثم تردد لحظة ، قبل أن يضيف فى خفوت :

ـ ولكننى لن أعود معها .

بدا فى الواضح أن عبارته الأخيرة قد جذبتها بشدة ، فقد اعتدلت فى مجلسها ، وتألق بريق ما فى عينيها ، وهى تسأله فى حذر :

ـ ولماذا ؟!

راح يروى لها معاناته فى (مصر) ، وعجزه عن توفير حياة كريمة لنفسه ، ومزج هذا بحديث ساخط عن غياب الديمقراطية ، وحالة اللاسلم واللاحرب ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية الرئيسية .

واستغرق حديثهما هذا المسار كله ، وحتى دقت الساعة ، معلنة

تمام الثانية صباحًا ، فابتسمت (روز) واحدة من ابتساماتها الساحرة ، وهى تقول :

ـ هل يمكننى أن أدعوك إلى المبيت أيضًا ؟!

ومرة أخرى ، تردد الشاب طويلاً ، ثم بدا وكأنه مغلوب على أمره ، وهو يتبعها فى صمت إلى منزلها الصغير الأنيق ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ولكنه ما أن أصبح داخل المنزل ، حتى ألقى نفسه على أقرب أريكة إليه ، وغرق فى سبات عميق ..

أما (روز) أو (زهرة مارسيليا) ، فقد وقفت تتطلع إليه بضع لحظات ، قبل أن ترفع أحد حاجبيها وتخفضه ، مغمغمة :

ـ ممتاز .

وفى هدوء دلفت إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى إحكام ، ثم انحنت تلتقط جهاز اتصال لاسلكى ، مخفيًا بمهارة فى تجويف خاص ، فى قاعدة فراشها ، وراحت تبث رسالة شفرية خاصة ، إلى سفينة صغيرة ، من السفن الدائمة فى الميناء ، والتى تقتصر مهمتها على استقبال مثل تلك الرسائل ، وإعادة بثها ، على نحو أكثر قوة ، وبوسائل أكثر تطورًا ، إلى قلب الدولة غير العربية الوحيدة ، فى الشرق الأوسط كله ..

وبعدها ، نامت (روز) ملء جفنيها ..

وفى الصباح التالى ، وقبل أن تغادر حجرتها ، كان جهازها اللاسلكى يستقبل أوامر عاجلة وصارمة من (الموساد) الإسرائيلى ، الذى تعمل لحسابه .

لابد من تطبيق الإجراءات المعتادة ، على هذا الصيد الجديد .. فورًا ..

ولقد نفذت (روز) الأوامر بمنتهى الدقة ، كما اعتادت أن تفعل فى كل مرة ..

فالحقيقة أن (روز) هذا لم يكن أبدا اسمها الحقيقى.

إنها (جولى جولد شتاين) ، يهودية من أصل فرنسى ، تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، منذ أكثر من ستة أعوام ..

أما قصة (روز) ، وحبيب صباها العربى ، فما هى إلا خدعة كبيرة لتبرير سعيها لعقد الصداقة والعلاقات ، مع بحارة السفن العربية ، وانتقاء النوعيات الصالحة منهم للتجنيد ، والعمل لحساب (الموساد) الإسرائيلى .

ولقد حققت (روز) نجاحًا ملحوظًا ، جعل المخابرات الإسرائيلية تعتبرها واحدة من أمهر وأبرع جواسيسها فى (أوروبا) كلها ..

ولعل براعتها تعود إلى جمالها الفاتن ، وقدرتها المدهشة على اصطناع الحنان ، ومنح الحب للجميع ..

وبخاصة البحارة العرب ..

وفى ذلك الصباح ، أعدت (روز) لضحيتها الشاب وجبة إفطار شهية ، قبل أن تسأله فى اهتمام :

ـ أما زلت مصرًا على عدم العودة إلى (مصر) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى أسى :

ـ أى عمل هنا ، سيكون أفضل من العودة إلى (مصر).

مالت نحوه ، هامسة :

ـ وماذا لو كانت العودة أفضل من البقاء هنا ؟!

بدا مبهورًا ، مع رائحة أنفاسها العطرة ، وهو يلهث ، متسائلاً :

ـ وكيف هذا ؟!

تراجعت بابتسامة كبيرة ، قائلة :

ـ عندى وسيلة مضمونة .

نطقتها ، ثم غمزت بعينها ، قبل أن تطلق ضحكة عابثة طويلة ، ظلت تتردد فى أذنى وقلب البحار الشاب حتى قدمته (روز) لصديقها (فرانسوا) ، الذى بدا شديد الوسامة والأناقة والود ، وهو يصافح البحار الشاب ويسأله عن استعداده للعمل داخل (مصر) ، براتب جيد ، ومكافأة سخية ، مع كل عمل جيد يقوم به .

وعندما سأله الشاب عن نوع العمل ، الذى يستحق كل هذا ، ابتسم (فرانسوا) ، مجيبًا فى خبث : هذا يتوقف على مدى مهارتك ثم مال نحوه ، وربت على ركبته ، مضيفًا : أكثر مما يهمنا هو أن تتميز بالكتمان ، وألا يعرف مخلوق واحد ما تفعله من أجلنا .

هتف الشاب بكل حماس :

- بالتأكيد يا مسيو (فرانسوا) .. بكل تأكيد .

وعلى عكس خططه السابقة ، عاد البحار الشاب إلى (مصر) ، وفى جيبه ثلاثمائة دولار ، مع مطلب واحد للوسيم (فرانسوا) ..

الحصول على أسعار الخضر والفاكهة فى (مصر) ..

وبعد شهر واحد ، عاد الشاب إلى (مارسيليا) واستقبل (روز) كما استقبلته ، بمنتهى الحرارة واللهفة ، وأخبرها أنه قد أحضر ما طلبه صديقها الوسيم ، وأضاف إليه أيضًا أسعار اللحوم ، والدجاج ، ومعلومة عن أزمة البيض والعلب المحفوظة ..

لقد ابتسم (فرانسوا) ابتسامة كبيرة ، وهو يستمع إلى هذه المعلومات ، قبل أن يمنحه ثلاثمائة دولار أخرى كراتب شهرى ، ومثلها كمكافأة لما أحضره من معلومات .

ولم يخف الشاب فرحته بالنقود ، ولا دهشته لعدم تناسبها مع المعلومات البسيطة التى أحضرها ، ولكن (فرانسوا) ربت على كتفه ، قائلاً :

- ربما تكون المعلومات المطلوبة أكثر أهمية ، فى المرة القادمة .

وكان هذا صحيحًا ، ففى المرة التالية ، كان المطلوب منه معرفة عدد السفن التجارية والحربية ، فى ميناء (الإسكندرية) ، وجنسياتها .

ولقد عاد الشاب بالمعلومة ، وأبدى سعادة أكبر بالمكافأة الجديدة ، التى أنفق نصفها على محبوبته الفاتنة (روز) ، قبل أن يعود إلى القاهرة ، مع أوامر بالسعى لمعرفة عدد مدافع الميدان حول الميناء التجارى فى (الإسكندرية) ..

وعاد البحار الشاب بالمعلومات الجديدة ، واستقبلته (روز) فى أجمل وأحلى ثيابها ، ومنحته أعذب ابتساماتها ، إلا أنه بدا صارمًا حادًّا ، وهو يقول :

- المعلومات التى يطلبها (فرانسوا) أصبحت مرهقة ، وأنا أضطر لإنفاق الكثير ، من أجل الحصول عليها .

تطلعت إليه بابتسامة خبيثة ، قبل أن تقول :

ـ هل تريد زيادة المكافأة ؟!!

هتف فى حدة :

ـ أظن أن هذا حقى .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تهمس فى أذنه ، وعطرها الفواح يلهب مشاعره :

ـ إنه حقك . ولكنك تعرف اليهود .. لن يمنحوك هذه الزيادة بسهولة .

كانت أول مرة تصارحه فيها بحقيقة من يعمل لحسابهم ، لذا فقد حدق فيها بضع لحظات مبهوتًا ، قبل أن يهز رأسه ، قائلاً :

ـ يهود أو حتى بوذيون .. المهم أن يدفعوا جيدًا ولقد راق هذا كثيرًا للوسيم ، الذى أعلن فى وضوح أن اسمه الحقيقى هو (إفرايم) ، وأن رؤساءه مستعدون لمضاعفة المكافأة ، لو أنه أحضر المزيد من المعلومات العسكرية والبحرية ، والتجارية أيضًا .

وبعد مساومة طويلة ، وافق الشاب على القيام بالمهمة الجديدة ..

وفى الزيارة التالية ، أحضر كومة لا بأس بها من المعلومات ، عن القطع التابعة للسلاح البحرى المصرى ، التى تحمى ميناء (الإسكندرية) ..

وكانت المكافأة سخية بحق ، حتى إن الشاب قد دعا (إفرايم) و(روز) إلى العشاء ، فى أحد أكبر مطاعم (مرسيليا) ..

وأثناء العشاء ، فجر الشاب مفاجأة مذهلة ، وهو يقول :

ـ الفرنسيون أحضروا بعض الصناديق العسكرية إلى سفينتنا سرًا ، مساء أمس .

جن جنون (إفرايم) وراح يبذل جهدًا خارقًا ، لمعرفة ما تحويه تلك الصناديق العسكرية ، إلا أن الشاب أكد أنه لا يفقه شيئًا عن الرسوم عليها ، وأنه لا يجيد الرسم لينقلها إليهم ، و .. و ..

ولأن الأمر بالغ الأهمية والخطورة ، تشبث (إفرايم) بذراع الشاب ، وهو يقول فى حدة :

ـ اسمع .. لابد أن أرى تلك الصناديق ، قبل أن تقلع سفينتك ، وبأى ثمن .. هل تفهم ؟!.. بأى ثمن .

نفض الشاب يده ، وهو يقول فى حدة :

ـ مستحيل !.. لن يسمحوا بصعود غريب إلى سطح السفينة أبدًا .. مستحيل !

بدا (إفرايم) شديد العصبية ، وهو يتحدث مع (روز) بالعبرية ، والشاب يتطلع إليهما فى بلاهة ، شأن من لا يفقه حرفًا واحدًا مما يقولانه ، قبل أن تومئ (روز) برأسها ، ثم تلتفت إلى الشاب ، قائلة فى هدوء :

ـ ألم تدعونى يومًا للقائك فى قمرتك ، على سطح السفينة ؟!

لوح الشاب بيده قائلاً :

ـ هذا الأمر يختلف .. إنهم يعتبرونها نزوة عاطفية ، و ...

قاطعته بابتسامة كبيرة ..

ـ فليكن .. سألقاك الليلة ، على سطح سفينتك ..

هتف بمنتهى اللهفة :

ـ حقًا ؟!..

واتسعت ابتسامة (إفرايم) فى ارتياح ..

ومع دقات الساعة ، معلنة منتصف الليل ، وقف (إفرايم) يفرك كفيه فى توتر ، وهو يراقب (روز) التى صعدت إلى سطح السفينة ، واستقبلها البحار الشاب بابتسامة أخيرة ، وهو يقول :

ـ أخيرًا يا زهرة (مارسيليا) .

ابتسمت فى ثقة ، قائلة :

ـ أخيرًا يا حبيب القلب .

أمسك يدها فى قوة أدهشتها ، وهو يقودها إلى قمرات البحارة ، فسألته فى لهفة ، لم تستطع إخفاءها :

ـ أين الصناديق الفرنسية العسكرية ؟!

ابتسم فى خبث ، قائلاً :

ـ أية صناديق ؟!

خيل إليها أنها تراه لأول مرة ، بقامته الطويلة ، وصدره العريض ، وهو يتطلع إليها فى ظفر عجيب ، جعلها تقول فى حدة :

ـ من أنت بالضبط ؟!

أغلق الباب العازل للصوت ، وهو يقول بلهجة قوية حازمة ، لم تعتدها منه قط :

ـ من تتوقعين أن أكون ؟!

نطقها بالعبرية ، وبطلاقة مدهشة ، جعلت جسدها كله ينتفض فى عنف ، وهى تحدق فيه بكل ذعر الدنيا ، فأمسك ذراعيها فى

قوة ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، بنظرة جمدت الدم فى عروقها ، وهو يتابع :

ـ صديقكِ (إفرايم) ، الذى يراقب المكان فى الخارج ، سيشاهد بعد قليل ، على الضوء الخافت ، اثنين يشبهاننا ، يغادران السفينة ، ويستقلان سيارة ، تقلهما إلى خارج الميناء ، ومن المؤكد أنه سيحاول تعقبهما ، ولكنه لن يعثر عليهما أبدًا .

حاولت عبثًا التملص من قبضتيه القويتين ، وهو يستطرد :

ـ لقد أوقعت الكثيرين فى فخك ، حتى إنك لم تتركى أمامنا من سبيل ، سوى إزاحتك عن الطريق لإنقاذ شباب بحارتنا ، من مخالبك الوردية .

هتفت فى زعر :

ـ هل .. هل ستقتلوننى ؟!

أجابها فى لهجة ، حملت رنة ساخرة.

ـ لو أردنا قتلك ، لكنت الآن جثة هامدة ، فى قاع البحر .

ثم مال نحوها ، حتى خيل إليها أنها ستذوب فى عينيه الصارمتين المسيطرتين ، مع إضافته :

ـ سترحلين معنا إلى (القاهرة) .

مع آخر حروف كلماته ، ارتفعت صفارة السفينة ، معلنة إقلاعها فى الميناء ، فانتفض جسدها بكل رعب الدنيا ، وهى تهتف مكررة :

ـ من أنت ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ لن يهمك معرفة من أنا .. يكفى أن تعلمى أننى أنتمى إلى المخابرات العامة المصرية .

وهنا ، انهارت (روز) تمامًا .

وفى نفس الوقت ، الذى كاد فيه (إفرايم) يصاب بالجنون ، وهو يقلب كل شبر فى (مارسيليا) رأسًا على عقب ، بحثًا عن (روز) ، كانت السفينة المصرية ترسو بها فى ميناء الإسكندرية ، حيث تنتظرها واحدة من سيارات المخابرات المصرية ، لتضع اللمسة الأخيرة والنهاية لهذه العملية ..

عملية زهرة (مارسيليا) ..

المسمومة .

* * *

عملية إنقاذ

اندلعت حرب السادس من أكتوبر 1973م بغتة ، على نحو لم يتوقعه أو يتخيله العدو الإسرائيلى قط ، بفضل خطة خداع استراتيجية متقنة ، تضافرت من أجلها جهود العديد من أجهزة الدولة ، وعلى رأسها جهاز المخابرات العامة ، الذى نفذ العشرات من العمليات المدهشة ، التى شاركت فيها عقول خبرائه ، وبطولات رجاله ، وبسالة عملائه ، الذين لم يتركوا ثغرة واحدة ، أو احتمالاً ولو ضئيلاً ، يمكن أن ينفذ منه الخصم ، لإدراك أن (مصر) لم ولن تستسلم للهزيمة والاحتلال ، وأنها هبت حتمًا لاستعادة حقها ، ونيل ثأرها ، وإن طال المدى ..

وفى غفلة من العدو وعيونه ، هبّت مصر ، وانقضت كعاصفة عاتية ، أو كإعصار مباغت عنيف ، لتقتلع خط (بارليف) ، أقوى مانع عسكرى عرفه التاريخ ، وتسحق بلا رجعة أسطورة العدو الذى لا يُقهر ..

وانهزم العدو ، وانتصر جيشنا ، وراحت قواتنا تتدفّق على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ، وأطلقت رمال (سيناء) زغرودة فرحة ، وهى تستقبل جنود أصحابها وأبنائها ..

وتوالت الانتصارات ، وأدرك العالم لأوّل مرة أن (مصر) دولة قوية صنديدة ، قادرة على المقاومة ، والقتال .. والنصر ..

ومع فرحة النصر ، وسحر العبور ، خرجت جموع الشعب المصرى إلى الشوارع ، إثر إعلان وقف إطلاق النار ، تهتف باسم قائدها ، وشجاعة وعبقرية رجاله ، وبسالة جنوده وأبنائه .. و ...

وفجأة ، انطلقت فى وسط الجموع صرخة ، تحمل كل فرحة الدنيا :

ـ (ماهر) بك ..

اخترقت الصرخة أذنى (ماهر) ، الضابط السابق فى القوات المسلحة المصرية ، وأحد عملاء ورجال المخابرات المصرية ، الذين ساهموا فى الحرب النفسية ضد العدو الإسرائيلى ، طوال عدة أعوام ناجحة ..

واستدار (ماهر) إلى مصدرها ، ووقع بصره على صاحبها ، الذى اندفع يشق الجموع نحوه ، وهو يهتف بسعادة غامرة :

ـ يا إلهى !.. كم تسرنى رؤيتك !

وقبل حتى أن يبتسم (ماهر) ، الذى تعرّف على صاحب الصرخة على الفور ، كان هذا الأخير يعانقه فى حرارة ، ويصافحه بانفعال لا محدود ، ويشدّ على يده فى قوة ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ هل تذكرنى يا (ماهر) بك ؟!

اتسعت ابتسامة (ماهر) ، وهو يقول :

- بالطبع أذكرك يا (إبراهيم) .. كيف حالك ؟!

أطلق (إبراهيم) هذا ضحكة عالية ، تموج بالارتياح ، قبل أن يجيب :

- أنا فى خير حال .. بفضلك ، بعد الله - سبحانه وتعالى - فلولاك لكان حالى الآن غير الحال ..

غمغم (ماهر) :

- لولاى أنا ؟!

ربت (إبراهيم) على كتفيه بحرارة ، قائلاً ، ومكررًا :

- لولاك ، بعد الله - سبحانه وتعالى - يا (ماهر) بك .

جمدت ملامح (ماهر) بضع لحظات ، قبل أن يستعيد ابتسامته ، وهو يغمغم :

- حمدًا لله على سلامتك يا (إبراهيم) .

نطقها ، وعقله يستعيد ذكريات أربعة أعوام مضت ..

ذكريات أهم عملية فى حياته ..

عملية إنقاذ .. (إبراهيم) ..

* * *

(إبراهيم) شاب بسيط ، من أبناء (مصر) ، الذين عاشوا مرحلة النكسة ، وانكسرت فى أعماقهم حماسات جميلة ، عاشوا يتغنون بها طويلاً ، فانسحقت معها نفوسهم ، وخيَّم الظلام على أحلامهم وآمالهم ، فصاروا يتخبطون فترة كالعميان ، فى سنوات عصيبة عسيرة ، استقر خلالها العدو فى (سيناء) ، وتدلَّت قدماه فى مياه قناة (السويس) ، وصدى ضحكاته الساخرة الظافرة يؤذى مسامع كل مصرى وطنى ..

وعلى الرغم من أن (إبراهيم) قد خضع للتجنيد الإجبارى كسواه ، فى تلك الفترة ، التى راحت (مصر) تسعى فيها لاستعادة جيشها وقوتها ، إلا أن حلم السفر والعمل فى الخارج ظل يراوده ، فى صحوه ومنامه ، كأمل أخير فى الخروج من الأزمة ، وتجاوز المحنة ، التى تصوَّر مخطئًا ، كفئة من أهل (مصر) ، أن عبورها أكثر استحالة ، من عبور بحر من النيران ، بزورق من القماش ، المغموس فى بنزين نقى ..

والعجيب أن هذا الحلم لم يفارق (إبراهيم) لفترة طويلة ، حتى وهو يشارك رفاقه تدريباتهم ومناوراتهم ، ويستمع إلى أحاديثهم ، التى تؤكد أن أحدًا منهم لن يخرج من مرحلة التجنيد الإجبارى أو يتجاوزها ، إلا بعد مرور المحنة ، التى تبدو وكأنه لا خروج منها قط ..

شىء ما فى أعماقه كان يؤكِّد له أنه سيتجاوزها يومًا ما ، على نحو أو آخر ..

ولأن ذهنه منشغل دومًا بأحلامه وأمنياته ، ارتكب (إبراهيم) خطأ بسيطًا ، أثناء إحدى المناورات ، مما أدى إلى إصابته بجرح ، استلزم نقله إلى أحد المستشفيات العسكرية للعلاج ..

وفى المستشفى العسكرى ، جلس (إبراهيم) ينتظر دوره كالمعتاد ، فى صمت وصبر وسكون ، وعيناه تراقبان كل ما يحدث حوله ، كوسيلة للتسلية البريئة ، فى ظروف كهذه ..

ثم وقعت عيناه على (صبحى) ..

ضابط من أصل عربى ، ترك مهنته ودولته ، وأتى ليقيم فى (مصر) مع زوجته ، معلنًا إيمانه بأهداف وطموحات قادتها ، ومؤكدًا استعداده للموت من أجلها ..

وفى (مصر) ، استقرّ (صبحى) ، وحاز القبول لدى بعض المسئولين ، فطاب له المقام ، وحظى بمقام رفيع ، ومنصب ممتاز ، وعلاقات قوية ، بدت واضحة للغاية ، فى تعاملاته داخل المستشفى العسكرى ، وأسلوب حديثه مع كبار مديريها ومسئوليها ..

وانبهر (إبراهيم) بوضع (صبحى) هذا فى المستشفى ، وانبهر

أكثر باقتراب هذا الأخير منه ، وجلوسه إلى جواره ، بمنتهى البساطة والتواضع ، والانهماك معه فى حديث طويل ، وكأنهما صديقان قديمان ..

وكعادة المصريين البسطاء ، أفرط (إبراهيم) فى الحديث ، وراح يدلى بكل ما لديه عن وحدته ، ورفاقه ، وتدريباتهم ، والمناورة التى أصيب فيها أيضًا ..

وباهتمام مغلَّف بالهدوء والبساطة ، استمع إليه (صبحى) هذا ، وتركه يروى كل ما لديه ، قبل أن يمنحه ابتسامة كبيرة ، ويربِّت على كتفه ، قائلاً :

لابد وأن نلتقى كثيرًا يا أخ (إبراهيم) .. سأعطيك عنوانى ورقم هاتفى ، وسأنتظر زيارتك .

لم يصدِّق (إبراهيم) نفسه ، عندما طلب منه (صبحى) زيارته ، واحتفظ بالورقة التى تحوى العنوان ورقم الهاتف ، وهو يمنى نفسه بأن يساعده هذا الشخص ، صاحب الاتصالات والنفوذ ، فى تحقيق حلمه القديم ..

وفى أوَّل إجازة له ، اتصل (إبراهيم) بذلك الرجل (صبحى) ، فاستقبل الرجل اتصاله بالحرارة والترحاب ، وطلب منه أن يأتى لزيارته فورًا ..

ولم يضيع (إبراهيم) لحظة واحدة ..

لقد ذهب فورًا لزيارة (صبحى) ، وكله لهفة فى أن يقص عليه حلمه ، وأن يجد لديه مطلبه ..

وفى منزله ، استقبله (صبحى) بحرارة وترحاب أكثر ، ليقفز انبهار (إبراهيم) إلى الذروة ، مع مرأى المنزل الفاخر ، والأثاث الأنيق باهظ الثمن ، والأجهزة التى لم ير لها مثيلاً ، إلا فى أفلام السينما الحديثة فحسب ..

ومع انبهار (إبراهيم) وخفقات قلبه المشدوهة ، راح (صبحى) يتحدَّث إليه ، ويسأله عن أحواله ، وأحوال وحدته ، وآخر أخبار المناورات ، و ...

وفجأة ، سأله (إبراهيم) ، وكأنه لم ينتبه إلى وجوده إلا فى هذه اللحظة :

ـ سيِّد (صبحى) .. ألك معارف فى دول الخليج ؟!

صمت (صبحى) بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يبتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ لى أخت تقيم فى (الكويت) ، وزوجها يمتلك تجارة كبيرة هناك .

هتف (إبراهيم) فى لهفة :

ـ وهل .. هل يمكنك أن تجد لى عملاً لديه ؟!

اتسعت ابتسامة (صبحى) أكثر ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .

ولم يكد (إبراهيم) يغادر المنزل بعدها ، وهو يكاد يطير فرحًا ، حتى أطلق (صبحى) هذا ضحكة ، عالية مجلجلة ، والتقط سمَّاعة هاتفه ، مغمغمًا :

ـ طير جديد وقع فى القفص .

فى الليلة نفسها ، وإثر المحادثة الهاتفية ، استقبل (صبحى) ضيفًا آخر ، فى التاسعة والنصف مساءً ، وصافحه فى حرارة ، قائلاً :

ـ لدينا طير جديد .

سأله ذلك الضيف الجديد (ماهر) فى اهتمام :

ـ وما نوعه ؟!..

ولساعة كاملة ، راح (صبحى) يشرح لصديقه (ماهر) كل ما يتعلَّق بذلك الشاب (إبراهيم) ، قبل أن يقول فى النهاية :

ـ وكما ترى ، هو صيد ممتاز ، سيسعد الأصدقاء محبى السلام ،

فى العالم الحر ، وموقعه سيمنحنا الكثير من المعلومات ، التى ستساعدنا على معرفة ما إذا كان المصريون يستعدون بالفعل لحرب ثأرية ، أم إنهم سيستسلمون لحالة الاحتلال هذه .

قال (صبحى) كل هذا ، واستخدم تلك المصطلحات ، التى ميَّزت عالم الجاسوسية ، فى تلك الحقبة ، مطمئنًا إلى أن (ماهر) يعمل إلى جواره ، لصالح المخابرات الإسرائيلية ، التى رمز إليها وهمًا ، باسم (العالم الحر) ، دون أن يخطر بباله ، ولو لحظة واحدة ، أن (ماهر) هذا يعمل لحساب جهاز مخابرات آخر تمامًا ..

لحساب المخابرات العامة المصرية ..

ولقد استمع إليه (ماهر) فى هدوء واهتمام ، كما علمه رجال المخابرات المصرية ، قبل أن يقول فى حزم :

- أريد أن أراه أوَّلاً ، وسأخبرك برأيى بعدها .

ضحك (صبحى) ، قائلاً :

- اطمئن .. لقد طلبت منه أن يحضر غدًا مساءً ، ومعه كل أوراقه ، فهو يتصوَّر أن لدى من الاتصالات ، ما يمكن أن يتيح له الخروج من وضعه الحالى ، والسفر للعمل فى (الكويت) فورًا .

أدرك (ماهر) على الفور أن (صبحى) قد ألقى شباكه بالفعل حول (إبراهيم) ، وأنه لم يعد أمامه سوى أن ينشب مخالبه فيه ، ويلقيه فى المستنقع ، الذى كاد هو نفسه يقع فيه ، لولا يقظته فى اللحظة الأخيرة ، ولجوءه إلى رجال المخابرات المصرية ..

وبعد منتصف الليلة نفسها بساعة أو يزيد ، التقى (ماهر) بضابط المخابرات المصرى (أ. ص) ، الذى يتابع حالته ، وأخبره بأمر (إبراهيم) ، وما يعدّه (صبحى) الجاسوس له ..

وبكل الحزم ، قال (أ. ص) :

- لا تدعه يقع فى الفخ أبدًا يا (ماهر) .. امنعه من هذا بأى ثمن .. هل تفهم .. بأى ثمن .

ثم صمت بضع لحظات ، قبل أن يضيف :

- ربما كانت سياسة بعض أجهزة المخابرات الأخرى ، هى أن تترك مثله ، حتى يسقط فى المستنقع ؛ لتزيد من عدد انتصاراتها ، عندما تلقى القبض عليه فيما بعد ، أما نحن فسياستنا تختلف .. إننا نسعى لمنعه من السقوط ، بأية وسيلة كانت .

ووضع يده على كتفه ، مكملاً :

- إنها مهمتك .

والتقط (ماهر) الكلمة، وأقسم فى أعماق نفسه على تنفيذها، بالأسلوب الذى حدده له (أ . ص) ..

مهما كان الثمن ..

وفى زيارة (إبراهيم) التالية، كان (ماهر) هناك، يشاركهم مجلسهم، ويتعامل مع (إبراهيم) بغلظة وفظاظة وتجاهل، جعل هذا الأخير يبغضه كل البغض، ويتصوَّر أنه يحاول منعه من السفر للعمل فى (الكويت)؛ لأنه يغار منه، ويرفض له الخير ..

وحاول (إبراهيم) أن يجتذب ود (ماهر) بأية وسيلة، طوال تلك الليلة، ولكن (ماهر) ظلَّ عابسًا فى وجهه، متجهمًا معه، حتى انصرف الشاب، تاركًا كل أوراقه للجاسوس (صبحى)، وهو يلعن (ماهر) فى أعماقه ألف مرة ..

وبعد انصرافه، سأل (صبحى) (ماهر) فى حيرة، عن سر تعاملاته الفظة مع (إبراهيم)، فأجابه فى حزم:

إنه لا يساوى شيئًا .. كل ما لديه من معلومات، يمكننى إحضار ما هو أفضل منه ..

وصمت لحظة، قبل أن يضيف:

وبسعر أقل ..

ليلتها ضحك (صبحى) كما لم يضحك من قبل، وتصوَّر أنه قد فهم هدف (ماهر)، من إبعاد (إبراهيم)، وقال فى حماس:

ـ أنت على حق .. لماذا نمنحه مكافآت كبيرة .. فلنخبرهم أننا قد جندناه، ولنمنحهم ما كنا سنحصل عليه من معلومات، ولنربح نحن مكافأته.

شاركه (ماهر) ضحكته، وهو يشعر بارتياح عميق فى أعماقه؛ لأن مهمته قد نجحت من الضربة الأولى ..

ولكنه لم يكتف بهذا، فما تعلمه من رجال المخابرات المصرية، جعله لا يستكين لأى نصر عاجل وسريع؛ لذا فقد التصق أكثر بالجاسوس (صبحى)، وحضر كل مقابلاته التالية مع (إبراهيم)، وتأكَّد من أنه لم يعد يوليه الاهتمام الكافى، حتى يأس الشاب، وانصرف نهائيًا، وهو يبغض (ماهر) أشد البغض ..

ثم قرَّر رجال المخابرات العامة إنهاء قضية الجاسوس (صبحى)، وتم إلقاء القبض عليه، فى مارس 1969م ..

وفى التاسع والعشرين من إبريل، من العام نفسه، نشرت الصحف تفاصيل إلقاء القبض على الجاسوس (صبحى)، ونشرت صورته، وصورة (ماهر)، ودوره فى العملية، التى لعب فيها

دور الجاسوس المزدوج ؛ ليخدع المخابرات الإسرائيلية وجاسوسها ، ويوقع الجميع فى النهاية ..

وقرأ (إبراهيم) الصحف ، وشاهد الصور ..

ووقع قلبه بين قدميه ..

لحظتها فقط فهم (إبراهيم) ما الذى كان يفعله (ماهر) ، عندما كان يتعامل معه بكل الغلظة والخشونة والصلف ، أثناء زياراته للجاسوس (صبحى) ..

لحظتها فقط أدرك أنه قد منعه من السقوط فى مستنقع رهيب ، لو دفع فيه قدميه ، لحملت الصحف صورته ، إلى جوار صورة (صبحى) ، فى ذلك اليوم ..

وتحولت مشاعره فى لحظة واحدة ، تجاه (ماهر) ، من البغض إلى التقدير ..

كل التقدير ..

ـ « لقد أنقذت حياتى ومستقبلى يا (ماهر) بك .. »

انتزعت عبارة (إبراهيم) (ماهر) من أفكاره وذكرياته ، فاستعاد ابتسامته ، وهو يربت على كتف (إبراهيم) ، قائلاً :

ـ لم أكن وحدى يا (إبراهيم) .

هتف (إبراهيم) فى حرارة :

ـ أعلم هذا يا (ماهر) بك .. أعلم هذا ..

ثم عاد يعانقه ، ليهمس فى أذنه :

ـ أبلغهم تحياتى .. وشكرى أيضًا .. شكرى الجزيل .

ابتسم (ماهر) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ سأفعل .

مرة أخرى ، تصافحا ، وافترقا وسط الجموع ، التى تحتفل بالنصر ، و(ماهر) يشعر بالسعادة والفخر ، والزهو بنفسه ؛ لأنه شارك يومًا فى تلك العملية ، التى ما زال يعتبرها أهم عملية فى حياته ..

عملية إنقاذ .. مواطن مصرى .

* * *

عملية عيد الميلاد

« الجنرال (بن عمتاى) يُقيم حفلاً، بمناسبة عيد ميلاده .. »

هذا الخبر، الذى يناسب صفحة الاجتماعيات، فى جريدة (جورساليم بوست)، كان مضمون البرقية الشفرية العاجلة، التى وصلت إلى المخابرات العامة المصرية، فى تلك الساعة المبكرة، من صباح أحد أيام شتاء 1972م ..

وعلى الرغم من أن مضمون البرقية كان مباشرًا للغاية، ولا ينطوى على أية مضامين خفية، إلا أن رجل المخابرات المصرى (أمجد) استقبلها باهتمام بالغ، جعله يواصل التطلُّع إليها لخمس دقائق كاملة، قبل أن يضعها على سطح مكتبه، ويتراجع فى مقعده، مشبكًا أصابعه مدة طويلة للغاية ..

ففى تلك الفترة، كان (أمجد) واحدًا من المعدودين، الذين يعلمون أن الحرب على الأبواب، على الرغم من كل ما تبذله الدولة، وما تخطِّط له هيئة الأمن القومى، للإيحاء بالعكس تمامًا، وبأن القيادة السياسية والعسكرية تخشى الدخول فى حرب خاسرة مع العدو الإسرائيلى، وتستكين أكثر لحالة اللاسلم واللاحرب، التى سادت المنطقة منذ عام أو عامين ..

ولأن الركيزة الأولى لأية مواجهة عسكرية هى المعلومات، فقد كان (أمجد) جزءًا من فريق خاص عهدت إليه مهمة جمع كل المعلومات الممكنة عن العدو، عسكريًا، واقتصاديًا، وحتى اجتماعيًا قبل موعد المواجهة الشاملة ..

ولقد بذل الرجال قصارى جهدهم بحق ..

ولأنهم عملوا بكل جد وجهد، فقد حصلوا على فيض من المعلومات المهمة، عن الجيش الإسرائيلى، وتسليحه، وخط (بارليف)، وتحصيناته، وجنرالاته ..

فيما عدا الجنرال (بن عمتاى) ..

فعلى عكس باقى جنرالات (إسرائيل)، الذين سكروا بخمر انتصارهم فى يونيو 1967م، وانتفخت أوداجهم، وأجسادهم، وكل مشاعر الزهو والغرور فى أعماقهم، وصدقوا أكذوبة جيشهم الأسطورى، الذى لا يُقهر، كان (بن عمتاى) ما زال واقفًا على أرض الواقع، مُدركًا أن انتصار يونيو 1967م هذا لا يمكن أن يتكرَّر قط، وأن العرب لن يستسلموا أبدًا لمشاعر الهزيمة والعار، والحرب آتية لا ريب، طال الوقت أم قصر ..

ومن هذا المنطلق، كان الرجل شديد الجدية والالتزام والحذر، لا يتحدَّث عن عمله خارج مكتبه قط، ويراجع أوراق كل من

يعمل فى إدارته بنفسه ، وبمنتهى الدقة والاهتمام ويستبعد فورًا كل من تراوده بشأنه ذرة من الشك ..

ذرة واحدة ..

ولكن الجنرال (بن عمتاى) كان مسئولاً عن قطاع شديد الأهمية والخطورة ، فى المرحلة القادمة بالذات ، ألا وهو قطاع الأمن والاستطلاع ، فى قلب (سيناء) المحتلة ..

وحتى تكتمل المعلومات ، كان من المحتم اختراق قطاع الجنرال (بن عمتاى) هذا ..

وبأى ثمن ..

وطوال ستة أشهر كاملة ، لم تنجح أية محاولة لاختراق حاجز المعلومات ، الذى صنعه الرجل حول نفسه ، لشدة حذره وشكوكه ..

ولكن رجال المخابرات المصرية لا يستسلمون أبدًا ، ولا يؤمنون حتى بكلمة مستحيل ..

لذا فقد واصلوا المحاولة ، بمنتهى الإصرار والتحدى ، وتم إسناد العملية للسيِّد (أمجد) ، باعتباره واحدًا من أذكى وأبرع رجال الجهاز ، فى تلك الفترة ، وأكثرهم خبرة فى التعامل مع جنرالات (إسرائيل) ..

وكعادته ، حمل (أمجد) ملف الجنرال (بن عمتاى) كله إلى مكتبه ، وراح يدرس كل حرف فيه لساعات طوال .. للغاية ..

ثمانى عشرة ساعة كاملة ، قضاها (أمجد) فى حجرته ، يدرس الجنرال (بن عمتاى) ، وعاداته ، وطبائعه ، وتاريخه ، وكل ذرة من حياته وعمله ..

ومع مطلع الفجر ، أدرك (أمجد) أن ما يقولونه صحيح ..

الجنرال (بن عمتاى) منيع بحق ..

ومع رشفات فنجان من القهوة المركَّزة ، بعد صلاة الفجر ، راح (أمجد) يعيد دراسة الموقف كله من منظور جديد ، يعتمد على مبدأين ، يؤمن بهما بكل ذرة فى كيانه ..

أولهما أنه لا وجود للمستحيل ؛ لأن كل شخص ، مهما بلغت مناعته وقوته ، لديه حتمًا ثغرة ما ، أو نقطة ضعف خفية ، يمكن التسلل إليه عبرها ..

وثانيهما أنه عندما يتعذَّر الانقضاض على الخصم مباشرة ، لابد من الدوران حوله ، والهجوم من مصدر غير مباشر ..

وعلى الرغم من إرهاقه ، وعينيه اللتين تقاتلان فى استماتة للبقاء مفتوحتين ، فى العاشرة والربع صباحًا ، وضع (أمجد) يده على نقطة ضعف الجنرال (بن عمتاى) غير المباشرة ..

زوجته (أنابيلا) ..

فصحيح أن (بن عمتاى) رجل قوى منيع ، إلا أن (أنابيلا) مجرَّد امرأة إسرائيلية عادية ، طامحة إلى السباحة فى ذلك النعيم ، الذى ترفل فيه زوجات الجنرالات الأخريات ، بعد انتصار يونيو ، وأوسمة النصر ، التى تثقل صدور أزيائهم الرسمية ..

كان هذا فى منتصف عام 1972م ، عندما اجتمع (أمجد) بفريق العمل التابع له ، بعد ثلاث ساعات فحسب من النوم العميق ، وراح يشرح لهم خطته بكل التفاصيل ..

وبمنتهى الدقّة ..

وكالمعتاد ، لم تكن خطة تقليدية على الإطلاق ، كما أنها كانت تعتمد على تجنيد جاسوس آخر ..

جاسوس لم يكن من الممكن أن يخطر ببال أى مخلوق قط ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، بدأ تنفيذ الخطة ..

بدأت بالسيطرة على (كيتى) ، زوجة جنرال إسرائيلى آخر ، يتمتع بنفوذ قوى ، داخل مجلس قيادة الجيش هناك ، وبصلات متينة مع كبار المسئولين العسكريين والسياسيين فى (إسرائيل) ..

وعلى الرغم من منصب زوجها ، كانت (كيتى) امرأة عابثة مستهترة ، تميل إلى التظاهر والتباهى ، وترتبط سرًّا بعلاقة قوية ،

مع ضابط شاب وسيم ، يتولّى منصبًا إداريًا بسيطًا ، فى الإدارة التابعة لزوجها ..

والجزء الأخير كان سريًا للغاية ، أو هكذا تصوَّرت (كيتى) ، التى لم تلتق بصديقها قط فى أماكن عامة ، أو تبدى أى اهتمام خاص به ، فى أية مناسبة تجمعهما ، حرصًا على مظهرها ، وخشية رد فعل زوجها العنيف ، وسلطاته الواسعة ..

وذات يوم ، سافر الزوج فى مهمة خاصة ، لتفقُّد استحكامات خط (بارليف) الجديدة مع فريق من المسئولين وقيادات الجيش ، فانتهزت (كيتى) الفرصة ، لقضاء اليوم كله مع صديقها الشاب ..

وعندما غادرت (كيتى) فى المساء ذلك المنزل ، الذى يستأجره صديقها ، فى ضواحى (تل أبيب) ، والذى لم يدلفا إليه أو يغادراه معًا أبدًا ، وجدت سائحة فرنسية شابة تستند إلى سيارتها ، وتلقى حقيبتها الصغيرة على مقدمتها فى لا مبالاة ، وشعرها الأشقر الطويل ينسدل على كتفيها بلا نظام ، فأشارت لها بيدها فى صرامة ، قائلة :

ـ ابتعدى عن سيارتى .

رمقتها الفرنسية بنظرة لا مبالية ، ثم التقطت حقيبتها فى بطء مستفز ، وفتحتها لتلتقط منها مظروفًا أصفر ، اعتدلت وهى

تناوله للإسرائيلية ، قائلة فى لهجة هادئة ، تجمع نبراتها بين الأمر والحزم ، وبلغة عبرية ذات لَكْنَةٍ فرنسية واضحة :

ـ ستجدين رقم الهاتف بالداخل .

وقبل حتى أن تكتمل العبارة ، كانت الفرنسية قد تركت المظروف بين أصابع (كيتى) ، وانطلقت مبتعدة بخطوات سريعة ، فهتفت بها (كيتى) ، فى مزيج من الدهشة والاستنكار :

ـ وما شأنى بهذا ؟!

لم يبدُ حتى أن الفرنسية قد سمعتها ، وهى تنحرف فى شارع جانبى صغير ، وتختفى عن نظرها تمامًا ، ولآخر مرة ..

ولوَهْلَةٍ ، فكّرت (كيتى) فى أن تلقى المظروف جانبًا ، وتمضى فى طريقها ، إلا أنها لمحت بطرف عينيها اسمها على المظروف ..

ليس اسم (كيتى) ، الذى يناديها به زوجها والأصدقاء ، ولكن اسمها الحقيقى .. وبالكامل .

وبكل دهشتها حدّقت (كيتى) فى المظروف ، ثم فتحته بأصابع مرتجفة مترددة ، و ...

وكانت الصدمة قوية .. وعنيفة .. للغاية ..

فالمظروف كان يحوى مجموعة من الصور ، التى تجمعها بصديقها الضابط الشاب ، فى جلساتهما الخاصة ، فى مناسبات عديدة ، وبينها صور للقائهما الذى انتهى منذ دقائق معدودة ..

وامتلأت نفس (كيتى) برعب لا حدود له ، وانطلقت محاولة البحث عن تلك الفرنسية بلا جدوى ، وفكّرت فى العودة إلى صديقها الشاب ، وإبلاغه ما حدث ، إلا أنها خشيت أن يصيبه الرعب ، فيقدم على حماقة تدمرهما معًا ، فانطلقت بسيارتها عائدة إلى منزلها ، ولم تكد تُغلق باب حجرتها على نفسها ، حتى التقطت هاتفها ، واتصلت بالرقم المدوَّن على الورقة الصغيرة ، التى وجدتها مع الصور ..

كانت تتوقّع أن تجيبها تلك الفرنسية ، لذا فقد اندهشت وارتبكت ، عندما أجابها صوت رجالى خشن ، تحمل عبريته لكنة ألمانية ، فقالت فى عصبية :

ـ معذرة .. لقد تصوّرتُ أن ..

قاطعها الرجل فى صرامة :

ـ الاتصال صحيح يا (كاتالينا) .

والعجيب أن كيانها كله قد انهار دفعة واحدة ، عند هذه النقطة ، واستمعت إلى أوامر الرجل فى استسلام تام ، أكّد خضوعها للأمر ، واستعدادها للقيام بكل ما يطلب منها مهما كان ..

وفى ظهر اليوم التالى، التقت (كيتى) بالرجل، فى دار سينما صغيرة فى (تل أبيب) .. وكانت هذه هى البداية بالنسبة لها ..

وبالنسبة لخطة (أمجد) العبقرية أيضًا ..

ولقد استغرقت مرحلة إعداد (كيتى)، والتيقُّن من ولائها شهرين كاملين، تصوَّرت هى خلالهما، أن المهمة التى يعدونها لها، هى جلب أسرار زوجها وعمله، باعتباره جنرالاً مهمًّا فى القيادة الإسرائيلية، لذا فقد فوجئت بحق، عندما أدركت فى نهاية المدة، أن كل المطلوب منها هو أن ترتبط بصداقة وثيقة مع (أنابيلا) زوجة الجنرال (بن عمتاى) ..

ولم تفهم (كيتى) الغرض من صداقة كهذه، ولم يكن من المفترض لها أن تفهم، وإنما أن تطيع الأوامر فحسب، وأن تؤدى الأمور بالأسلوب الذى تدرَّبت عليه، بمنتهى الدقة والبراعة، وإلا فسيتم إرسال نسخة من الصور والوثائق إلى زوجها، ونشر بعضها فى صحف الفضائح الإسرائيلية أيضًا ..

ولأن (كيتى) لم تفهم أبدًا الغرض مما ستفعله، فقد أقدمت عليه بكل اهتمامها، ونفذت ما تدرَّبت عليه بالضبط ..

ومن الواضح أن بعض خبراء علم النفس قد ساهموا فى وضع خطة التدريبات هذه، فلم تمض عدة أشهر، حتى كانت

(كيتى) هى الصديقة الصدوق لزوجة (بن عمتاى)، التى لا تفارقها قط، ولا تبخل عليها بالنصح أبدًا ..

والواقع أن (أنابيلا) المغلقة محدودة الذكاء، قد انبهرت بشخصية (كيتى) وأسلوبها حتى إنها أصبحت فعليًّا فى موضع التابعة وليس الصديقة، وأصبحت (كيتى) هى الرادار الذى يوجه مشاعرها وتصرفاتها على نحو أفضل حتى مما حلمت به المخابرات المصرية ..

وكان الضحية هو الجنرال (بن عمتاى) نفسه ..

فلأوَّل مرة فى حياتها، بدأت (أنابيلا) تعترض، وترفض، وتغضب، وتصرّ على أن تحيا فى نفس المستوى الاجتماعى، الذى تحيا فيه زوجات الجنرالات الآخرين ..

وفى البداية، تجاهل (بن عمتاى) أسلوبها وغضبها، بشخصيته الصارمة القاسية، ولكن نصائح وتوجيهات (كيتى)، التى لقنتها إياها المخابرات المصرية، أحالت حياة الرجل إلى جحيم، كاد يفقده صوابه، ويُفسد حياته كلها، دون أن يُدرك السبب الحقيقى لهذا؛ بسبب أن زوجته لم تخبره قط بشأن (كيتى)، ولم تستقبلها فى منزلها أبدًا، فى غيابه أو وجوده ..

ولأنه ما من رجل يمكن أن يحتمل هذه الحياة طويلاً، وافق (بن عمتاى) أخيرًا على أن تقيم له زوجته حفل عيد ميلاد، فى منزلهما الأنيق فى (تل أبيب) ..

وجُنَّ جنون (أنابيلا) من شدة الفرح والسعادة ، وأسرعت تزف خبر انتصارها إلى صديقتها (كيتى) ، التى سألتها فى اهتمام :

- وهل لديك من يتولَّى أمر حفل كهذا ؟!..

أبدت (أنابيلا) دهشتها وحيرتها بهذا الشأن ، وحاولت إقناع (كيتى) بأنها قادرة وحدها على تولِّى الأمر ، ولكن (كيتى) استنكرت هذا واستهجنته تمامًا ، ثم أعطتها رقم هاتف شركة متخصصة فى مثل هذه الأمور ، وأخبرتها بغمزة غير ذات معنى ، أنها ستوصيهم بتقديم أفضل الخدمات لها ..

ولأن الجنرال (بن عمتاى) رجل شديد الحذر ، فقد جمع بعض التحريات عن تلك الشركة وتأكَّد من سلامتها أمنيًا ، قبل أن يسمح لزوجته بالاتصال بها ، وإسناد أمر تنظيم الحفل إليها ، بشرط تحديد أسماء كل من سيدخل المنزل منهم أوَّلاً ..

والمدهش أن خطة (أمجد) كانت تتوقَّع ذلك الإجراء ، وتستعد له منذ زمن طويل ..

ففى نفس الوقت ، الذى تم تجنيد (كيتى) فيه ، التحق شاب بسيط المظهر بتلك الشركة ، المتخصصة فى إقامة المعارض والحفلات ، بتوصية من شركة سياحية شهيرة فى (تل أبيب) ،

وأبدى ذكاءً ملحوظًا فى هذا المضمار ، مما قرَّبه من مدير الشركة وسكرتيرتها التنفيذية ، التى أُغرمت به تمامًا ..

ولأن إقامة حفل عيد ميلاد جنرال إسرائيلى كبير ، كان أمرًا يهم الشركة كثيرًا ، فقد تم إسناد مهمة تنظيمه إلى الشاب ، باعتباره خبيرًا فى مثل هذه الأمور ، كما أكَّدت توصية (ماجى تورز) للسياحة ، وكما أثبت خلال شهور عمله بالمكان ..

ولأن ذلك الشاب كان أحد أهم العملاء المستترين للمخابرات المصرية ، فى قلب إسرائيل ، فقد كان ملفه الأمنى نظيفًا تمامًا ، على نحو اطمأن معه جهاز التحريات الأمنى ، الخاص بالجنرال (بن عمتاى) ، ووافق على دخوله منزل هذا الأخير ..

وفى الأسبوع الأوَّل من يناير 1973م ، أُقيم حفل عيد ميلاد الجنرال (بن عمتاى) فى منزل هذا الأخير ..

ولأن الحفل كان يضمُّ عددًا من كبار القادة العسكريين ، ورجال الصفوة فى المجتمع ، وبعض السياسيين اللامعين ، فقد انتشر رجال الأمن فى المكان ، وقاموا بتفتيش كل رجال الشركة ، والتأكُّد من أنهم لا يحملون أية أغراض مريبة ، قبل السماح لهم بدخول منزل (بن عمتاى) ، الذى بدا أكثر الجميع عصبية وتوترًا ، ربما لأنها المرة الأولى ، التى يستقبل فيها ضيوفًا رسميين فى

منزله ، أو ربما لأنها أوّل مرة يستقبل فيها ضيوفًا ، على أى مستوى .. ولقد بدا الشاب هادئًا باسمًا بسيطًا ، أثناء عملية التفتيش ، ولم يكن يحمل سوى دفتر ورقى بسيط ، وقلم من الحبر ، باعتباره المشرف العام على تنظيم الحفل ، والمسئول عن متابعة كل أفراد الشركة خلاله ..

ولقد بدا الشاب أشبه بشعلة من النشاط بالفعل ، وهو يتحرك فى كل مكان ، ويُتابع كل شىء وكل شخص ، ويدوّن ملاحظاته هنا وهناك ، حتى إن أحد رجال الأعمال المدعوين قد همس فى أذن (بن عمتاى) بانبهار :

- قل لى .. هل تعتقد أنه باستطاعتى إقناع هذا الشاب بالعمل فى شركتى ..

وحاول (بن عمتاى) أن يبتسم ، وهو يُهمهم بعبارة غير مفهومة ، محاولاً السيطرة على عصبيته البالغة ، ومقسمًا فى أعماقه على ألا يُكرّر هذا الحفل أبدًا ، مدى الحياة ..

ثم حانت لحظة إطفاء شموع كعكة عيد الميلاد ، وتابع الشاب الموقف بنفسه ، وبمنتهى الاهتمام ، ثم أشار إلى رجاله ، فأطفئوا أنوار المنزل ، وبدءوا فى إنشاد أغنية أمريكية طويلة ، قبل إطفاء الشموع ..

وكان الغناء جميلاً وأنيقًا إلى حد الإبهار ، حتى إنه جذب انتباه الكل ، بما فيهم رجال الأمن والحراسة ، وجعلهم لا ينتبهون إلى طول الأغنية ، ولا إلى اختفاء الشاب فى قلب الظلام ، والذى دام لخمس دقائق كاملة ، قبل أن ينتهى الغناء ، ويطفئ الجنرال (بن عمتاى) شموع عيد ميلاده ، وتعود الأضواء للسطوع مرة أخرى ..

ومع عودة الأضواء ، ظهر الشاب مرة أخرى ، ليتابع كل شىء بمنتهى الاهتمام والنشاط .. ولكنه لم يعد يُدوّن ملاحظاته ..

بل ولم يلتقط قلما بعدها مرة واحدة ؛ لأن القلم قد فقد الكثير من أجزائه الداخلية ، ولم يعد صالحًا للعمل على نحو عادى ..

وفى نهاية الحفل ، تنفس (بن عمتاى) الصعداء ، وشعرت (أنابيلا) بكل سعادة الدنيا ، وهى تتلقّى التهنئة من زوجات الجنرالات ، اللاتى لم يستطعن إخفاء حسدهن ، واللاتى تسابقن للحصول على اسم الشاب وشركته ، وأرقام هواتفها ، للاتصال بها عند إقامة أى حفل منزلى ..

وفى ساعة متأخرة من الليل تلقّى (أمجد) برقية شفرية عاجلة من (تل أبيب) ، تحوى عبارة واحدة مقتضبة :

- كل سنة وأنت طيب ..

وأغمض (أمجد) عينيه ، وهو يبتسم فى ارتياح جارف ، فالعبارة

كانت تعنى أن عملية دس أجهزة التنصت ، فى حقيبة الجنرال (بن عمتاى) الشخصية قد تمت بنجاح ، وهذا يعنى أنه ، ومن الآن فصاعدًا ، ستلتقط المخابرات المصرية كل همسة تدور داخل مكتب مسئول الأمن والاستطلاع الإسرائيلى فى (سيناء) المحتلة ..

وهذا ما كان بالفعل ، حتى لحظة اندلاع حرب أكتوبر 1973م ..

لقد صنعت المخابرات المصرية قناة اتصال ومعلومات مباشرة ، مع مكتب أمن (سيناء) ، فى القيادة الإسرائيلية نفسها ..

وحصلت على فيض جديد من المعلومات بعملية لم يُدركها أو يتصوَّرها الإسرائيليون ربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

عملية عيد ميلاد ..

للنصر .

* * *

كلمة السر .. شالوم

انطلقت دقات الساعة ، تعلن تمام منتصف ليلة آخر أيام عام 1972م ، فى (القاهرة) ، وراحت عقاربها تزحف فى شغف نحو الدقيقة الأولى فى عام 1973م ، وسط حالة من المرح الصاخب ، لكل من أصر على الاحتفال بقدوم عام جديد ، على الرغم من نظم الإضاءة المتحفظة ، اللون الأزرق الذى يغطى زجاج النوافذ ، والأعصاب المشدودة ، التى خرجت على التو من غضبة شعبية عارمة ، اجتاحت معظم شباب وطلاب (مصر) ، اعتراضًا على حالة اللاسلم واللاحرب ، واستنكارًا للهدوء العجيب ، الذى تتعامل بها القيادة السياسية ، وجزء كبير من أرض الوطن يرزح تحت نير الاحتلال الإسرائيلى ..

ولأن المصريين شعب عجيب ، يصعب على أية عقلية أجنبية فهمه ، فقد خرج الناس من كل هذا ، أو انتزعوا أنفسهم منه ، ليختطفوا لحظات من الاحتفال والمرح ، تجعلك تتصور أن أحدًا لا يبالى بذلك التوتر الدائم على الحدود .

وبالنسبة للنظرة العامة ، كان الأمر يوحى بأن الكل يحتفلون ، خلف الأبواب المغلقة ، والشوارع الخالية ، وأصوات الموسيقى المرتفعة ، التى تتسلل من وراء النوافذ الزرقاء ..

ولكن هناك .. فى مبنى المخابرات العامة ، كان الرجـال يجتمعون ، لسبب مختلف تمامًا ..

فمنذ عام كامل على الأقل بلغتهم أخبار عن نظام دفـاعى جديد وخطير ، يقيمـه الإسرائيليـون بطول قنـاة (السويس) لصد أية محـاولة مصرية للعبور ، أو بلـوغ خط (بارليف) ، الذى أشيع أنه أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ..

وعلى الرغم من أن المعلومة وصلت مـن مصدر موثـوق بـه للغاية ، فإن طبيعة العمل فى هذا المضمـار ، كـانت تحتـم التيقن من صحة الخبر تمامًا ، قبل اتخاذ أية إجراءات بشأنه ..

وخلال ذلك العام ، انطلق الرجال يعملون كجيش متكامل فى بقاع الأرض ، لجمع كـل المعلومـات الممكنـة ، عن ذلـك الخبـر البـالغ الخطورة ..

وتأكد الأمر بالفعل ..

الإسرائيليون أقاموا شبكة من الأنابيب بطـول قنـاة (السويس) ، مهمتهـا أن تضـخ مـادة مشتعلة علـى سطح القنـاة ، فـور إقـدام المصريين على أية محاولة عبور ، بحيث يتحـول الأمـر فـى لحظـات إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

ولأن المعلومة أخطر مما يمكن تصوره ، ونتائجها تبدو مخيفة بحق ، كان على الرجال أن يواصلوا الجهد بلا هـوادة ، للحصـول على أجوبة شافية لعدد من الأسئلة المهمة ، التـى تطـرح نفسـها كتداعٍ طبيعى للموقف ..

كيف سيتم ضخ تلك المادة ؟!

ما موقع الأنابيب ، وفتحاتها بطول القناة ؟!

وأخيرًا ، وهو الأهـم ، مـا طبيعـة المـادة المستخدمة فـى ذلـك الخط النارى الرهيب ؟!

وعلى الرغم من أن الأسئلة ، التى بلغت ضِعْفَى المشار إليـه ، والتى تضمنت بعض الأمـور بالغـة السرية ، والتى لا يزال من المستحيل نشرها لم تحتل سوى صفحة واحدة فى محضر الاجتمـاع ، فإن الإجابة عليها احتاجت عاما كاملاً ..

عامًا قام الرجال خلاله بأعمال بطولية ، وتضحيات مذهلة ، فى سبيل الحصول على كل الأجوبة الممكن ..

عميل للمخـابرات المصرية فى (فرنسـا) تمكن بمغـامرة مدهشـة من الحصول على تصميمـات المضخـات الماصـة الكابسـة ، التـى يستخدمها الإسرائيليون فى خط اللهب ..

وعميل آخر ، داخل (تل أبيب) نفسها ، حصل على قائمة بأسماء المهندسين ، الذين صمموا ونفذوا شبكة الأنابيب بطول القناة ..

وسكرتيرة عسكرية ، إسرائيلية الجنسية ، من أصل بولندى ، تعمل لحساب المخابرات المصرية فى قلب مركز المعلومات ، نسخت خريطة الشبكة كلها ، وأرسلتها إلى (مصر) من خلال واحد من أخطر عملائنا فى (إسرائيل) ..

وبقيت مشكلة بالغة الخطورة ..

وسؤال لابد من إجابته ، لتصبح كل الأجوبة الأخرى ذات معنى ومغزى ..

ما طبيعة المادة المستخدمة ؟!

ومن اجل هذا السؤال بالذات اجتمع الرجال ، فى الدقائق الأولى فى عام 1973م ..

كانت كل المعلومات الواردة تقول إن تلك المادة عبارة عن خليط من (النابلم) و (الفسفور) ، وعدد من العناصر الأخرى ، التى يحتفظ الإسرائيليون بأسمائها وتركيبها سرًا ، ويحيطونها بأكبر قدر من التحفظ والحماية ، داخل أحد مصانعهم العسكرية ، فى صحراء النقب ..

ولأنه من الضرورى إجراء تجربة عملية حول تأثير إطلاق تلك المادة على مياه القناة ، فى لحظة العبور ، كان من المحتم أن نحصل على ذلك التركيب السرى ..

أو ـ وهذا هو الأفضل ، والأكثر خطورة ـ أن نحصل على عينة من المادة نفسها ..

وعندما التف الرجال حول مائدة الاجتماعات ، كان الجواب الوحيد ، الذى توحى به كل الحقائق هو كلمة واحدة ..

كلمة (مستحيل) !!

فذلك المصنع ، الذى يحوى مادة خط اللهب ، مقام فى مكان معزول تقريبًا ، ويحاط بحراسة بالغة مشددة ، وإجراءات أمن بالغة الدقة والتعقيد ، وكل العاملين فيه من القدامى ، الذين روجعت ملفاتهم ألف مرة وتم التأكد بما لا يدع مجالاً للشك من أنهم أهل للثقة ، فى موقع كهذا ..

وفى كل مرة ، عندما يغادر العاملون المصنع فى إجازاتهم الأسبوعية المحدودة ، يتم تفتيشهم بمنتهى الدقة ، كما يخضعون لمراجعة أكثر دقة ، قبل السماح لهم بدخول المصنع عند العودة ..

وهذا يعنى أن الإسرائيليين لم يتركوا ثغرة لذبابة واحدة ..

فما بالك بعميل للمصريين ؟!!

ولكن الرجال فى (القاهرة) كان لديهم مبدآن ، يؤمنون بهما ، ويتعاملون من خلالهما بمنتهى الثقة والحزم .. والحسم أيضًا ..

فكل جهاز أمن ، مهما تبلغ دقته ، يحوى حتمًا ثغرة ما ..

والأهم أنه ـ كما قال (نابليون) يوما ـ لا يوجد مستحيل !..

لذا كان على الرجال أن يعتصروا عقولهم ، ويستعيدوا كل خبراتهم ، للبحث عن تلك الثغرة ، التى لا تبدو للفاحص العادى ..

ولأن طبيعة عمل المخابرات تؤمن تمامًا بالفكر الجماعى ، فقد راح الرجال يراجعون معًا كل المعلومات الممكنة والواردة عن مصنع النقب ، ونظمه الأمنية ، وأطقم حراسته ، وملفات العاملين فيه ..

كل شىء .. بلا استثناء ..

وراح الوقت يمضى .. ويمضى .. ويمضى ، حتى أشرقت شمس أول أيام العام الجديد ، والرجال يحتسون قدح القهوة السابع ، ويواصلون مراجعة الملفات والمعلومات ، والبحث عن تلك الثغرة المحتملة ..

وفى إرهاق شديد تثاءب أحدهم ، وحاول أن يبتسم وهو يغمغم :

ـ لو أننى أعلم أننا سنستغرق كل هذا الوقت لأحضرت دواء السعال معى أمس .

بادله رئيسه نفس الابتسامة المرهقة ، وهم يقول شيئًا ما ، ولكن فجأة انعقد حاجباه ، وقفزت إلى ملامحه علامات التفكير العميق ، على نحو أدار عيون الجميع إليه ، وحبس أنفاسهم فى صدورهم ، وجعل قلوبهم تخفق فى قوة ، عندما تألقت عيناه ، وهو يستعيد ابتسامته ، التى زايلها الإرهاق ، وصارت أكثر إشراقًا ، مع قوله :

ـ أعتقد أننى قد عثرت على الثغرة !

سأله أحدهم فى لهفة :

ـ ألديك فكرة لدخول مصنع النقب ؟!

هز رأسه نفيا ، واتسعت ابتسامته أكثر ، وهو يجيب :

ـ بل للخروج منه ..

وفى هذه المرة ، استغرقت المناقشات وقتًا أطول .. أطول بكثير ..

* * *

(دان ميلوسكى) رئيس العمال فى مصنع النقب ، يبدو من الوهلة الأولى وكأنه رجل لا يعانى من أية نقاط ضعف بشرية على الإطلاق .. فهو ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، قوى الملامح ، ورث عن والده المجرى تلك القسمات الحادة والشارب الكث ، وعن أمه اليهودية عينيها السوداوين الحازمتين الباردتين ..

وفى حياته العامة ، لم يكن (ميلوسكى) سكيرًا أو مقامرًا ، وليست له أية علاقات نسائية على الإطلاق .. بل إنه حتى لم يتزوج ، على الرغم من أنه يمتلك شقة أنيقة فى الضواحى ، وله راتب جيد إلى حد كبير ، ومنصب يحسده عليه أقرانه ، ممن لم يتلقوا حظًا كافيًا من التعليم ..

ومنذ التحق بالعمل فى مصنع النقب ، تسير حياته على وتيرة واحدة لا تتغير ، فهو يقضى أسبوع العمل كله هناك ، ويعود إلى شقته ظهر الجمعة ، فيغتسل ، وينام لثلاث أو أربع ساعات ، ثم يخرج إلى مقهى قريب ، ويقضى وقته هناك وحيدًا ، حتى يعود إلى منزله فى منتصف الليل ، وينام حتى صباح السبت ، الذى يخرج فيه لزيارة أمه العجوز ، وقضاء اليوم كله بصحبتها ..

وفى ذلك اليوم ، فى أوائل فبراير 1973م ، ذهب (ميلوسكى) لزيارة أمه كالمعتاد ، فالتقى عندها بأول حب فى حياته .. (ميرينا يازوسكى) ..

ولقد قدمتها إليه أمه باعتبارها جارة شابة ، حضرت لقضاء شهر كامل مع شقيقها الذى يقيم فى الجوار ، ففوجئت بسفره لحضور مؤتمر كيميائى فى (واشنطن) ، باعتباره خبيرًا كيميائيًا ، له أبحاث عديدة معروفة ..

ولسبب ما ، قررت (ميرينا) أن تقضى ذلك الشهر فى شقة شقيقها ، بدلا من العودة إلى (تل أبيب) ، حيث تعمل كسكرتيرة تنفيذية لإحدى شركات السياحة الكبرى هناك .. وبسرعة مدهشة ، توطدت علاقة (ميلوسكى) بالفاتنة (ميرينا) ، وبدت أمه شديدة السعادة لهذا الأمر ، ولأن قلب ابنها قد خفق أخيرًا بالحب ، قبل أن يبلغ الأربعين من عمره ..

أما (ميلوسكى) نفسه ، فقد بهرته (ميرينا) ، البولندية الأصل ، بجمالها الفاتن ، وحنانها الجارف ، وقدرتها المدهشة على الاستماع والتعاطف ، حتى إنه كان أكثر أهل الأرض سعادة ، عندما تبادلا أرقام الهاتف قبل انصرافه فجر الأحد ، لعودته إلى عمله فى مصنع النقب ..

وطوال الأسبوع التالى ، لم يستطع (ميلوسكى) إخراج صورتها من ذهنه لحظة واحدة ، حتى إنه كسر عاداته التقليدية فى الأسبوع التالى ، وسافر إلى أمه ظهر الجمعة مباشرة ، دون أن ينتظر صباح السبت كالمعتاد ..

وكان هذا التغيير الكبير يعنى أن رئيس العمال قد اقتنع أخيرًا بآدميته ، وقرر أن تكون له نقطة ضعف كسائر البشر ..

وكان نقطة الضعف هذه هى (ميرينا يازوسكى) ..

(ميرينا) .. التى احتلت جزءًا كبيرًا من عقلـه ، وكل قلبـه بلا منازع ، والتى بدأت منذ مساء السبت التالى فى التحدث بدفء شديد عن حياتها وأسرتها ، وشقيقها الكيميائى الموهوب ، الذى يعانى الأمرين من تعنت رؤسائه ، الذين لا يقدرون أبحاثـه بالغة الخطورة حول المـواد القابلـة للاشتعال ، والتى يمكنـه تطويرها ليصنع منها سلاحًا رهيبًا ، لـم تظفر بـه (إسرائيل) ، أو حتى (أمريكا) من قبل !..

وكان من الطبيعى أن يتداعى الحديث إلى مصنع النقب ، وتلك المادة الرهيبة التى يتم إنتاجها فيه ، وموقع (ميلوسكى) الخطير ، مع الإشارة طبعًا إلى ضرورة الاحتفاظ بكل هذا سرًا ، كما يوصى الرؤساء ..

وأبدت (ميرينا) انبهارًا شديدًا بالأمر ، إلا أنها لم تتحدث عنـه مرة أخرى ، وحتى انصرف عنهـا (ميلوسكى) مرغمًا بعد أن تجاوزت الساعة منتصف الليل ، وودعته هى بابتسامة ساحرة ، لم تغب عن أحلامه لحظة واحدة ، طوال الأسبوع التـالى كلـه .. وعندما قرأ الرجال فى القاهرة ، ذلك التقرير الـذى بثته (ميرنـا) إليهم فـى الثانيـة صباحًا ، أدركـوا أن الأمـر صـار أقـرب إلـى ما خططوا له منذ البداية ..

وأن عليهم أن ينتقلوا إلى الخطوة التالية ..

وكـان هـذا فـى الأسـبوع التـالى مباشـرة ، عندمـا هـرع (ميلوسكى) إلى منزل أمه بعد ظهر الجمعة ، وهوى قلبه بين قدميه ، مع نظرة الحزن والأسى التى أطلت واضحـة مـن عينـى (ميرينا) ، وتقاطرت مع كل كلمة نطقت بها ..

وبكل لهفته ولوعته حاول أن يعـرف سـر حزنهـا ، ولكنهـا لـم تخبره أبـدًا ، إلا فى ظهـر السبت ، عندما بكت على صدره فـى حرارة ، وهى تبلغه أن شـقيقها سيعود فـى نهايـة الأسبوع بعد القادم ، وأنه يطلب منها الاستقالة من عملها ، لأنه لم يعد يحتمل البقاء فى (إسرائيل) ، ولابد لهما من العودة إلى (بولندا) ..

وانتفضت كل خلية فى جسد (ميلوسكى) ، وهوت مع قلبه فى قاع أعماقه ، وهو يصرخ مستنكرًا ومستهجنًا ، ولكنها أبلغته أن رؤساء شقيقها قد رفضوا كل أبحاثه ، ومنعوه من الحصول علـى المواد القابلة للاشتعال ، مما يعنى استحالة استكمال ما يقوم به ..

وفى المساء عرض (ميلوسكى) أية خدمة ممكنة ، حتى تبقى (ميرينا) ، التى لا يمكنه احتمال فكرة رحيلها لحظة واحدة ..

وعلى الرغم من أن هذا ما تسعى إليه هى بالضبط منذ البدايـة ، فإنها رفضت الفكرة تمامًا وقالت إنها لا يمكن أن تعرضـه للخطر من أجلها أبدًا ..

وهكذا راح (ميلوسكى) يلح فى تقديم خدماته ، ويلح .. ويلح .. وهى تواصل رفضها بإصرار ، حتى افترقا فجر الأحد ، وهو أشبه بالمنهار ، لمجرد فكرة رحيلها ، وحرمانه من رؤيتها إلى الأبد ..

وعندئذ أدرك الرجال فى (القاهرة) أن اللعبة قد اكتملت ، والثمرة قد نضجت تمامًا وحان وقت قطافها !

وفى مساء الجمعة التالى ، اقتنعت (ميرنا) بتضحية (ميلوسكى) ، وتحدثت معه عن تلك المادة الرهيبة ، التى يمكن أن تساعد شقيقها فى أبحاثه ، إلى الحد الذى قد يجعلها تقيم معه بصفة دائمة ، وأخبرته أنها تعلم مدى سرية وخطورة تلك المادة ، وقد فكرت فى الأمر جيدًا ، ووجدت أن عينة صغيرة منها لن تمثل خطورة كبرى ، كما أن شقيقها سيحتفظ بالأمر سرًا حتمًا ، كما أن أبحاثه ستأتى بمادة جديدة ، لايمكن ربطها قط بتلك العينة ..

كان هذا يناقض كل ما تلقاه (ميلوسكى) من تعليمات ومحاضرات أمنية ، عندما التحق بالعمل فى مصنع النقب ، إلا أن لهفته الشديدة على (ميرينا) التى ترفض دائمًا أى تجاوز فى علاقتهما ، باعتبارها شديدة التدين ، جعلته يطرح تساؤلاً واحدًا :

ـ ولكن كيف يمكننى الخروج بعينة المادة ..؟!

إنهم يفتشوننا بدقة ، حتى إنه من المستحيل تهريب سنتيمتر واحد منها !!

ابتسمت (ميرنا) ابتسامتها الساحرة ، ورمقته بنظرة ناعسة ، وهى تقول :

ـ لقد فكرت فى هذا .. وعندى وسيلة مضمونة...

وعندما عاد (ميلوسكى) إلى عمله ، فى الأحد التالى ، لاحظ الجميع ، حتى طاقم الأمن ، أنه يسعل بشدة ، حتى إنه يحمل معه زجاجة من دواء السعال ، يتناول منها جرعة صغيرة ، كل ثمانى ساعات ..

ولقد حاول مخلصًا ، كما أكد زملاؤه ، أن يواصل عمله مع ذلك السعال الشديد ، الذى لم يهدأ لحظةً واحدةً ، على الرغم من تناوله الدواء على نحو منتظم ..

ومع نهاية يوم العمل التالى ، قرر رئيسه أنه يحتاج إلى العرض على الطبيب المختص ، فى المستشفى الذى يبعد عن المصنع عشرة كيلومترات فحسب ..

وفى صباح اليوم الثالث ، حملت سيارة المصنع (ميلوسكى) إلى المستشفى ، وهو يواصل تناول جرعات دواء السعال ، حتى أثناء خضوعه لإجراءات التفتيش الرسمية ، التى لا يمكن التنازل عنها ، لأى سبب من الأسباب ..

وعندما بلغ رئيس العمال المستشفى ، غمغم ساخطًا أن زجاجة الدواء قد نفدت ، دون أن تفيد سعاله ، ثم ألقاها محنقًا فى أول سلة مهملات ، وهو يلعن كل شركات الدواء فى العالم ..

ولقد كانت دهشته شديدة ، عندما أكد الطبيب إصابته بالتهاب فى الشعب الهوائية ، وأوصى بأن يحصل على إجازة مرضية ، حتى نهاية الأسبوع ..

وغادر (ميلوسكى) المستشفى ، وهو يشعر بالانبهار ، لأن العقار الذى أعطته إياه (ميرينا) وأخبرته أنه من ابتكار شقيقها الكيميائى ، قد نجح فى خداع الطبيب على هذا النحو ، على الرغم من أنها لا تعانى من أى سعال حقيقى ..

وتنفيذًا لتعليمات (ميرينا) ، عاد (ميلوسكى) إلى المصنع ، لاستكمال إجراءات الإجازة دون أن يلقى ولو نظرة واحدة على سلة المهملات ، التى ألقى فيها الزجاجة ..

وفى الليلة نفسها ، وقبل حتى أن يستكمل إجراءات إجازته المرضية ، سمعت (ميرينا) دقات هادئة مطمئنة ، على باب شقة شقيقها المزعوم ، فسألت فى حذر :

- من الطارق ؟!

أتاها صوت من خلف الباب يجيب :

- كلمة السر .. (شالوم) .

وفى حذر ، فتحت (ميرينا) الباب ، والتقط الزجاجة من طبيب مستشفى النقب ، الذى سلمها إياها ، وانصرف على الفور ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ..

وفى سرعة ، حطمت (ميرينا) عنق الزجاجة ، والتقط من داخلها كيسًا صغيرًا ، تم إغلاقه بإحكام ، وبداخله عينة من تلك المادة الحارقة ..

وقبل حتى أن ينبلج فجر اليوم التالى ، كانت العينة فى طريقها إلى (القاهرة) ، ليتم تحليلها ، وإنتاج كمية كافية منها ، أجريت بها تجارب بالغة السرية ، على ضفاف النيل ، فى منطقة مهجورة - آنذاك - من المعادى ..

تجارب أكدت أن استخدام تلك المادة ، سيؤدى إلى سحق تسعين فى المائة من قوة العبور الأولى ، وأن من الضرورى منعها من الانطلاق على مياه القناة بأى ثمن ..

وفى الوقت الذى راح فيه (ميلوسكى) يبحث كالمجنون عن (ميرينا) ، التى اختفت فجأة ، تاركة خلفها رسالة ، تقول فيها إن ضميرها قد أنبها ، لما عرضته له من أخطار ، فقررت أن

تدمر العينة التى أرسلها ، وتختفى من حياته إلى الأبد ، كانت القيادة السياسية والعسكرية تضع خطة جديدة للتعامل مع خط اللهب ..

خطة كان لها فضل كبير - بعد الله سبحانه وتعالى - فى تحقيق نصر أكتوبر العظيم ..

النصر الذى كان خطوتنا الأولى نحو السلام ، وكلمة السر ، لبناء حضارة جديدة ..

وآمنة .

* * *

لحن الخطر

اعتدل الطقس فى (تل أبيب) ، بعد موجة حارة غير مألوفة ، فى ذلك الوقت من العام ، فى منتصف سبتمبر 1973م ، وتنفس جنرالات الجيش الإسرائيلى الصعداء ، بعد أن انتهوا ، فى الوقت ذاته ، من مناورتهم الأخيرة ، وقاموا بتسريح جنود الاحتياط الذين يمثلون أربعين فى المائة تقريبًا ، من تعداد الجيش ، واسترخت أجسادهم بعد طول عناء ، وبدءوا يبحثون فى لهفة عن وسيلة للمتعة وقضاء الوقت ، وغسل كل هموم الفترة السابقة ، خاصة أن كل الأخبار ، الواردة من الجبهة المصرية ، كانت تؤكد أن الأمور هناك مستقرة ، ولا تفكير أدنى تفكير فى شن حرب على (إسرائيل) ، خلال العام على الأقل ..

ولأن إدارة العلاقات العامة ، فى الجيش الإسرائيلى ، كانت تدرك هذا جيدًا ، فقد قامت بإعداد حفل موسيقى راقص ، للجنرالات والضباط وزوجاتهم ، فى أكبر النوادى فى (تل أبيب) ، للترفيه عن الرجال ، ورفع روحهم المعنوية ..

ولأن حفلاً كهذا يحتاج إلى طاقم متميز من النجوم ومحترفى

الفن ، فقد تعاقدت القيادة الإسرائيلية مع مجموعة خاصة منهم ، وعلى رأسها (زايون باراخ) ، عازف البيانو الشهير ، الذى ذاع صيته فى العامين الأخيرين ، بعد أن ترك كل أعماله فى (سويسرا) و(النمسا) ، وقرر العيش والاستقرار فى (إسرائيل) ..

وخلال الحفل ، كان (باراخ) متألقًا أكثر من المعتاد ، ابتسامته العذبة الأنيقة لا تفارق شفتيه لحظة واحدة ، وهو يوزع مجاملاته وتحياته على الضباط والجنرالات وزوجاتهم ، وكل قادة وساسة (إسرائيل) ، الذى اكتظ بهم الحفل ..

وكان من الطبيعى أن تدور بينه وبينهم حوارات عديدة ، قصيرة أو طويلة ، وأن تتطرق تلك الحوارات ، بصورة عفوية تامة ، إلى المناورة الأخيرة ، ومدى استعداد الجيش الإسرائيلى لمواجهة الحرب القادمة ، وتصورات قادمة عن موقف العرب ، وبخاصة (مصر) ، وعن حالة اللاسلم واللاحرب ، التى سادت عندهم ، وجعلت حربهم الثأرية ، التى يتحدثون عنها دائمًا ، مجرد حلم فى خيالهم ، لا يمكن بأى حال من الأحوال ، من وجهة النظر الإسرائيلية ، أن يتحول يومًا إلى حقيقة ..

ووسط كل هذا ، ولأن الزهو جزء من تكوين جنرالات (إسرائيل) ، بعد انتصارهم فى نكسة يونيو 1967م ، كان كل منهم يبدى أهميته وحساسية موقعه ، بكشف سر أو بعض الأسرار ، الخاصة بعمله ، ثم يطالب مستمعه بكتمان الأمر ، لخطورته وأهميته ..

وطوال الوقت ، وهو يستمع إلى كل هذا ، ظلَّ (باراخ) هادئًا مبتسمًا يتنقل بين الجميع بمنتهى الحيوية والنشاط ..

حتى حانت فقرته ..

وبهدوئه ورصانته المعهودتين ، اتجه (باراخ) إلى البيانو الأبيض الأنيق ، فى ركن القاعة ، وسط عاصفة من التصفيق والحماس ، وانحنى يرد تحية جمهوره ، ثم صمت بضع لحظات ، وكأنما يفكر فى عمق أو يجرى بعض الحسابات الدقيقة ..

وبعدها انطلقت أصابعه تعزف على البيانو ، نغمات وألحانًا رائعة ..

وفى لهفة وحماس ، أخرج أحد الجنود الإسرائيليين من جيبه

جهاز تسجيل صغير ، وراح يسجل لحن (باراخ) الجديد ، ورأسه يتمايل معه حبًّا واستمتاعًا ..

ومع نهاية الليل ، انفض الحفل ، وخرج الموسيقار ليلبى دعوة أحد الجنرالات وزوجته ، لقضاء ما تبقى من الوقت فى حفل محدود بمنزلهما ، وبدأ العمال فى تنظيف المكان وتنظيمه .. أما ذلك الجندى ، فقد حمل جهاز التسجيل الصغير فى جيبه بمنتهى الحرص ، وعاد به إلى منزله ، فى أحد الأحياء البسيطة ، ولم يكد يغلق بابه خلفه ، حتى أسرع إلى ركن فى مكتبته ، فأزاحه فى سرعة ، وأخرج من خلفه جهاز إرسال لاسلكى دقيقًا صغير الحجم ، أوصله بجهاز التسجيل ، ثم راح يبث الموسيقى ، التى سجلها فى الحفل ، عبر موجات الأثير ..

وفى (القاهرة) ، راح الرجال يستقبلون اللحن باهتمام بالغ ، فى قسم الاستماع والاعتراض ، ثم تم نقله فور الانتهاء من تسجيله إلى قسم معالجة الشفرة ، قبل أن يتسلمه ضابط المخابرات العامة المصرى (عاصم) فى مكتبه ، على هيئة تقرير مطبوع ..

تقرير يحوى كل الأسرار ، التى تناقلتها الألسن ، خلال حفل العلاقات العامة الإسرائيلى .. فالمدهش ، والذى لم يكن ليخطر على بال أحد قط ، هو أن اللحن الجميل الأنيق ، الذى عزفه (زايون باراخ) كان فى واقع الأمر نوعًا مبتكرًا عبقريًّا من الرسائل ..

رسائل الشفرة ، التى تحمل فى طياتها عبارة مدهشة ..

عبارة (صنع فى مصر) .

* * *

(زايون يائيل باراخ) .. موسيقى نمساوى الجنسية ، يهودى الديانة ، ولد مع بداية الحرب العالمية الثانية 1939م ، ومع احتلال قوات النازية (للنمسا) ، مما دفع أمه اليهودية إلى الفرار به إلى (سويسرا) هربًا من جيش (هتلر) ، وما يحمله معه من نوايا غير حسنة تجاه اليهود ، فى حين بقى والده فى (النمسا) ، واشتعل بالحماس للحزب النازى ، ثم لم يلبث أن انضم إلى الجيش الألمانى ، وقاتل فى (فرنسا) و(بلجيكا) و(روسيا) ، التى لقى مصرعه بين ثلوجها ، دون أن يرى ابنه سوى مرة واحدة عند ولادته ..

وفى (سويسرا) ، نشأ (باراخ) الصغير ضعيفًا نحيلاً ، شاحب الوجه ، يشاهد أمه كل ليلة ، وهى تعود بعد منتصف الليل ، وقد غمرت مساحيق التجميل وجهها ، وامتزجت برائحة التعب والإرهاق ، وبصحبتها رجل ، يختلف فى كل ليلة ، ليدفعاه دفعًا إلى حجرته ، ويغلقا بابها عليه ، ثم تتعالى ضحكاتهما ، التى تبدو له أشبه بصراخ شيطان ، فى قلب الجحيم ..

واعتاد الصغير الوحدة فى حجرته ، ولم يجد ما يفعله ، حتى تفرج عنه أمه فى الصباح ، أو عند الظهر ، لو شئنا الدقة ، سوى أن يجرى بأصابعه على البيانو الخشبى الصغير ، الذى أهداه له رجل بدين لطيف الملامح ، لم يره أيضًا سوى ليلة واحدة ، ثم اختفى بعدها تمامًا ، كما يختفى كل أصدقاء أمه عادة ..

وعندما بلغ السادسة من عمره أخبرته والدته أن الحرب قد وضعت أوزارها ، وأن (هتلر) ، الذى وصفته بالسفاح ، قد لقى مصرعه ، وصار بوسعهم العودة إلى (النمسا) ، التى أطلقت عليها اسم الوطن ..

ولم يكن للاسم أى مدلول ، بالنسبة للصبى ، إلا أنه بدا له وسيلة للخلاص من سجنه الإجبارى ، وشعوره الدائم بالخوف والوحدة ، الذى يلازمه كل ليلة ..

ولكنهما لم يعودا إلى النمسا (مباشرة) ..

كل ما حدث هو أن شيئًا ما قد تغير فى حياته ، منذ حدثت تلك المشاجرة العنيفة ، بين أمه وأحد أصدقائها ، إلى الحد الذى استدعى تدخل الشرطة ، واختفاء أمه ليوم كامل قضاه سجينًا فى حجرته ، بين فراشه والبيانو الصغير ، وقد راوده شعور بأن أمه لن تعود أبدًا ، وستتركه يموت سجينًا هكذا ..

بعدها لم تعد أمه تحضر الأصدقاء إلى المنزل ..

لقد التحقت بعمل مستقر ، فى ملهى شهير ، تذهب إليه فى الثامنة مساءً ، وتعود منه فى السادسة صباحًا مرهقة منهكة ، فتسقط فى نوم عميق ، حتى الثالثة أو الرابعة ظهرًا ..

ثم إنها لم تعد تسجنه فى حجرته ..

لقد أرسلته إلى مدرسة مجاورة ، ليتعلم القراءة والكتابة ، ويحصل على ما حرمت منه فى طفولتها .. التعليم ..

ولقد أقبل الصبى على التعليم بشغف حقيقى ، وأقبل أكثر على دروس الموسيقى ، التى أبدى فيها موهبة ملحوظة ، فى العزف على البيانو ، حتى إن المدرسة راحت تعتمد عليه فى حفلات نهاية العام ، كطفل موهوب وعازف يكاد يتفوق على المحترفين ..

ومع عامه العاشر ، اتخذت أمه قرارها بالعودة إلى (النمسا) ..

وهناك ، تبدلت حياة الصبى أكثر وأكثر ..

لقد اصطحبته أمه معها ، فى الكازينو الذى التحقت بالعمل فيه ، وقدمته لصاحبه كطفل عازف موهوب ، يمكن أن يجذب انتباه الزبائن ، ويضع بصمة مميزة للمكان ، وراقت الفكرة لصاحب الكازينو ، فألحقها وابنها بالعمل ، وأسند إليه مهمة العزف فى أثناء تقديم الطعام فى الفترة المسائية ..

وكان هذا أسوأ ما أصاب الصبى ، فى عمره كله ..

صحيح أنه راح يمارس عملاً يحبه ويعشقه ، إلا أنه ولأول مرة فى حياته ، كان يشاهد أمه ، وهى تمارس عملها المبتذل ، فى التسرية عن الزبائن ، ومجالستهم ، ومحاولة إغرائهم بطلب المزيد من الأطعمة ، والمشروبات ، لكى تحصل فى النهاية على عمولة جيدة منهم ساعدتها على استئجار شقة أنيقة والتوقف تمامًا عن أية ممارسات أخرى .. ثم فجأة ، برزت فكرة الهجرة إلى (إسرائيل) ..

دون أية مقدمات ، راحت أمه تتحدث عن السفر إلى (إسرائيل) ، وكأنه حلم الأحلام ، والأمل الوحيد فى مستقبل راق سعيد ..

ولأن (باراخ) كان عندئذ فى السادسة عشرة من عمره ، وقلبه يخفق لأول مرة بحب جارته الشابة ، فقد رفض فكرة الهجرة تمامًا ، وأصر على رفضها ، وأصرت أمه على أن مستقبلهما الوحيد هناك ، ثم تحول الأمر بينهما إلى عناد وصراع ، حسمته الأم بموقف لم يتوقعه هو أبدًا ..

لقد تركته وحيدًا فى (النمسا) ، وهاجرت هى إلى (إسرائيل) ..

وكانت أول مرة فى حياته ، يكره فيها كلمة (إسرائيل) ..

ولكن عناده دفعه إلى البقاء ، والقتال وحده ، فى سبيل العيش ..

والعجيب أنه قد نجح فى هذا تمامًا ..

لقد ذاع صيته على نحو مدهش ، وهو فى العشرين من عمره ، كعازف بيانو رومانسى بارع ، يكفى أن تسمع ألحانه ليخفق قلبك بكل حب الدنيا ..

وفى عام 1964م ، وفى عيد مولده الخامس والعشرين ، كان (باراخ) قد صار واحدًا من أشهر عازفى البيانو ، فى (النمسا) و(سويسرا) ، التى لم ينقطع عامًا واحدًا عن زيارتها ، وقضاء بعض الوقت فى شوارعها الهادئة ، التى لم يرها قط ، طوال فترة نشأته فيها ..

وفى تلك الفترة ، وفى أثناء إحدى زياراته القصيرة ، التقى (باراخ) برجل المخابرات المصرى (عاصم) فى (جنيف) ..

الأوراق المتاحة كلها لم تشف عن الطبيعة الحقيقية لهذا اللقاء .. هل كان لقاء بمحض المصادفة ، أم مقابلة متعمدة ، رتبها وأعدها جهاز المخابرات العامة المصرى ، بعد أن أعلن

(زايون باراخ) ، فى أكثر من مناسبة ، عن كراهيته الشديدة لدولة (إسرائيل) ، ورفضه التام كفنان لفكرة احتلال أراضى الغير بالقوة ، مهما تكن الأسباب والمبررات ..!!

لا أحد يمكنه الجزم بهذا الأمر ..

ولا أحد يمكنه أيضًا أن يفصح عن تفاصيل اللقاء ..

أو عن الحوارات التى دارت خلاله ..

ولكن الأمر الوحيد المؤكد ، هو أن بذرة تجنيد (زايون باراخ) ، للعمل لحساب المخابرات المصرية ، قد وضعت خلال تلك المقابلة ..

وبعد عام واحد من هذه المقابلة ، تغير أسلوب (باراخ) تمامًا ..

لقد توقف تمامًا عن إعلان كراهيته لدولة (إسرائيل) ..

بل وتغير أسلوبه أيضًا فى التحدث عنها ..

والعجيب أن هذا قد تواكب مع أمر جلل ، كان كفيلاً بأن يضاعف كراهيته لكل شبر فى (إسرائيل) ألف مرة ..

ففى (إسرائيل) ، وفى أثناء عملها فى بار صغير ، تشاجرت أمه مع أحد ضباط الجيش ، الذى حاول مغازلتها بطريقة فجة ، فصفعته على وجهه أمام الجميع وطردته من المكان كله ..

وعند انصرافها من البار ، فى الثالثة صباحًا ، أطلق الضابط المخمور عليها كل رصاصات مسدسه ، وتركها قتيلة صريعة فى عرض الطريق ، حتى تم نقلها إلى المشرحة ، فى الخامسة والنصف صباحًا ..

ولقد علم (باراخ) بالأمر ، من خلال أحد معجبيه فى (حيفا) ، ولكنه لم يتحدث عنه قط ، وإنما راح يوطد علاقاته بعدد من اليهود فى (النمسا) ، وبالذات الأثرياء منهم ، وبذوى السلطة والنفوذ ..

وفى عام 1967م .. وبعد انتصار اليهود ، واحتلالهم الكامل لـ (سيناء) ، والجولان ، والضفة الغربية ، تمت دعوة (باراخ) للعزف فى احتفالات النصر فى (تل أبيب) ..

وكانت أول مرة يطأ فيها (إسرائيل) بقدميه ، فى حياته كلها ..

ولقد أخبر (عاصم) فيما بعد ، أنه كاد يفرغ ما فى معدته ، فور وصوله إليها ، فقد بدا له الهواء كله مشبعًا برائحة الدم والغدر والعار والخيانة ، على نحو عافته نفسه تمامًا ، وجعله يقرر بذل المزيد والمزيد ، فى سبيل ما يطلبه منه المصريون ..

والواقع أن المصريين كانوا يطلبون الكثير والكثير ، فى تلك الفترة ، فقد كان عليهم ، بعد نكسة يونيو ، أن يعيدوا بناء الجيش ، وتوحيد الصفوف ، وأن يستعدوا فى الوقت ذاته لحرب ثأرية حتمية ، لاستعادة الأرض السليبة ، والكرامة المهدرة ..

ولقد كان (باراخ) بالنسبة لهم جاسوسًا مثاليًا ..

لولا خلل واحد ..

فعلى الرغم من عبقريته الفذة فى العزف والموسيقى، عجز (باراخ) تمامًا عن استيعاب كل أنواع الشفرة الحديثة، ورفض فى عناد الاستماع إلى كل من حاولوا تعليمه وتلقينه إياها ..

ولكن المخابرات المصرية كانت تسعى لإرسال (باراخ) إلى (إسرائيل)، ليستقر فيها بعض الوقت، ويوطد علاقاته ببعض ذوى السلطة والنفوذ هناك، حتى يمكنه جمع كل ما يحتاجونه من معلومات، مع اقتراب ساعة الصفر، لذا قد كان من المحتم أن يتم البحث عن وسيلة جديدة لتبادل المعلومات، بدلاً من كل وسائل الشفرة التقليدية ..

وسيلة تناسب (باراخ) بالذات ..

وهنا، قفزت الفكرة فى رأس (عاصم) ..

وبسرعة، طرحها على مائدة البحث، فى أول اجتماع محدود ..

لماذا لا يتم ابتكار شفرة خاصة، ترتبط بالشىء الوحيد، الذى يمكن أن يحبه ويستوعبه (زايون باراخ) ؟!..

الموسيقى ..

ولقد لاقت الفكرة قبول الجميع على الفور، ولكنها طرحت السؤال التالى :

ـ من يمكنه ابتكار شفرة كهذه ؟

وجاء الجواب أكثر بساطة ومباشرة، على لسان (عاصم) نفسه ..

ـ إننا نحتاج إلى موسيقار، وخبير بالشفرة معًا ..

ولساعة أخرى، راح الرجال يتحاورون ويتجادلون، ويستعرضون عددًا محدودًا من الأسماء، قبل أن يستقر رأيهم على اسم واحد من أشهر ملحنى وموسيقيى العصر، للتعاون مع خبير الشفرة الموسيقية الجديدة ..

ولقد أبدى الملحن الشهير تفهمًا وتعاونًا كاملين، بعد أن استمع إلى (عاصم) بوقاره ورصانته الشهيرين، ثم راح يلقى عشرات الأسئلة على خبير الشفرة، حول أساليب صنعها، وتكوينها، ووسائل التعامل معها ..

وعلى الرغم من أن كل تلك المعلومات تندرج تحت بند السرية المطلقة، فقد أجابه عنها خبير الشفرة بمنتهى الوضوح والدقة، و(عاصم) يتابعه فى صمت تام، وكله ثقة فى أن الموسيقار الشهير يدرك مدى سرية وخطورة الأمر، وأن لسانه لن يفصح عن حرف واحد مما سمعه، حتى لزوجته وأبنائه ..

ومن المؤكد أن وجهة نظر (عاصم) ومن خلفه المخابرات العامة المصرية كلها كانت سليمة تمامًا ، إذ حافظ الموسيقار الكبير على السر حتى وفاته ، دون أن يعلم به أحد قط ، على الرغم من أنه قد قضى ثلاثة أشهر كاملة ، مع خبير الشفرة ، لوضع القواعد الأساسية لها ، باستخدام النوتة الموسيقية ، التى وصفها الموسيقار بأنها لغة عالمية ، يمكن أن يفهمها أى دارس للموسيقى ، فى أى مكان فى العالم ..

ولقد أعلن (باراخ) عن ذهوله الحقيقى ، عندما بدأ يتعلم تلك الشفرة الموسيقية ، على يد الموسيقار الكبير ..

لقد كانت شفرة بسيطة ومتقنة ، وعبقرية بالفعل ، ترتبط بمدخل ومخرج كل جملة موسيقية ، بحيث تنقل كل المعلومات المطلوبة ، دون أدنى خلل فى اللحن الأصلى ..

وانبهر (باراخ) انبهارًا بلا حدود ، مع استيعابه لتلك الشفرة ، حتى إنه انحنى أمام الموسيقار الكبير ، قائلاً فى احترام بلغ حده الأقصى :

ـ صدقنى يا سيدنى .. ما دام لـ (مصر) أبناء مثلك ، فسيكتب لها النصر حتمًا ، مهما طال الزمن .

وابتسم الموسيقار الكبير ، وأطلق ضحكته الرصينة الشهيرة ،

قبل أن يصافح (باراخ) مودعًا ، ويوصيه بتذكر نهايات الجمل الموسيقية دائمًا ..

ومنذ ذلك الحين بدأ (باراخ) يعمل بأسلوب جديد ..

لقد ترك أعماله كلها ، وسافر ليقيم فى (تل أبيب) ، ويوطد علاقاته أكثر وأكثر برجال السلطة السياسية والجيش فى (إسرائيل) ، ويحصل على كل المعلومات الممكنة منهم ، ثم يحولها إلى جمل موسيقية بسيطة ، يضيفها بنظام مدروس إلى اللحن الأساسى ، بحيث تبدو أشبه بتنويعات أو توزيعات جديدة ، لا يمكن أن يفهمها ، أو يدرك مغزاها الحقيقى ، سوى رجال الشفرة فى المخابرات المصرية وحدها ..

وهكذا نقل (باراخ) إلى المصريين الكثير من المعلومات عن خط (بارليف) ، ونظم الطيران ، وتوزيع وحدات الجيش ، والنظام الأمنى الداخلى ، وغيرها وغيرها ..

وفى الأول من أكتوبر 1973م ، كانت لدى (باراخ) معلومات بالغة الخطورة والسرية ، تتعلق بالمخابرات الإسرائيلية ، ومعلوماتها عن استعداد المصريين للقتال ، حتى إن الأمر قد استدعى سفر (عاصم) بنفسه ، ليلتقى به فى (سويسرا) ، ويحصل على المعلومات ..

وبعد أن انتهى لقاؤهما ، وانطلق (باراخ) فى طريقه إلى حجرته ، فوجئ أمامه بضابط من ضباط المخابرات الإسرائيلية يستوقفه ، ويقدم له نفسه بأسلوب جاف ، سقط له قلب الرجل بين قدميه ، وتصور أن أمره قد انكشف ، وأن الإسرائيليين قد أرسلوا من يلقى القبض عليه فى (جنيف) ..

ولكن الإسرائيلى قدم له نفسه ، وذكره بأنهما قد التقيا فى أحد حفلات الجيش ، وأنه شديد الإعجاب به وبفنه وألحانه ، ثم همس فى أذنه أنه هنا ليقوم بعمل خطير ، وربما يقضى على أحد ضباط المخابرات المصرية ، ودعاه لرؤية ما سيحدث بنفسه ..

وفى هدوء مدهش ، وافقه (باراخ) على الأمر ، وعاد معه إلى صالة الفندق ، وتجاهل (عاصم) تمامًا ، وكأنما لم يره من قبل قط ثم اتجه إلى البيانو ، وراح يعزف ..

وبينما يدور الضابط الإسرائيلى ويناور لحصار (عاصم) ، كانت أذنا هذا الأخير تلتقطان اللحن الذى يعزفه (باراخ) .. وتفهمه ..

كان لحنًا تحذيريًا ، يحمل عبارة واحدة بالشفرة الموسيقية الجديدة ..

« خطر .. غادر المكان على الفور .. »

واستوعب (عاصم) الأمر ، وغادر المكان كله بأقصى سرعة ،

واستخدم كل حنكته وخبرته ، للإفلات من الإسرائيلى الذى تبعه فى غضب عصبى ، حتى اختفى منه ، وسط شوارع (جنيف) .. واندلعت حرب أكتوبر 1973م ..

واندحر الإسرائيليون على نحو رد إلينا كرامتنا ، ومهد الطريق أمام استعادة الأرض السليبة ..

وبعد النصر ، وإيقاف إطلاق النار ، التقى (باراخ) بعدد من رجال المخابرات المصرية فى (أوروبا) ، وقرر أن يقدم لهم لحنًا خاصًا من تأليفه ..

وعندما بدأ العزف ، ومع اللحن الناعم المنساب ، اتسعت ابتسامة (عاصم) ، وبادله (باراخ) الابتسام ..

فكلاهما فقط ، أدرك الشفرة فى اللحن الجديد ..

الشفرة التى حملت عبارة واحدة ..

« مبروك النصر .. »

وكان هذا آخر ألحان (زايون باراخ) .

تحت علم (مصر) .

* * *

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

حرب الجواسيس

زهرة السُّمّ

6

د. نبيل فاروق

صراع العقول الذى يتفوق دومًا على أعتى الأسلحة والمعدات

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

5 / 7 / 008